مدرسة شهداء الصحابة

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: مدرسة شهداء الصحابة
المـــؤلـــف: مصطفى نصر زهران
موضوع الكتاب: إسلامي
عدد الصفحات: 224 صفحة
عدد المـــلازم: 14 ملزمة
مقاس الكتـاب: 24 × 17
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-337

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

مدرسة شهداء الصحابة

تأليف

مصطفى نصر زهران

دار البشير
للثقافة والعلوم

لماذا سير الصحابة؟

هذه الصفحات التي بين يديك أيها القارئ الكريم تتحدث عن رجال من مدرسة النبوة، وكيفية الانتفاع بتضحياتهم في حياتنا؛ ليحدث الوصال الحقيقي بين الحاضر والماضي؛ فيتغير تبعًا لذلك الفرد، ومن ثم الأمة جمعاء.

ولعلك أخي القارئ تتساءل عن السبب الذي يدفع كاتب هذه السطور لكثرة الحديث عن الصحابة في عدة كتابات سابقة حتى أصبح هذا الحديث هو القاسم المشترك في كُتبه الأخيرة!

وبالفعل هناك دوافع تسوقني إلى كثرة الحديث عن الصحابة - رضي الله عنهم - وعدم الملل من ذلك، وأعترف بأنني قد أكرر بعض المواقف والمعاني والأفكار في هذه الكتابات.

ومن أهم هذه الدوافع هو ذلك الواقع المرير الذي تحياه أمتنا، واحتياجها الماس إلى مشروع ينهض بها، ويعيدها إلى سيرتها الأولى.

ولقد أكرمنا الله تعالى وتفضل علينا؛ فلله الحَمْدُ والمِنَّة، وأرانا كيف يمكن الاستفادة من التاريخ الإسلامي؛ لاستلهام الدروس والعِبر.

فالسيرة النبوية وحياة الصحابة مصدر إلهام لعودة الوعي لهذه الأمة العظيمة، وفيه كل ما تحتاجه الأمة من قدوة؛ للخروج من النفق المظلم الذي تسير فيه، والنهوض من كبْوتها التي طالت وطالت.

مقدمة

الإيمان بالله هو الحياة، والحياة الحقيقية هي الحياة الإيمانية، وعلى قدر امتلاء القلب بالإيمان، وارتواء الفؤاد بمعانيه تكون التضحية والبذل برهانًا على صدقه ودليلاً قويًا عليه، الإيمان وما أدارك ما الإيمان؟ إنه تلك الطاقة الجبارة، والحماسة الفوارة، والنور المتلألئ الذي يبعث في الأجساد الميتة روح الحياة، فتسري في دمائها بشاشة الإيمان، فتصوغ من تلك النفوس نفسًا زكية وأخلاقًا رضية، تنبهر لجلالها وروعتها عيون الناظرين، وتطرب بالحديث عنها آذان السامعين، وتأنس بها وتسعد بها قلوب الصادقين.

ولا زالت الأرض تشهد بروعة بذل هذا الجيل الرباني في سبيل الله، فأنى اتجهت؛ وجدت حبات الرمال والهضاب والسهول تنطق بصدق التضحية التي قدَمها ذلكم الجيل الفريد، فقد صدقوا مع ربهم، فوفوا له بعودهم وبذلوا أرواحهم ومهجهم ودماءهم وأموالهم في سبيل الله – عز وجل –.

هذا هو الإسلام واقعًا حيًا متحركًا يتلألأ في دنيا البشر، وتلك هي أروع صورة للإسلام في تاريخ الزمان، وعلى مدار الليالي والأيام، من أراد أن يرى صورة العبودية الحقيقية لله؛ فلينظر في حياة الصحابة الكرام الذين اصطفاهم ربهم وأعز بهم الإسلام أولئك الذين صابروا وصبروا حتى تم أمر الدين واستقام.

وكم يندهش القلب، وينبهر العقل، ويرتاع الفؤاد عند النظر في سير هؤلاء الأكابر العظماء، هؤلاء الذين ملأت عزتهم وعظمتهم سمع الزمان، وعطرت أعمالهم الصالحة نسيم الأيام وطابت بهم الدنيا، وسعدت بقرباتهم أبواب السماء.

لقد سجَّل التاريخ، وتعاقبت الأيام، وتقدم الزمان، ومازالت مآثرهم مصدرعزٍوإباء؛ فلقد سطر الصحابة الكرام في جبهة الزمن صفحات من نور

تشهد بكل معاني النبل والوفاء، وتنطق بصدق العبودية والطاعة لله – عز وجل –.

فيا لهم من أطهار أبرار أوفياء خضعت لهم الدنيا كلها وأذلوا فارس والروم، وسحقوا الكفر والظلم والجهل بعد أن تربوا على يد سيد الخلق رسول الله – ﷺ –؛ فاقتبسوا عظمتهم من عظمته، وزكت نفوسهم، وطهرت قلوبهم بهذه التربية النبوية.

؛ لذلك جاءت أهمية هذا الكتاب الذي بين أيديكم، الذي نقدم فيه نخبة من شهداء الصحابة ينوبون عن الألوف العديد من إخوانهم الذين عاصروا الرسول ﷺ، وآمنوا به، ونصروه.

ففي صورهم هذه نرى صور جميع الأصحاب، نرى إيمانهم، وثباتهم، وولاءهم لله ولرسوله، نرى البذل الذي بذلوا، والهول الذي احتملوا، والفوز الذي أحرزوا، نرى الدور الجليل الذي نهضوا به؛ لتحرير البشرية كلها من وثنية الضمير، وضياع المصير، ولن يجد القارئ الكريم بين هؤلاء الصفوة الصحابة المشاهير كعمر، وعثمان، وعلي، وأبو عبيدة وغيرهم.

لهذا كان هذا الكتاب صفحة نابضة بالحياة، شاهدة بالعظمة ناطقة بجلال وصدق الإيمان والتضحية عند الصحابة الكرام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

مصطفى نصر زهران

حارثة بن سراقة

شاب أصاب الفردوس:

إلى كل شباب المسلمين، بل إلى المسلمين جميعًا، أهدي هذه السطور التي تحوي قصة عظيمة، تتجسد من خلالها حياة شاب من شباب الأنصار، كان له حلمٌ، وكانت له أُمنيةٌ، لكنهما لم يكونا كأحلام وأمنيات الكثير منا شباب هذا العصر، فقد كان حلمه غير ذلك تماما: الشهادة في سبيل الله تحت راية الرسول الأعظم، وكانت أمنيته غير كل الأماني: فقد كانت أمنيته أن يسكن الفردوس الأعلى مع النبيَين والصديقين والشهداء، فسعى نحو ذلك صادقًا فصدقه الله تعالى، إنه حارثة بن سراقة - رضي الله عنه -.

في رحاب المجد:

هو حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدي بن مالك النجاري الأنصاري، نشأ حارثة - رضي الله عنه - بين أحضان عائلة عريقة الشرف والنسب، فهو من بني النجار أخوال عبد المطلب جدَ النبي ﷺ، والذين مدحهم النبي ﷺ قائلاً: خيرُ دُور الأنصار بنو النجار، وهم كذلك الذين شرفهم النبي - ﷺ - بنزوله عليهم أول مقدمه المدينة، وشب حارثة في هذه البيئة الصالحة، وقبل نتعايش مع سيرة هذا الشاب الشهيد، تعالوا نتعارف على هذه العائلة المباركة التي احتضنت هذا الشاب المبارك:

أما أمه؛ فهي: الرَبيعُ بنت النضر - رضي الله عنها - كانت من الصحابيات اللائي عشن في ظل الإسلام، ونبتن نباتًا حسنًا من شجرة دانية القطوف، مباركة الثمر، وكانت إحدى السابقات إلى الإسلام من نساء الأنصار الفاضلات، وإحدى النساء من

ذوات الشأن في الإسلام، ومن اللاتي رباهنَ محمد - ﷺ - تربية خيرة مباركة، فجادت بالعطاء والخير، فكانت من كرائم النساء.

أما خاله؛ فهو: الشهيد الصادق مع ربه أنس بن النضر - رضي الله عنه -، المؤيد بالثبات والنصر، المستشهد بأحد، بعد حزنه لتغيبه عن بدر، تنسم بالروائح، فجاد بالجوارح، وفاز بالمنائح - وقد ترجمنا له في أول هذا الكتاب -.

أما ابن خاله الأكبر؛ فهو: الفدائي الشهيد البراء بن مالك بن النضر، هو الذي قالت عنه كتب السير والتراجم: إنه أحد فضلاء الصحابة الأنصار، وأحد السادة الأبرار الذين يضرب بهم المثل في الفروسية، والذي قتل من الأعداء المشركين مائة في مواطن المواجهة والمبارزة، ولا عجب في ذلك فهو البطل الكمي الباسل الذي كتب الفاروق بشأنه إلى عماله في الآفاق: ألا يولوه على جيش من جيوش المسلمين خوفًا من أن يهلكهم بإقدامه.

أما ابن خاله الآخر؛ ففهو: خادم الرسول أنس بن مالك بن النضر، الذي قيل في حقه كان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر، وأشبه الرجال بصلاة رسول الله، كان رضي الله عنه لبيبًا حقًا، يرى ببصيرته أكثر مما يرى ببصره؛ لهذا حمل من العلم ما لا يحمله أكابر الرجال المقربين إلى الرسول - ﷺ -؛وذلك لكثرة ملازمته له في بيته وفي مسجده وفي غزوته كلها.

تربية صادقة:

كانت الربيعُ - رضي الله عنها - ممن أكرمهن الله سبحانه وأحسن مثوبتهن، فأمومة أم حارثة يحتذى بها، فقد كانت تزن الأمور بميزان الإسلام، وقد ربت ولديها: حارثة، وأخته أم عبيد رضي الله عنهما على مائدةِ الإخلاص، والصفاء، والوفاء، وقد أعدت حارثة إعدادً خاصًا؛ ليكون من جند الحق، فغرست فيه الفضائل، وفي مقدمتها حب النبي ﷺ، وحب الشهادة في سبيل الله، ويعد حارثة من فتية الأنصار الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى، فقد شغله حب الجهاد والشهادة في سبيل الله عن الدنيا وما فيها.

لذلك شبَ حارثة – ﷺ – وهو بارًا بأمه مطيعًا لها حتى بلغ من قلبها مكانة جعلتها تقول للنبي – ﷺ – يومًا: يا رسول الله، قد علمت موقع حارثة من قلبي.

في جوار الحبيب:

لما هاجر النبي – ﷺ – إلى المدينة خرج الأنصار بنسائهم وأبنائهم على أبوابها لاستقبال رسول الله – ﷺ –، فكان استقبالاً حافلاً لم تشهد البشرية مثله قط، يصفه أنس بن مالك ﷺ قائلاً: إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمدٌ، فأسعى فلا أرى شيئًا، ثم يقولون: جاء محمدٌ، فأسعى فلا أرى شيئًا، حتى جاء رسول الله – ﷺ – وصاحبه أبو بكر، فكما في بعض حرار المدينة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية؛ ليؤذن بهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبهُ بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى إن العواتق لفوق البيوت يتراءينه، يقُلن: أيهم هو، أيهم هو؟ قال أنسٌ: فما رأينا منظرًا شبيهًا به يومئذٍ.

كيف أصبحت يا حارثة:

كان حارثة غلامًا فطنًا نبيهًا في مقتبل العمر؛ لذلك أدرك على صغر سنه مرتبة الشهداء، وما لهم عند ربهم من الأجرِ والمثوبة، فكان يسأل النبي – ﷺ – أن يدعو له الله؛ ليقتل في سبيله، فكان له ما طلَب، وفاز بالشهادة، وتبوأ الفردوس الأعلى، كما أخبر الصادق المصدوق الذي ما ينطق عن الهوى، فكان شهيد ابن شهيدٍ، وقد آنس الحلبي القلوب لما تكلم عن حارثة في سيرته، حيث قال:

لما بلغ حارثة طور الشباب كان قد امتلأ إيمانًا إلى مشاشه، فلقيه النبي – ﷺ – يوما في إحدى طرقات المدينة، في صباح مشرق جميل، فقال له النبي – ﷺ –: كيف أصبحت يا حارثة؟ فقال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًا، قال: انظر ما تقول، فإن لكل قولٍ حقيقة، قال: يا رسول الله، عزلت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت

نهاري، فكأني بعرش الرحمن بارز، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاورن فيها، فقال النبي - ﷺ له -: أبصرت فالزم أي: أنت عبد بذر الله الإيمان في قلبه -، وفي رواية أخرى قال: أصبت فالزم، عبدٌ نور الله تعالى الإيمان في قلبه، فقال: ادع الله لي بالشهادة، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك.

يا خيل الله اركبي:

ولما أراد النبي - ﷺ - أن يخرج للقاء المشركين في غزوة بدر الكبرى، قال للمسلمين: إن لنا طلبة، فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا، فجعل رجالٌ يستأذنون في ظهرانهم في علو المدينة، فقال ﷺ: لا، إلا من كان ظهره حاضرًا، فانطلق رسول الله - ﷺ - وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدرٍ.

وكان أول الذين سارعوا في الخروج حارثة بن سراقة - رضي الله عنه -، ذلكم الشاب الأنصاري الذي طالما حلم بما أعده الرحمن للشهداء في جنات النعيم، فقد قال ابن خالته أنس بن مالك رضي الله عنه: فنودي يومًا: يا خيل الله اركبي، فكان حارثة أول فارس ركب.

وكأني بأمه الربيع - رضي الله عنها - تعانق ولدها البارَ وتقبله، وهي تجهزه للخروج مع رسول الله - ﷺ -، ثم تنظر إليه نظرة طويلة بعد وداعه إياها حتى غاب عن بصرها، وهي لا تدري أيعود الولد الحنون إليها، أم لا؟ وكأني بقلبها الملتهب يحرَك الدمع في المآقي فينهمر يبُلُ الثرى، فإن ثمرة فؤادها لم يذهب في رحلة، أو إلى نزهة، بل ذهب للحرب، ولكن بشاشة الإيمان تنزل على نيران قلبها تجعلها بردًا وسلامًا.

حان وقت الشهادة:

خرج حارثة مصحوبًا بدعوات أمه، وكان حارثة يدرج في باكر شباه، أو في منتصف الطريق بين الصبا والشباب، خرج مع الرسول القائد - ﷺ - منضويًا

تحت لوائه، فقد كان رغم حداثة سنه يتحين فرصة سانحة لنصرة قضية الإسلام، سالكًا في ذلك مسالك الرجال، فلم يكن هو أقل حماسة منهم، ولا كانوا هم أكثر حرصًا على نصرة القضية.

كان ﷺ يعي جيدًا دواعي الخروج إلى بدر، ويدرك هواتفه، فانطلق مع الجيش الغازي تسبقه سعادته، وعند بئر بدر خرج حارثة في مهمة استكشافية لجيش العدو، وتأمين الحوض الذي بناه المسلمون قبل الحرب، وفي هدوء ووداعة رفع حارثة بعض الماء إلى فيه، وارتشف منه شيئًا، وإذا بسهم يرمز إلى مهارة راميه يقع في حنجرته، يقطع عليه شربته، وأنفاسه، وحياته، ووسط نظرات من حوله التي عانقته في دهش ترنحت ساقاه من تحته، وسقط تدثره جموع الملائكة ثم زفته في رحلة الصعود، وهو ينشد مقعده في الفردوس الأعلى.

وكان أول قتيل من المسلمين في المعركة، مهجع مولى عمر بن الخطاب – ﷺ – رمي بسهم فقتله، ثم رمي بعده حارثة بن سراقة بسهم غرب – أي لا يعرف راميه –، فأصاب نحره فقتله، وفي رواية أن من قتله رجلاً من المسلمين يدعى حبان ابن العرقة كان حارس البئر، فلما ذهب حارثة؛ ليشرب من البئر، ظن أنه رجل من المشركين جاء؛ ليفسد على المسلمين الماء، فرماه وهو لا يعرفه.

أين حارثة؟

طار خبر مقتله في آفاق المدينة الطيبة، ووصل إلى مسامع أمه الرُبيع شجيًا شقيًا، طعن سمعها، ومزق نياط قلبها، وجلل دنياها بحزن ممرور، فكيف ينتزع حارثة من دنياها بهذه السهولة، وهذا البدار؟ وكيف يُحال بينها وبينه إلى الأبد؟ لكنها وقفت موقفٌ باهرٌ، جعلها من أعظم أمهات الشهداء ﷺ، فما حقيقة هذا الموقف؟

روى استشهاد حارثة شاهدا من أهل أمه الرُبيع: هو أنس بن مالك – ﷺ –، حيث رسم موقف عمته أمَ حارثة، وابن عمته حارثة، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في فضل من شهد بدرًا حيث قال: أصيب حارثة يوم بدر، وهو

غلامٌ، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى، تر ما أصنع، فقال: ويحك – أو هبلت – أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس، وفي روايةٍ أخرى: إنها جنان ثمانٍ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

وفي رواية: بلغ أمه وأخته – وهما بالمدينة – مقتل حارثة، قالت أمه: والله لا أبكي، حتى يقدم رسول الله – ﷺ – فأسأله إن كان ابني في الجنة لم أباك عليه، وأصبر وأحتسب، وإن كان في النار بكيته، ولما عرفها رسول الله – ﷺ – مكانه في الفردوس سرت، فدعا الحبيب بإناءٍ من ماءٍ، فغمر يده فيه، ومضض فاه، ثم ناوله أم حارثة، فشربت، ثم ناولت ابنتها فشربت، ثم أمرهما ينضحان في جيوبهما، فنضحتا، فرجعتا من عند النبي – ﷺ – وما بالمدينة امرأتان أقر عينًا منهما، ولا أسرَ.

حمزة بن عبد المطلب

نشأته ونسبه:

هو: أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي، عم النبي - ﷺ - وأخوه من الرضاعة، وأمه هي: هامة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي بنت عم آمنة بنت وهب أم رسول الله - ﷺ -، وهو شقيق صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ وأم الزبير بن العوام، وهو شقيق أبي طالب عم النبي - ﷺ - وعم ابنه علي بن أبي طالب.

ولد حمزة قبل رسول الله - ﷺ بعامين، وفي رؤية أخرى بأربع سنين، لم يذكر التاريخ شيئًا كثيرًا عن حياته قبل الإسلام وأبرز ما في حياته حينذاك ما يقوله ابن هشام شيخ شيوخ مؤرخي السيرة النبوية: كان حمزة أعز فتى في قريش وأشد شبابها شكيمة، كان صاحب قنص - يقصد صيد - يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وإذا فعل لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث إليهم.

ويظهر من كلام ابن هشام أن حمزة كان معروفًا قبل إسلامه بحسن الخلق، واستقامة السيرة، وسخاء اليد، نجد ذلك في مرثية حذيفة بن غانم لعبد المطلب وفيها يذكر فضله وفضل أولاده حتى يقول عن حمزة:

وحمـزة مثل البدر يهتز للندى نقي الثياب والذمام من الغدر

نور السماء يسطع بمكة:

ها هي الأيام تمضي، والدعوة الإسلامية تشرقُ بأنوارها على أم القرى، وتعطر الدنيا برحيقها، ولم يفتر المشركون في تقديم وجبات سريعة ومتتالية من

الأذى، وضربات من الكيد العنيف للإسلام والمسلمين، وكان من أشهدهم عداوة وضراوة لرسول الله ﷺ: الطاغية أبو جهل عمرو بن هشام، الذي كان يفرغ حقده على المسلمين، وراح يسخر من الدعوة الربانية، وأخذ يسخر كل ما يملك في سبيل الصد عن نور السماء حتى لا يسكن في قلوب، لذلك صبُ جام غضبه على جميع رجاله.

كان حمزة بن عبد المطلب رغم عدم دخول الإسلام إلى قلبه إلا أنه يتعجب لكل هذا العداء، لهذا الرجل الكريم الذي لم ترى منه قريش يومًا إلا الخير، فهو يعلم أن ابن أخيه صاحب مكارم الأخلاق، ورقة الشمائل، وهو فوق ذلك كله الصادق الأمين الذي اجتمع الناس على محبته وإجلاله وتوقيره، إلا حمزة كان ينأى بنفسه عن هذا الصراع المحتدم بين ابن أخيه وأتباعه وبين طواغيت قريش، حتى جاءت اللحظة الحاسمة في حياة حمزة، بل في حياة البشرية، هذه لحظة التي سيكون لها دور عظيم في نقل كافة الصراع لصالح المؤمنين، فتعالوا بنا لنتعايش مع هذه النسمة السماوية المباركة.

إسلام حمزة:

كان حمزة بن عبد المطلب يوم بُعث الرسول الكريم – ﷺ – قد جاوز الأربعين بعامين، وكان يومئذٍ سيدًا من سادات قريش المعدودين، وصنديدًا من صناديدهم المرموقين، تحسب له مكة ألف حساب، ويكن له أهلها الحسب المشفوع بالتجلة والإعظام، وعلى الرغم من الصلات الواشجة بينه وبين رسول الله – ﷺ –، فإنه لم يعر دعوته كبير اهتمام، ولم يسلم حين أنذر الحبيب ﷺ عشيرته الأقربين، بل كان على الحياد حينما انفجرت قريش بالعداوة للمصطفى وأتباعه.

ولقد كان فارس بني هشام صاحب صيدً كما قال ابن هشام، يجدُ فيه متعته الكبرى، ويستنفد في كره وفره طاقاته الزَاخرة المشبوبة، وجاء اليوم الموعود وخرج حمزة من داره، متوشحًا قوسه، مُيممًا وجه شطر الفلاة؛ ليمارس هوايته

المحببة، ورياضته الأثيرة الصيد، وقضى هناك بعض يومه، ولما عاد من قنصه، ذهب كعادته إلى الكعبة؛ ليطوف بها قبل أن يقفل راجعًا إلى داره، وقريبًا من الكعبة؛ لقيته مولاة لعبد الله بن جدعان، ولم تكد تبصره حتى قالت له:

يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخاك محمد آنفًا، من أبي الحكم بن هشام، قال: ما فعل، قالت: وجده هناك جالسًا، فآذاه، وسبَه، وبلغ منه ما يكره، ورأيت ما رأيته من هجمته عليه؛ لكان لك اليوم شأنٌ آخر؛ ومضت تشرح له ما صنع أبو جهل برسول الله ﷺ.

فما كادت كلماتها تُلامسُ سمعهُ؛ حتى استشاط غيظًا وتميز دره حميَة، وسأل الفتاة عما إن كان قد رآه أحد وهو يسبه، فقالت: لقد رآه ناسٌ كثيرٌ، استمع حمزة جيدًا لقولها، ثم أطرق لحظة، ثم مدَ يمينه إلى قوسه فثبتها فوق كتفه، ثم انطلق في خطىً سريعة حازمة صوب الكعبة؛ راجيًا أن يلتقي عندها بأبي جهل، فإن هو لم يجده هناك، فسيتابع البحث عنه في كل مكان حتى يلاقيه.

لكنه لا يكاد يبلغ الكعبة، حتى يُبصر أبا جهل في فنائها يتوسط نفرًا من سادة قريش، وفي هدوء رهيب، تقدم حمزة من أبي جهل، ثم استلَ قوسه وهوى بها على رأس أبي جهل فشجَه وأدماه، وقبل أن يفيق الجالسون من الدهشة، صاح حمزة في أبي جهل: أتشتم محمدًا، وأنا على دينه أقول ما يقول؟ ألا فردَ ذلك عليَ إن استطعت.

وفي لحظة، نسي الجالسون جميعًا الإهانة التي نزلت بزعيمهم أبي جهل والدم الذي ينزف من رأسه، وشغلتهم تلك الكلمة التي حاقت بهم؛ كالصاعقة، الكلمة التي أعلن بها حمزة أنه على دين محمد يرى ما يراه، ويقول ما يقوله، أحمزة يسلم؟ أعز فتيان قريش وأقواهم شكيمة؟ إنها الطامة الكبرى التي لن تملك قريشًا لها دفعًا، فإسلام حمزة سيغري كثيرين من الصفوة بالإسلام، وسيجد محمد حوله من القوة والبأس ما يعزز دعوته ويشدُ أزره، وتصحو قريش ذات يوم على هدير المعاول وهي تحطم أصنامها، وتهوى بآلهتها.

وفي لمح البرق، ذاع نبأ إسلام حمزة في مكة، فوقع ذلك الخبر على المشركين وقوع الصاعقة، أما رسول الله ﷺ فحدث بما شئت عن فرحته بإسلام عمه ولا حرج، وأما المسلمون؛ فقل ما طاب لك القول عن بهجتهم بانضمام صنديد قريش تحت راية دينهم، فهم عرفوا في مكة يومين أبهج على قلوبهم وأعز على نفوسهم هما: يوم إسلام حمزة بن عبد المطلب، ويوم أسلم عمر بن الخطاب.

فما إن أسلما حتى عزما على رسول الله - ﷺ - بأن يخرج إلى الكعبة ويطوف بها، ويؤدي صلاته عندها على مسمع ومرأى من قريش، واستجاب لهما رسول الله - ﷺ -، وخرج في حراستهما: أحدهما أمامه، والآخر وراءه، حتى بلغ الكعبة المعظمة، فطاف بالبيت سبعًا، وصلى الظهر عنده آمنًا مطمئنًا، ثم انصرف إلى دار الأرقم، وعيون قريشٍ تنظر إليه، وقلوبهم تميز غيظًا منه، وضغينة عليه.

الهجرة المباركة:

منذ تلك اللحظة التي أسلم فيها حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - واستقر الإيمان في قلبه وهو يحمل همَ هذا الدين ويتمنى أن يبذل من أجله الغالي والنفيس، بل وأن يضحى في سبيله بالنفس والمال وبكل ما يملك، وظل حمزة ملازمًا للحبيب - ﷺ - ملازمة الرجل لظله، فلا يفارقه في حله وترحاله.

ولما أذن النبي - ﷺ - لأصحابه بالهجرة كان حمزة من أوائل المهاجرين واستقر في المدينة، وآخى النبي - ﷺ - بينه وبين زيد بن حارثة - رضي الله عنهما -، ولقد بلغت هذه المؤاخاة الكريمة بينهما مبلغًا عظيماً فهي محبة خالصة لوجه الله تعالى لا تشوبها أي شائبة من طلب حطام الدنيا وزهرتها الفانية.

سرية سيف البحر:

مضى حمزة - رضي الله عنه - في طريق الإيمان والذود عن الدعوة، حتى بلغ مقامًا لم يبلغه غيره من المسلمين، فهو سيد الشهداء بشهادة سيد الخلق رسول الله - ﷺ -،

وهو أسد الله وأسد رسوله، كان إسلامه عزًا للمسلمين، ومنعة وقوة لرسول الله - ﷺ -، أخذت به قريش فأصابها المقيم المقعد، وشرقت بإسلامه، فكان شجًا في حلاقيمها، إذا أذل كبرياءها، وقتل كبراءها، وظهرت به الدعوة بعد استخفائها، وأعلنت بصوته كلمة الحق بعد استنارها، وجهر بالتكبير لله تعالى على سمع طغاة الشرك، فأراهم حقارة عقولهم في دناءة معبوداتهم، وأراهم عزة الحق وانتصاره، فكان إسلامه ظفرًا، ومنعة، وفتحًا.

وها هو في لحظة واحدة يتحول من النقيض إلى النقيض، يترك الصيد واللهو والغناء ويخلع ثوب الجاهلية على أعتاب الإيمان ويحمل همَ الدين في قلبه ويبدأ صفحة جديدة يبذل فيها المال والنفس لنصرة دين الله عز وجل.

وها هي أول سرية خرج فيها المسلمون للقاء العدو كان أميرها حمزة، ففي شهر رمضان السنة الأولى للهجرة أرسل رسول الله - ﷺ - سرية، وأمَر عليها حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، يعترض عيرًا لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني - وكان حليفًا للفريقين المسلمين وقريش - بين هؤلاء وهؤلاء، حتى حجز بينهم، فلم يقتتلوا.

أسد بدر المغامر:

في يوم بدر، وما أدراك ما يوم بدر؟ يومُ بدر هو يوم الفُرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جمع المسلمين الموحدين في إيمانهم الراسخ، وقوة يقينهم؛ وجمع الفجرة الكفرة في غرورهم المهزول اَلضَّئِيل، وكفرهم الغشوم.

في هذا اليوم أبلى حمزة بن عبد المطلب في قتال المشركين أشد البلاء وأعظمه؛ فكان ثقيل الوطأة على المشركين شديد النكاية بهم، فما إن التقى الجمعان في ذلك اليوم الأغر؛ حتى برز حمزة كالجمل الأورق، وقد وضع علي صدره علامةَ تميزه من غيره، وتدل عليه لمن أراد أن يقصده، وكانت علامته ريشة حمراء أثبتها على صدره.

وبينما كان المسلمون لا يحتاجون إلى الماء؛ فحوضهم مليء، وبئرهم وافرة المياه، كانت قريش بحاجة ماسة إلى ذلك قد ظمئ أفرادها، وخرج منهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي - أخو الصحابي الجليل أبو سلمة - وكان رجلاً شرسًا سيئ الخلق، فقال: أعاهد الله، لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتنا دونه.

فما إن خرج من بين قومه حتى برز له حمزة بن عبد المطلب فلما التقيا ضربه حمزة ضربة أطارت نصف ساقه فوقع على ظهره والدماء تشخب منه، ثم بدأ يحبو نحو الحوض يريد بذلك أن يبر يمينه؛ ولكن حمزة أجهز عليه فقد أتبعه بضربة أخرى أرداه قتيلاً.

بعد أن استطاع حمزة أن يقتل الأسود بدأت نار المعركة تتأجج، أخذت الحمية عتبة بن ربيعة وتبعه ابنه الوليد وأخوه شيبة بن ربيعة، فقام عتبة فنادي بالمبارزة رَدًّا على أبي جهل الذي اتهمه بالجبن والخوف قبل المعركة، فخرج لهم فتية من الأنصار هم: عبد الله بن رواحة، وعوف بن الحارث، وأخوه معوذ، فقال عتبة: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قال عتبة: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادا: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

ويبدو من هذا أن المشركين يرون أن رابطة العقيدة فوق كل رابطة، ولا قيمة لرابطة الدم أو القوم، فمن هم أكفاؤهم الذين يريدون أن يقتلوهم؟ أليسوا من قومهم؟ أليسوا الأهل والأقارب؟ أليسوا الأبناء والآباء؟

فقال الرسول - ﷺ -: قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة بن عبد المطلب، قم يا علي بن أبي طالب، فلما قاموا، ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟ فعرف الصحابة أنفسهم، فقال المشركين: نعم أكفاء كرام.

فوقف عبيدة وكان أسن القوم أمام عتبة، ووقف حمزة أمام شيبة، ووقف علي أمام الوليد، أما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة وعتبة فقد ضرب كل منهما الآخر فأسرع حمزة وعلي فضربا عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة

إلى صفوف المسلمين وكان جريح ينزف الدم من رجله، فأضجعوه إلى جانب الرسول - ﷺ -، ولم يلبث إلا قليل حتى مات.

كانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين فقد فقدوا ثلاثا من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، وما إن قتل أبطال قريش الثلاثة في لحظات معدودات حتى حمي وطيس المعركة، وقد أبلى أسد الله حمزة بلاء حسنًا يومئذ ملأ قلوب المشركين حقدًا عليه وكيدًا منه.

تعليق:

كان الأسود بن عبد الأسد أول من قتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه -، وقد كان الرسول - ﷺ - قد سمح لطائفة منهم بالاستقاء من حوض المسلمين لما كان الدافع لهم هو الحاجة إلى الماء، فلما جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين كان له بطل الإسلام حمزة بالمرصاد فقضى عليه، ولقنَ أمثاله من الحاقدين المتعجرفين درسًا لا يُنسى.

أسطورة أحد:

لما انهزمت قريش يوم بدر؛ ما كانت لتتجرع هذه الهزيمة المنكرة في سلام، فراحت تعد عدتها، وتحشد بأسها ويأسها لتثأر لنفسها ولشرفها ولقتلاها، وصممت على الحرب للاستئصال شأفة المسلمين، وتدمير المدينة عاصمة الإسلام، فجاءت بخيلها ورجالها وحالفها وعسكروا بالقرب من جبل أُحُد، والتقى الجيشان: جيش ينادي الأوثان؛ ويستغيث بها، وجيش يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ويستنصر بمن بيده النصر وحده.

كان زعماء قريش قد أجمعوا أمرهم ونصبوا تدبيرهما وخطتهما أن تظفر باثنين من رجال الإسلام، وليكن بعد ذلك ما يكون، أما الاثنان فهم: الرسول القائد - ﷺ -، وعمه حمزة أسد الله - رضي الله عنه -، ولما كان احتمال الظفر بالرسول مستحيلا،

فهم يعرفون مدى حب أصحابه له؛ وافتدائهم إياه، جعلهم يركزون بتخطيطهم وتدبيرهم على الظفر بحمزة.

ولقد رسموا كل الخطة التي تمكنهم من رأسه وهم في مكة قبل أن يغادروها، واصطنعوا لذلك واحداً من أمهر الرماة في مكة، بل لعله يومذاك كان أبرع من يضرب بالحربة في الجزيرة العربية، ذلكم هو وحشي بن حرب غلام جبير بن مطعم.

وكان جبير بن مطعم هذا قد قتل عمه بيد حمزة يوم بدر، فقال لخادمه وحشي: إن أنت قتلت حمزة فأنت حر، وكلمه في ذلك جمع من رؤساء قريش وساداتهم وأغروه بالمال، وأحالوا إلى امرأة هي أقدر منهم على الإغراء بالمال، وهي هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان زعيم قريش آنذاك، وكانت قد فقدت أباها وعمها وأخاها وابنها في بدر، وقد قتل معظمهم على يد حمزة، ومن أجل هذا كانت أكثر القرشيات تحريضًا على الخروج للحرب، لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذي تطلبه المغامرة.

بدأ القتال واحتدم أوارُه ودارت الدائرة على الوثنيين ولاذت جموعهم بالفرار، وراح المسلمون يجمعون الغنائم التي تركها أعداؤهم، ونسى الرماة أمر الرسول القائد – ﷺ – ألا يبارحوا موقعهم مهما تكن نتيجة القتال فهبطوا الوادي يشاركوا إخوانهم بهجة النصر وجمع الغنائم والأسلاب.

وفجأة لوى قائد فرسان قريش خالد بن الوليد عنان فرسه وتبعه مائتي فارس فنفذوا كالسهام من الفتحة التي بالجبل والتي كان الرماة يحرسون مدخلها، باغت الفرسان من ورائهم وأعملوا فيهم الطعن والضرب، ورأى المشاة الذين كانوا قد غادروا المعركة هاربين رأوا ما أحدثه فرسانهم، فعاد بهم قائدهم أبو سفيان وهكذا وقع المسلمون بين حصار رهيب ودارت المعركة من جديد، ولكنها كانت في جولتها هذه لحساب قريش التي استغلت هذا التفوق الميداني أبشع استغلالا.

فأين كان أسد الله حمزة في هذا الوقت العصيب الرهيب؟

لقد كان هناك وسط أصحابه ورفاقه يقاتل ويقاتلون في استبسال مروع وعجيب، لقد قاتل المؤمنون جميعًا يوم أُحُد كما لم يقاتلوا من قبل ولا من بعد، فهذا أبو دجانة، ومصعب، وحنظلة، وعاصم بن ثابت، وعلي، وأبو بكر، وسعد، وأم عمارة، وآل سكن، وطلحة، وجميع الذين وقفوا فوق أرض المعركة من أصحاب القرآن قاتلوا قتالاً نكاد ونحن نقرأ أخباره نبصرهم ونبصر عنفوانهم ونسمع صياحهم وهتافهم!

وكان حمزة مع هؤلاء الذين باعوا أرواحهم لله، فقد كان يصول ويقاتل لا تخطئه العين أبدًا، فهو معروف بسيماه، وريش النعام يزين به صدره كعادته كلما خاض العراك والقتال.

فقد كان يغيظه مشهد لواء قريش وهو يخفق في سماء أحد ومن ثم ركز على حملته، فكان ينفذ إليهم كالصقر ويرديهم قتيلاً إثر قتيل، ولقد رأى عثمان بن أبي طلحة يحمل ذلك اللواء، وينشد شعر المباهاة والخيلاء، فيشق الصفوف إليه وضربه بسيفه فأرداه، وسقط لواء قريش تحت الأقدام.

ومرق حمزة كالسهم وسط الملحمة لا تنبو لسيفه ضربة ولا تتخلف المنايا عن عزمه، ومرة أخرى يبصر لواء قريش يرتفع فيشق الصفوف إلى حامله أرطأة بن عبد شرحبيل فيرديه قتيلاً، ويتمرغ اللواء من جديد في التراب اللزج بدماء المشركين.

ويعود إلى قلب المعركة؛ ليصب المنايا بسيفه المطيع على أعداء الله ورسوله، ويبصر خلال لفتة سريعة مشركًا ينحني فوق راية قريش يريد أن يرفعها من الأرض لتخفق في يده من جديد؛ فيكون أسرع إليه من أنفاسه المترددة في صدره، وقبل أن يرفع الراية فوق ساريتها يكون سيف حمزة قد كومه بجوارها على الأرض الموحلة بالدماء، حقًا إنه لكما وصفه الرسول ﷺ: أسد الله وأسد رسوله.

إنه ليبلى أصدق البلاء وأروعه، ويوجه بأس قريش بفؤاد ملؤه اليقين، وإرادة يشحذها العزم، وسيف لا يعرف الكلال.

خرج وحشي بن حرب كما ذكرنا إلى الحرب وكان لا يعنيه القتال أو أي شيء بل كان هدفه قتل حمزة لينال بذلك حريته، ويعيش كما يعيش الأحرار في جو بعيد من ذل العبودية التي أثقلت كاهله.

وفي المعركة وعلى أرض القتال كان حمزة كما شهدنا من قبل يصول ويقاتل ويجندل بالمنايا الماحقات أعداء الله وأعداء رسوله، وتتكسر قبل أن تبلغه سيوف المشركين الذين كانوا يحاولون مستميتين أن يصيبوه ولو بجرح يقفُ نهمه أو كسر يثلم سيفه.

ولكن كان هناك رجل فارع الطول يقبض على حربته المتحفزة ويتجنب مهاوي السيوف التي يضرب بها المسلمون، وعيناه على حمزة تغوصان وراء ووسط الطوفان المتلاحم وتطفوان ولكما أفلت منهما مرآة توقَل الرجل مكانًا عاليًا ليتابع بعينيه المتلصصتين فريسته وصيده، يقول واصفًا لحظات من ذلك المشهد:

ووالله إني لأنظر إلى حمزة ينطلق في عرض الناس مثل الجمل الأورق يهُدُ الناس هداً، ما يبقي على شيء، فتقدم إليه سباع بن عبد العُزى، فصاح به حمزة هلمَ إليَ يا ابن مقطعة البظور، وضربه ضربة فما أخطأ رأسه.

وعندئذ هززت حربتي حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه فوقعت في ثنته – ما تحت صُرته – حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحوي فغُلب على أمره ووقع وأمهلته حتى مات، وأتيتُه فأخذت حربتي ثم رجعتُ إلى المعسكر فقعدتُ فيه، إذ لم يكن لي في حاجة فقد قتلته لأُعْتقك.

ومضت المعركة إلى نهايتها المقدورة سيوف تهوى ورماح تقذف وصرعى يتساقطون، لا يعرف من سقط ومن بقي، حتى استنفذ اليوم الرهيب جولتين، الجولة الأولى التي شهدت انتصار المسلمين، والجولة الثانية التي غشيتهم فيها محنة تتحدي كل احتمال، أجل لقد كانت محنة قاسية بكل المقاييس.

لقد انتهت المعركة في جولتها الثانية وقد ابتلي فيها المؤمنون وأصابهم القرح،

وامتطى المشركون إبلهم وساقوا خيلهم قافلين إلى مكة، ونزل الرسول - ﷺ - أرض المعركة وقف بين أصحابه يتهيأ لمعرفة الضحايا والمستشهدين، وكانت متاعب اليوم وأهواله قد أصابت الرسول بإعياء شديد، وكان قد أصيب ﷺ فكسرت رباعيته، وشج وجهه، وكلمت شفتيه.

لكن ذلك كله كان هينا ومحتملاً قبل أن تبدأ قوائم الشهداء تتلى عليه، ثم قبل أن يأخذ طريقه إلى حيث صرع عمه حمزة ليرى أبشع جريمة ترسم على جسده الكريم وحشيتها، وكان الرسول قد أرسل بعض أصحابه ليحصوا له الشهداء، وجاءه الصحابة بالأنباء، وراح كلما سمع اسماً من أصحابه يحتسب عند الله أجرهم.

ثم يذهب الرسول القائد إلى عمه حمزة فرآه وقد مزقوا جسده، وبقروا بطنه، ولقد انتزع المجرم معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية كبده، وانتزع أمعاءه، ولقد مثل هذا المجرم بجميع الصحابة، - ولقد قتله الرسول القائد بعد منصرفه من أحد -.

وقف الرسول القائد يُغالب في نفسه وقع المشهد وأساه، ثم قال وعيناه على جثمان عمه الحبيب: لن أصاب بمثلك أبدًا، وما وقفتُ موقفًا قط أغيظ إليَّ من موقفي هذا، ثم توالى على خاطره الذكريات، فحمزة لم يكن عم الرسول فحسب، بل هو كذلك تربْه قضيا معًا طفولتهما وشبابهما، ثم هو كذلك أخوه في الرضاعة.

توالت الذكريات كلها على خاطر الرسول، ومرت أمام مخيلته في موكب طويل لم تغب ذكرى واحدة لكأنما جاءت تودع صاحبها، وتقدم للرسول العزاء، وكأنما سائل نفسه، أو سائلته الذكريات أحمزة من يصنع به هذا؟

وقال الرسول وعيناه تلفان جسد عمه بأسهما العميق، والكلمات تخرج من تحت أضراسه مغيظة مُنذرة: لولا أن تحزن صفية - أخت حمزة وعمة الرسول - ولولا أن يكون سُنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير.

ثم تابع الرسول قوله فقال: ولئن أظهرني الله على قريش، في موطن من

المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم، ثم صاح بأصحابه: والله، لئن أظفرنا الله بهم من الدهر، لتمثلن بهم مثلَةَ لم يمثلها أحد من العرب.

ولكن الله الذي أكرم حمزة بالشهادة يكرمه مرة أخرى بأن يجعل من مصرعه فرصة لدرس عظيم يحمي العدالة إلى الأبد، ويجعل الرحمة حتى في العقوبة والقصاص واجبًا وفرضًا، وهكذا لم يكد الرسول - ﷺ - يفرغ من إلقاء وعيده السالف حتى جاء الوحي، وهو في مكانه لم يبرحه بهذه الآيات الكريمة:

﴿ادْعُ إِلى سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدينَ (125) وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرينَ (126) وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوْا وَالَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: 125 - 128).

وكان نزول هذه الآيات في هذا الموطن خير تكريم لحمزة الذي وقع أجره على الله.

سعد بن الربيع

في رحاب الأخيار:

سعد بن الربيع - رضي الله عنه - واحد من أولئك الأماجد الأخيار الذين آثروا ما عند الله على ما عند الناس، ولم يكن سعد هو الوحيد على طريق الإسلام بل كل أسرته كانت مسلمة مؤمنة أمه، وأخته، وأخيه وابنته، وفي هذه السطور تعالوا نتعرف على هذه الأسرة المباركة:

أما أبوه فهو: الربيع بن عمرو بن أبي زهير ابن امرئ القيس، سيد من سادات بني الحارث الخزرجيين، وكان من حكماء الخزرج في الجاهلية، مات على دين قومه قبل الإسلام، أغلب الظن أنه قتل في إحدى المعارك بين الأوس والخزرج في الجاهلية.

أما أمه فهي: هزيلة بنت بن عمرو بن الحارث الخزرجية الأنصارية، كانت من السابقات إلى الإسلام لما أضاءت المدينة المنورة بنوره، كما كانت من المتسابقات إلى مبايعة النبي ﷺ في بيعة النساء، وخرجت كذلك في بعض المغازي النبوية.

أما أخته فهي: محبة بنت الربيع بن عمرو، شقيقة سعد لأمه وأبيه، وزوجت الصحابي الجليل أبو الدرداء عامر بن زيد، كانت من السابقات إلى الدوحة الربانية، ومن المبايعات بيعة النساء، وكانت كذلك من المجاهدات الصابرات.

أما زوجته فهي: عمرةُ بنت حزم النجارية، جمعت عمرة بين العلم والحكمة، وحسن التدبير، ودماثة الخُلق، وصدق المقال، وسلامة الفطرة؛ فقد قدرت الأمور قدرها، والتمست لأهلها السلامة بكل سبيل، وساقتهم بالحكمة إلى الحق، وذللت ما في طريق هدايتهم من عقبات كؤود، كانت تثق كل الثقة في فضل

الله تعالى، وتوقن اليقين كله بأن الله سبحانه وتعالى لن يقطع رجاءها، وقد أنزل ربها فيها قرآن يتلى إلى قيام الساعة.

أما ابنته فهي: أم سعد جميلة بنت سعد بن الربيع: نشأت جميلة يتيمة في حجر أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، واقتبست من أخلاقه الكريمة، ومن خصاله الحسان، ومن فصاحته ما رفعها مكان عليًا في سماء المكرمات، وجميلة هذه هي التي اعترضت النبي ﷺ، فقال لها: من أنت؟ قالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع، وفي شأن جميلة - رضي الله عنها - وأختها وأمها، أنزل الله عز وجل قرآنا ودستورًا للناس، وينص هذا الدستور القرآني هذا على إبطال عادة جاهلية مقيتة، كانت تهضم حقوق المرأة؛ ولا تعترف بمكانتها، ألا وهي عدم توريث الإناث، وهي سنة من سنن العرب في الجاهلية.

نشأته:

ولد سعد بن الربيع بين أحضان النخيل، وفتح عينيه على مال كثير، وثراء عريض، فهو من الموسرين في الأنصار، وقد يفع وترعرع بين جنبات البساتين فكانت نشأته مترفة ناعمة، ولكنها عادية وطبيعة فلم يكن في حياته قبل الإسلام ما يثير الانتباه أو يلفت النظر إلا ما كان يتمتع به من صحة البدن، وعافية الجسد، وسداد في الرأي، ورجاحة في العقل، وما اكتسبه من خبرة وثقافة وقراءة وكتابة على ندرتها آنذاك، فقد أرسله أبوه الربيع ليتلقى الكتابة والقراءة، عندما سمع اليهود في المدينة يعيرون العرب بأنهم أمة أمية.

وحينما أصبح سعد في أول شبابه سيدًا تحلى بالأخلاق، والآداب التي يتحلى بها رئيس القوم، فقد كان أبوه يرجو أن يصبح سعد سيد لقومه الخزرج، لما يتمتع به من فتوة وفروسية، فأصبح من الشباب الذي جمع لهم أطراف المجد والسؤدد في سن صغير؛ مما جعله في طليعة السابقين إلى الإسلام.

السعادة الأبدية:

في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية في هذا العام قرر سعد السفر إلى مكة للحج، فأمر سعد بن الربيع براحلته فهيئت له، فامتطى ظهرها ويمم وجهه شطر مكة ومعه الرهط من سادات الخزرج؛ ليؤدوا نسكهم ويلتمسوا من قريش أو غيرها من أحياء العرب النصرة على بني عمهم الأوسيين، وراحت المطايا تخب بالركب وتضع، ووصل الركب إلى مكة وحط رحله في رحاب بيت الله وكنفه الحرام، فطفق القوم يصلحون شأنهم ليقوموا بنسكهم ثم انخرطوا في صفوف الطائفين يلبون لمناة وبين الفينة والأخرى يتفرسون وجوه العرب ويستطلعون أخبارهم.

وصل الخزرجيون مكة وهي تعج بوفود العرب وتغصُ بأعيان القبائل، وسعاة قريش وسفرائها يتخللون كل حشد وجمع محذرين من محمد بن عبد الله ودعوته، ويقولون: إنه منا، وقوم الرجل أعرف به، فلا يخدعنكم فله منطق وبيان، وانتشر ذلك الأمر بين القبائل فراح السادة يحذرون أبناءهم منه وقالوا لهم: احذروا من فتى قريش محمد لا يفتنكم عن دينكم.

وكان رسول الله - ﷺ - يطوف بين القبائل يدعو الناس غير مبالٍ بتنفير الناس عنه، وكان ﷺ يعرض نفسه غير ثبطٍ ولا وانٍ، ولا يبالي في جنب الله ما يصيبه وما يشاع عنه بين القبائل، وكان يصرخ في الناس ويقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به، يفعل هذا مع كل قبيلة ويقول: ألا رجلٌ يحملني إلى قومه، فإن قريش قد منعوني أن أبلغ كلام ربي، فيأبونه ويقولون: قوم الرجل أعلم به، ولا يقبله أحد.

ويتنامى إلى سمع سعد بن الربيع صوت النبي - ﷺ - عند العقبة وهو يقول: لا أكره أحدًا منكم على شيء، بل أريد أن أبلغ رسالة ربي، فيستمر سعد في مكانه ويشعر بخفقان فؤاده ليسري إلى سائر جسده، ثم ما لبث أن شعر بالطمأنينة

والهدوء وانتابه شعور غامر بسعادة لا يعرف مأتاها ولا يستطيع كنهها، وقد سرى برد الوجدان في أنحاء جسمه، ويهم سعد أن يحدث قومه بما هو فيه، ويحثهم على لقاء هذا الرجل المبارك الذي تلوح مخايل الصدق في قسمات وجهه ويتلألأ مُحياه بشرًا وضياءً.

انتبه سعد من أحاسيسه وأمنياته وهو لا يكاد يصدق عينيه أحقًا ما تريانه؟ أصحيح أن هذا الرجل الميمون المبارك يتقدم نحوه؟ أجل لقد تقدم النبي - ﷺ - مقبلاً بوجهه على سعد وأصحابه يسألهم بتودد وعطف: من أنتم؟ فابتدر سعد قومه مجيبًا عنهم بلهجة مشوبة بالفرح والحب: نحن نفر من الخزرج، فقال رسول الله - ﷺ -: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا إليه فدعاهم إلى ربهم وعرض عليهم الإسلام.

فقال سعد بن الربيع: أفلا تسمعنا من هذا الذي يُوحى إليك من ربك؟ فتلا رسول الله - ﷺ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: 35)، فقرأ إلى آخر السورة فرق القوم وأخبتوا حين سمعوه، واهتبل سعد الفرصة فابتدر قومه: يا قوم تعلمون إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه.

فنظر القوم بعضهم إلى بعض وألقى الله الهداية في قلوبهم فأجابوا رسول الله ﷺ وأسلموا، هنا نظر سعد إلى الحبيب ﷺ، وقال له: يا رسول الله، إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، وانصرف القوم وعادوا إلى بلادهم.

البيعة الكبرى:

لما قدم القوم المدينة ذكروا لأهلها النبي ﷺ ودعوهم إلى الله حتى فشا الإسلام فيهم، وفي العام التالي وافي اثنا عشر من الأنصار إلى مكة وعند العقبة،

كانت البيعة الأولى أو ما عرف في تاريخ ببيعة النساء، وقد بعث الحبيب ﷺ معهم مصعب بن عمير لنشر الدعوة بين الناس، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر النبي – ﷺ – ودعوته، ثم جاءت اللحظة التاريخية التي لن تتكرر أبدًا ألا وهي البيعة الثانية، وكان ذلك في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من بعثة النبي – ﷺ –؛ فخرجوا في حجيج قومهم، تحمل قلوبهم شوقًا لرؤية الحبيب المصطفى – ﷺ –، ولما وصل الركب إلى مكة؛ أرسلوا إلى النبي – ﷺ – سرًا يواعدونه شعب العقبة أوسط ليالي أيام التشريق.

ولما جاءت تلك الليلة نام المؤمنون مع قومهم أول الليل في رحالهم حفاظًا على سرية الأمر حتى مضى ثلث الليل، ثم قاموا يتسللون في خفة الطير واحدًا تلو الآخر، يسيرون في طرق متفرقة حتى اجتمعوا في الشعب وهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.

ولما جاء النبي – ﷺ – ومعه عمه العباس، وكان يومئذ على دين قومه، وبعد أن أتفق النبي ﷺ مع الأنصار على بنود البيعة وهي: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

فلما قام الأنصار؛ ليبايعوا أمسك أصغر القوم سنًا أسعد بن زرارة بيد النبي – ﷺ –، وأشار بيده الأخرى إلى أصحابه قائلاً: رويدًا رويدًا يا أهل يثرب، هل تدرون على ما تبايعون؟ فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فأما أنتم قومٌ تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قومٌ تخافون من أنفسكم جبينة فذروه فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا: يا أبا أمامة، أمط عنَا يدك، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ونستقيلها.

فقال الرسول - ﷺ -: أخرجوا إليَ منكم اثني عشر نقيبًا، فكان سعد بن الربيع رضي الله عنه أحد النقباء اثنا عشر، وهم تسع من الخزرج، وثلاث من الأوس، وقد قال رسول الله - ﷺ للنقباء -: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، قالوا: نعم.

هنا اعترض الشاب الخزرجي المؤمن العباس بن نضلة - رضي الله عنه - قائلاً: يا معشر الأوس والخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم المصيبة، وأشرافكم القتل؛ أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله، إن نحن وفينا؟ قال ﷺ: الجنة.

ويشاء الله أن يكون لأسرة سعد بن الربيع المؤمنة سهم وافر في هذا الشرف، فقد عرض الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة - وهو ابن عم سعد بن الربيع رضي الله عنهما - لرسول الله - ﷺ -، قائلاً: يا رسول الله، اشترط لربك؛ ولنفسك ما شئت، فقال ﷺ: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركون به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، قال: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال: الجنة.

فما تمالك سعد بن الربيع نفسه وقد سمع الجنة من فم رسول الله - ﷺ - أن صاح مبتهجًا: ربح البيع، ربح البيع، والله لا نقيل ولا نستقيل، فنزل قول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: 111)، فضرب النقباء على يد رسول الله ﷺ مبايعين له على ما اشترط لنفسه ولربه.

في استقبال الحبيب:

إذا مرت أمامنا صورة قدوم النبي - ﷺ - المدينة تمرُ معها صور كرم الأنصار رجالهم ونسائهم، وما أظهره الرجال من الأنصار من حسن الكرم والضيافة مما يدخل السرور على النفس فقد كانوا يتسابقون في ميدان الفضائل يبتغون بذلك رضوان الله عز وجل ومرضاة النبي ﷺ، وكان سعد بن الربيع من أفاضل الرجال، سخي بما يمالك فقد سخر ماله ونفسه لله تعالى، وجود سعد آية من آيات الله، فتعالوا بنا لنتعايش مع هذا الرجل الكريم وكيف استقبال الحبيب وأصحابه.

تهيأت دور سعد بن الربيع الرحبة الكريمة، وأخذت أهبتها؛ لاستقبال إخوانه المهاجرين، فما يكاد يعلم بوصول فوج منهم حتى يكون في مقدمة أهله وأبناء عمه فيعزم عليهم للنزول عليه، وقد كانت منازلهم عامرة بالجنات المعروشات وغير المعروشات، فهي ديار خيرة فيحاء تكتنفها الآطام المنيفة الشماء، وكان سعد بن الربيع في عزة وسعة ومنعة، وديار خير وبركة، ففيها تربة صهيب وهي تربة طيبة فيها برءٌ وشفاء.

ولما وصل النبي - ﷺ - المدينة كان سعد بن الربيع أحد الأنصار الذين تعلقوا بخطام الناقة التي حملت الحبيب ﷺ في هجرته وعرضوا عليه أن ينزل في ضيافتهم وكان جوابه لهم: دعوا الناقة فإنها مأمورة.

وما إن توارى الركب المبارك عن الأنظار حتى أمر سعد بن الربيع بقصع الطعام تهيأ، ثم لحق سعد بالموكب المحبوب يحف به لا يكاد يحول بصره عن الحبيب المصطفى - ﷺ -؛ فأشبع ناظريه، وما كاد النبي - ﷺ - يطمئن به منزله بدار أبي أيوب حتى كانت جفنات الثريد مكللة بالعُراق يدخل بها سعد بن الربيع ومواليه على الحبيب كبقية الأنصار.

ومنذ حل الحبيب - ﷺ - بين ظهرانيهم في رحاب المدينة غدا سعد ألزم للنبي - ﷺ - من ظله فلا يكاد يبرح مجلسه،ة ولم يفارقه في مقام أو سفر وفي سلم

أو حرب، وعرف الحبيب لسعد إخلاصه وصدقه وفضله، فأدنى مجلسه وأعلى منزلته ورفع مكانته بقربه منه إن حضر ويهش في وجهه مبتسماً، ويتفقده إن غاب، فكان الحبيب - ﷺ - يكثر من زيارته لديار سعد.

أعظم أحداث السيرة:

لما استقر المقام بالحبيب في المدينة قام بعمل عظيم تمهيد لبناء الدولة ألا وهو الإخاء بين المهاجرين والأنصار، وهنا ظهرت نوادر الإخاء والحب والتضحية بصورة لا يتصورها عقل ولا تخطر ببال أحدٍ من البشر، فكانت تلك الأخوة التي لا تتكرر أبدًا عبر العصور والأزمان، وها هو سعد بن الربيع يسابق غيره دائماً في ميدان الفضائل، لمَ لا وسعد بن الربيع يتعايش مع كل آية من آيات ربه، ومع كل حديث من أحاديث الحبيب - ﷺ -.

قضى النبي - ﷺ - أن سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف أخوين، وما إن سمع سعد بن الربيع من فم النبي - ﷺ - أن عبد الرحمن بن عوف هو أخوه في الله حتى نهض إليه هاشًا باشًا يفتر ثغره عن ابتسامة أعلنها الحب العميق والإخاء الصادق، فما هو إلا أن اعتنقه وقبله، وما إن تصافح الأخوين الكريمان ﷺ حتى جرى حديث المحبة الودود المخلص بينهما.

قال سعد بن الربيع بلهجة رقيقة صادقة ونبرة تفيض بالحب والحنان: أي أخي عبد الرحمن: لقد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً وأنت أخي لا مال لك، فأقسمه قسمين، فأنزل لك عن أحدهما طيبة به نفسي، فنظر عبد الرحمن إلى أخيه سعد بإكبار وامتنان، ثم تبسم فطمع سعد برضا أخيه فاستأنف بلهجة أعظم صدقًا وحبًا وإيمانًا، فقال: هاتان زوجتاي، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها وحلت فتزوجها.

فرفع عبد الرحمن بن عوف عينين محبتين تفيضان من دمع الشكر والعرفان فجزاه خيرًا ودعا له بالخير والبركة والزيادة في المال والأهل، ثم قال له: يا أخي

أليس عندكم سوق تبيعون فيها وتشترون؟ قال سعد: بلى؛ ولكن لم؟ وما حاجتك إليه؟ وأنت لا تعرف أحد في هذه البلد، فقال ابن عوف: أجل ما تقول، ولكني أحب أن أتجر، فقال سعد: ولكن ليس لديك مال أم تراني قصرت نحوك في شيء أو أسأت إليك فقال ابن عوف: حاشا لله يا أخي، فقال سعد: فما تبتغي منه، أو لست أحدنا في بيتك هذا، قال ابن عوف: بارك الله فيك، ولكن إذا كان الغد فاغْدُ بي إلى السوق.

فلما كان من غده بكر سعد بأخيه عبد الرحمن إلى سوق بني قينقاع وهي أعظم أسواق المدينة تحفل بشتى صنوف التجارة، فما عاد عبد الرحمن بن عوف ألا برزق كريم، حتى أصبح أغني رجال المدينة مالاً.

أسد بدر الكبرى:

تعامل سعد بن الربيع مع بيعته بصدق، فلا تسألن عن إخلاصه لبيعته - ﷺ -، فمن ذلك اليوم لم يتوان عن خدماته للإسلام وأهله، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، وبكل ما يملك، وجاءت بدر الكبرى فخرجت قريش من مكة عن بكرة أبيها معتقدة أنها ستوجه الضربة القاصمة التي تقضي على الإسلام وأهله، فخرج النبي - ﷺ - بأصحابه حتى نزل بدر، وبدأ الزحف المكي الرهيب فالتقى الجمعان، وهجم المسلمون على المشركين بقلوب ملؤها الإيمان، والرغبة في الشهادة، والطمع فيما عند الله.

وكان سعد بن الربيع - ﷺ - يقاتل في تلك المعركة قتال الأسود، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وتجاوز مقدار الشجاعة، حيث ظهر من شدة بأسه ما أدهش الكفار، فلقد قتل أحد رؤوس قريش وهو رفاعة بن أبي رفاعة وقتل معه العديد من صناديد قريش الآخرين، لقد كان سعد يؤثر الصمت والهدوء هو يقاتل، وكان الرسول القائد ﷺ يعرف عنه ذلك ويُكن له كل الحب والتقدير.

انتهت بدر الكبرى بانتصار ساحق للمسلمين، ولم يغب سعد بن الربيع

عن أنظار الحبيب، بل ظل قريبًا منه، وشهد ﷺ غدر يهود بني قينقاع ومجاهرتهم العداء للمسلمين، ثم شهد السرايا كلها بعد بدر، حتى جاءت غزوة أحد فقاتل سعد قتالاً شديدًا ليظفر بتلك الأمنية التي كانت تشغل قلوب الصحابة جميعًا ألا وهي الشهادة في سبيل الله.

إنها ريح الجنة:

في يوم أحد تراءت الجنة لسعد بن الربيع مزدانة متألقة، تفعمه بشذاها، وتهيأ لدخولها، فانخلع من الدنيا، وتجرد من أسبابها، فألقى درعه، وكسر غمد سيفه، ورمى بكل ما يثقله، وطرح ما يعيقه، وخر كالشهب على جموع المشركين، فما أهوى على أحد إلا غادره موليًا أو صريعًا، فلما رأى المشركون ضراوة صنيع هذا البطل المغامر فيهم، وفعله بهم ما يصد له أحد إلا أزاله، اجتمعوا له، واحتوشوه، فأشرعت أرماحهم ونبالهم المجنونة نحوه، وصوبت سهامهم صوبه، وهو مندفع، لا يبالي وما زالوا به، وما زال بهم حتى شخبت جراحه، فأنهكته وهو يتشحط في دمه، ويترنح حتى هوى.

أجل هوى سعد بن الربيع وهو يدفع ثمن الجنة من دمه، ليتخذه الله شهيدًا بين يدي رسول الله - ﷺ -، هوى البطل، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، هوى البطل بعد أن صدق الله ورسوله وواف بالعهود والعقود.

وانجلت المعركة الامتحان الصعب، والاختبار الدقيق بكل ما حفلت به، وما خلفته فسقط من سقط، وفاز من فاز، لقد سقط المنافقون والمرجفون فكشفهم الله وأخزاهم، فبعدًا لهم وسحقًا، وعفا الله عمن تلكأ وضعف وتأخر، وسبق الفريق الفائز سعد بن الربيع وإخوانه ممن أتخذهم الله شهداء.

الوفاء بالعهد:

ما إن فرغ الناس من القتال العنيف، كان أول شيء فعله الرسول القائد - ﷺ - أن قال: ما فعل سعد بن الربيع؟ ثم ما لبث أن قال: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ فلما رأى الصحابة رضي الله عنهم أن النبي - ﷺ - لهف على سعد وخبره، قام أبي بن كعب - رضي الله عنه -، فقال: أنا يا رسول الله، أنظر لك ما فعل سعد بن الربيع.

فقام أُبي بن كعب وجعل يطوف بين القتلى فبعد لأْي عرفه، وصل أبي بن كعب إليه والملائكة تتهيأ لتزفه إلى الفردوس الأعلى، وهو يرى أطيافها الحبيبة مقبلة نحوه ساعية إليه، وهو في نشوة عظيمة، وسرور لا يوصف، فوقف أبي بن كعب عليه، وراح ينادي بصوت شجي تخنقه العبرات: يا سعد بن الربيع، لكن سعدًا كان في شُغل عنه وعن دنياه، إنه الآن في حالة من النعيم والمسرة، فوق إحساس البشر حالة من السعادة والحبور لا يدركه أُبي بن كعب ولا سواه ممن على ظهر الأرض، وعلام يناديه؟ وماذا يبتغي منه؟

وما يسره أن يرجع إليهم صحيحًا معافى، وما في الدنيا شيء أحب إليه مما هو فيه الآن، وما جنات الدنيا ونعيمها وثمارها ولذاتها بشيء في جنب ما يعاين، بيد أن أبيًا ناداه الثالثة فقال: يا سعد بن الربيع، أنا أبي بن كعب رسول رسول الله إليك، إن رسول الله - ﷺ - أمرني أن أنظر خبرك، وقال لي: أقرئه مني السلام، وقل له: كيف تجدك؟

فما إن سمع سعد ذكر رسول الله - ﷺ - وتحيته والسؤال عنه، حتى تنفس كما يتنفس الكير، ثم قال، وقد أشرق وجهه، وعلاه الفرح والحبور: وإن رسول الله لحيّ؟ قال أُبي: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثني عشر سنانًا، فاضطرب سرور لحياة رسول الله، ولو استطاع قيامًا لقام، بلى قد انتفض سعدٍ مبتهج، وكيف لا؟ وقد سمع المحب ذكر حبيبه، وها هو يسأل عنه، ثم فتح الشهيد السعيد عينين كليلتين مخضبتين بمسك دمه، ثم انفجرت شفتاه لتعبر بصدق وإيمان عن سعادة

غامرة، ولتخرج من الدنيا وقد صدقت ووفت بما عاهدت عليه الله بنصيحة مخلصة، فقال سعد:

أقرئ رسول الله - ﷺ - مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع، وجد ريح الجنة، ويقول لك: جزاك الله خيرا ما جزى نبي عن أمته، وقل له: قد طعنت اثنتا عشرة طعنة كلها أجافتني - أي وصلت إلى جوفه - واقرأ على قومي الأنصار السلام، وقل لهم: يقول لكم سعد بن الربيع: الله الله، وما عاهدتم عليه رسول الله - ﷺ - ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خُلصا إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

وخفت الصوت، وسكنت الخفقات، فوجم أبي بن كعب رضي الله عنه وقتًا، ثم انحنى على سعد يُقبله، واختلطت الدموع بالدماء، ثم نهض فترحم عليه، واستغفر له، ومضى مسرع إلى رسول الله - ﷺ -؛ ليؤدي رسالة الصدق الحقة من الحبيب إلى حبيبه، يقول أبي: لما سمع رسول الله ﷺ مقالة سعد، استقبل القبلة رافعًا يديه يقول: اللهم ألق سعد بن الربيع وأنت عنه راضٍ، ثم قال ﷺ: رحمه الله، نصح لله ولرسوله حيًا وميتًا.

أنس بن النضر

في رحاب المجد:

هو أبو عمرو أنس بن النضر بن ضخم النجاري الخزرجي الأنصاري، تربى أنس بن النضر - رضي الله عنه - في ربوع يثرب فعاش بين عائلة عليا من أعلى عائلات يثرب التي جمعت النسب الأصيل، والحسب الرفيع، وجمع لهم أطراف الفضل والبر، وقبل أن نتعرف على سيرة أنس بن النضر واستشهاده يوم أحد، تعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع بعض أفراد هذه العائلة العظيمة:

أبوه؛ فهو: سيد بني النجار النضر بن ضخم أحد أعظم رجال يثرب في عصر ما قبل الإسلام، قتل على الأرجح في إحدى الحروب بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، أي أنه مات على دين قومه قبل دخول الإسلام يثرب.

أما أخوه؛فهو: مالك بن النضر، من أهم رجال بني النجار قبل الإسلام، تزوج السيدة الرزان أم سليم الرميصاء بنت ملحان وأنجبت له البراء وأنس، كان تاجرا من أمهر تجار يثرب، رفض الإسلام، وقتل على دين قومه في الشام على يد أحد أعدائه قبل قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة المنورة.

أما أخته؛ فهي: الرَبيعُ بنت النضر - رضي الله عنها - كانت من الصحابيات اللائي عشن في ظل الإسلام، ونبتن نباتًا حسنًا من شجرة دانية القطوف، مباركة الثمر، وكانت إحدى السابقات إلى الإسلام من نساء الأنصار الفاضلات، وإحدى النساء من ذوات الشأن في الإسلام، ومن اللاتي رباهنَ محمد - صلى الله عليه وسلم - تربية خيرة مباركة، فجادت بالعطاء والخير، فكانت من كرائم النساء.

أما ابن أخته؛ففهو: شهيد بدر الشاب الجسور العابد حارثة بن سراقة،

وقد أعدت الربيع ابنها حارثة أعدادً خاص؛ ليكون من جند الحق، فغرست فيه الفضائل، وفي مقدمتها حب النبي - ﷺ -، وحب الشهادة في سبيل الله، ويعد حارثة من فتية الأنصار الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى، فقد شغله حب الجهاد والشهادة في سبيل الله عن الدنيا وما فيها، وكان حارثة غلامًا فطنًا نبيهًا في مقتبل العمر؛ لذلك أدرك على صغر سنه مرتبة الشهداء، وما لهم عند ربهم من الأجرِ والمثوبة، فكان يسأل النبي - ﷺ - أن يدعو له الله ليقتل في سبيله، فكان له ما طلب، وفاز بالشهادة، وتبوأ الفردوس الأعلى، كما أخبر الصادق المصدوق الذي ما ينطق عن الهوى، فكان شهيد ابن شهيدٍ.

أما ابن أخيه الأكبر؛ فهو: الفدائي الشهيد البراء بن مالك بن النضر، هو الذي قالت عنه كتب السير والتراجم: إنه أحد فضلاء الصحابة الأنصار، وأحد السادة الأبرار الذين يضرب بهم المثل في الفروسية، والذي قتل من الأعداء المشركين مائة في مواطن المواجهة والمبارزة، ولا عجب في ذلك فهو البطل الكمي الباسل الذي كتب الفاروق بشأنه إلى عماله في الآفاق: ألا يولوه على جيش من جيوش المسلمين خوفًا من أن يهلكهم بإقدامه.

أما ابن أخيه الآخر؛ فهو: خادم الرسول أنس بن مالك بن النضر، الذي قيل في حقه كان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر، وأشبه الرجال بصلاة رسول الله، كان - رضي الله عنه - لبيبًا حقًا، يرى ببصيرته أكثر مما يرى ببصره، لهذا حمل من العلم ما لا يحمله أكابر الرجال المقربين إلى الرسول - ﷺ -، وذلك لكثرة ملازمته له في بيته وفي مسجده وفي غزوته كلها.

مكانته في المجتمع النبوي:

أسلم أنس بن النضر - رضي الله عنه - في طليعة السابقين في المدينة على يدي الداعية الفذ مصعب بن عمير رضي الله عنه، وعرف منذ ذلك الوقت معنى السعادة، ومعنى الحب الوفاء والتضحية في سبيل الله.

حسب أنس بن النضر مجادة، وكرامة وعزًا؛ أنه ورد فيه حديث شريف؛ رواه الشيخان: البخاري ومسلم، ونزل فيه قرآن كريمٌ؛ يتلوه المؤمنون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويصلي به المتعبدون آناء الليل، وأطراف النهار.

أفبعد هذا الفخار من فخرٍ تتطاول إليه أعناق الطامحين؛ أو تهفو إليه أفئدة المتطلعين، وهل فوق هذا الشرفً والمجد، سؤددٌ يسعى إليه ذوو الأحساب؟

وللحديث الذي ورد في أنس بن النضر قصةٌ من روائع قصص الصحابة، وللقرآن الذي نزل بحقه قصة أخرى تفوق العقل والخيال، من جميع القصص الأخرى.

قصة الحديث:

قصة الحديث الذي جاء في فضل أنس بن النضر ﷺ هي: إنه كانت له أخت جليلة القدر بين نساء العرب، مرموقة المنزلة في المجتمع النبوي الشريف، وهي الربيع بنت النضر، المكناة بأم حارثة.

وكان لأم حارثة هذه ابن في أول الصبا، ورونق الشباب؛ قد كمل عقلاً، وحلا معشرًا، وسما خلقًا ودينًا وروحًا، رآه النبي - ﷺ - قبيل بدرٍ؛ فنظر إليه في حنان ورفقٍ وقال له: كيف أصبحت يا حارثة؟

فقال: أصبحت مؤمنًا بالله حقًا

فقال ﷺ له: انظر ما تقول يا حارثة؛ فإن لكل قول حقيقة.

فقال: يا رسول الله، لقد عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي بالقيام، وأظمأت نهاري بالصيام، وكأني أنظر إلى أهل النار يتلظون بنارها، ويتعاوون في جحيمها، ثم قال: ادع لي بالشهادة، يا رسول الله، فدعا له النبي - ﷺ -.

لم يمض على ذلك اللقاء بين الرسول - ﷺ -، وبين فتى الفتيان إلا قليل حتى جاءت بدر، ونودي بالخيل، فكان حارثة أول فارس ركب، وكان أول قتيل

استشهد - وفي رواية أنه الثاني - فجزعت عليه أمه العجوز الثكلى أشد الجزع، وجاءت رسول الله - ﷺ -، وقالت: إن يكن حارثة في الجنة لم أبك لفقده، ولم أحزن لثكله، وإن يكن في النار؛ بكيت عليه ما بقيت لي عيونٌ تذرف، وفؤادٌ يتحرق.

فقال لها الرسول الكريم - ﷺ -: إنها ليست بجنة واحدة يا أم حارثة، ولكنها جنانٌ، وإن حارثة في الفردوس الأعلى، فرجعت العجوز الوقور الثاكل إلى بيتها، وجعلت تكفكف عبراتها، وتكتم لوعاتها، وتصبر نفسها، وتتعزى بمواساة الناس لها.

وبينما كانت السيدة الرزان تذوق من مرارة المعاناة ما تذوق، وتعاني من اضطراب المشاعر ما تعاني؛ استثارتها جاريةٌ لجماعة من أهل يثرب، فما كان منها إلا أن لطمتها لطمة كسرت ثنيتها، ثم ندمت على ما فعلت أشدَ الندم.

ولقد تقدم أخوها أنس بن النضر من أهل الجارية يعرض عليهم الفدية؛ فأبوها، فنهض إليهم وجوه القوم يرجونهم الصفح فردوهم، وأصروا على أن يشكوها إلى النبي - ﷺ -، فلما شكوها إليه؛ قضى بالقصاص منها تنفيذًا لحكم الله، ومساواة بين المسلمين، فذهل أخوها أنس لما سمع، وقال: أو تكسر ثنية أم حارثة يا رسول الله؟ والذي بعثك بالحق لا تكسرُ، فقال له الرسول - ﷺ -: يا أنس إنه كتاب الله يقضي بذلك.

وقبل أن يتفوه أنسٌ بكلمةٍ؛ نظر الرسول الكريم - ﷺ - إلى أهل الجارية المتصلبين المتعصبين؛ فإذا هم ألين من العهن المنفوش، وأنعم من الحرير الطَريَ، وإذا بهم؛ وكأن قوة خفية تدفعهم دفعًا إلى غير ما كانوا عليه، فأقبلوا على النبي - ﷺ -، وهو يقولون: نعم، لا تُكسرُ ثنيتها يا رسول الله، نعم؛ لا تُكسرُ، لقد عفونا عنها يا رسول الله، لقد صفحنا عنها يا أكرم أنبياء الله.

فنظر الحبيب - ﷺ - إلى أنس بن النضر في رفق وإعجاب: فقال: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره.

قصته في القرآن:

لم يكن أنس بن النضر ﷺ ممن شهدوا بدرا مع الرسول - ﷺ - فقد كان في تجارة له خارج المدينة، ولم يعلم بخروج الرسول - ﷺ - لقتال المشركين يوم بدر، فشق عليه ألا يشهد مع الرسول القائد - ﷺ - أول يوم من أيام الله في الإسلام؛ فحزن لذلك حزن شديد، ولم يزل تخلفه هذا عن بدرٍ يؤرق سريرته المؤمنة فجعل يلوم نفسه، ويقول: ويحك يا أنس، أتغيب عن أول مشهد شهده الرسول.

هل أنت ضامن بأن يمتد بك العمر حتى تشهد مع نبي الله - ﷺ - يومًا يعادل بدرًا في الذخر والأجر، وأخذ يردد في عزم وحزم: والله لئن أراني الله تعالى مشهدًا مع رسول الله ليرين الله مني ما أصنع.

لم يكتفى أنس بن النضر - ﷺ - بعزمه ذلك بل ذهب إلى الرسول - ﷺ - متأسفًا حزينًا أن فاتته غزوة بدر، فقال للنبي - ﷺ -: يا رسول الله، غبت عن قتال بدر، غبت عن أول قتال قاتلتَ المشركين فيه، والله لئن أراني الله تعالى قتال المشركين ليرين اللهُ ما أصنع.

قال أنس ذلك بصوت فيه الحزن، وفيه الشجاعة، وفيه اليقين، وفيه حسن التوكل على الله، ومن المؤمنين رجالا لو أقسموا على الله لأبرهم، ولو تكلموا عن أنفسهم لصدقهم، وبقي أنس ينتظر ذلك اليوم الذي يشفي في نفسه ويرضي فيه ربه، بقي أنس منذ ذلك اليوم لا يطيب له طعام ولا شراب، ولا يسكن إلى أهل ولا أصحاب إلا قليل.

لم يمض على العهد الذي قطعه أنس بن النضر على نفسه إلا قليل، إذ سرعان ما ارتفع في أجواء المدينة المنورة صوت يندب المؤمنون للنفرة مع رسولهم القائد ﷺ إلى أحد.

سارع أنس بن النضر يتقدم الصفوف؛ وقد عزم في نفسه أن يبر بعهد لربه فيريه من صنيعه بالمشركين، ما يضحك الرب من عبده، أن يراه يثخن الجراح في

المشركين ذودًا عن دينه، ونبيه ﷺ.

ويحتد العراك عند جبل أحد وكانت الدولة في أول المعركة للمسلمين، ثم تنقلب المعركة رأسًا على عقب حتى تتكاثر سيوف المشركين من حول الرسول.

فقد لقي الرسول - ﷺ - في هذا اليوم من الضنك والأذى ما لقي فرمي بالحجارة، وألقي في الحفرة، وشج وجهه، وجرحت شفته، وسال دمه، وأرجف المرجفون أنه قتل، وصدق أكثر المجاهدين ما ذاع وما شاع، فيصيب المسلمين مما سمعوا غما، ووهنا، وكربا عظيما، وانهارت عزيمتهم حتى كاد صناديدهم أن يتخاذلوا عن موصلة القتال.

عند ذلك وجد أنس بن النضر أن الفرصة غدت سانحة له للوفاء بما عاهد عليه الله - عز وجل - فاطلع على ساحة المعركة، ونظر إلى المسلمين وقد انكشفوا عن الرسول - ﷺ -، وقد حدق به المشركون من كل جانب، وهم يتجهون نحوه ليقتلوه، ويطفئوا نور الله بحد السيف، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين الفارين من ساحة القتال -، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين المهاجمين -.

ثم يندفع أنس بن النضر إلى أتون المعركة وسيفه قائم بيده، وهو يصيح: يا معشر المسلمين، إن كان رسول الله قد قتل حقًّا فماذا تفعلون بالحياة من بعده، وفي رواية أخرى أنه قال: إن كان محمد قد مات؛ فإن الله حيٌّ لا يموت.

ألقى أنس بنفسه في خضم المعركة بعد أن سَلَّ سيفه وكسر غمده، ومضى بين الصفوف غير مرتاب ولا هَيَّاب، وبينما هو مندفعٌ إلى لقاء المشركين رأى سعد بن معاذ - رضي الله عنه - قريبًا منه، فالتفت إليه، وقال: الجنة يا سعد الجنة، واه لريح الجنة، وَرُبَّ النضر إني أجد ريحها من دون أُحد؛ ثم مضى لا يلوي على شيء، فقال سعد: فهممت أن ألحق به، وأن أسلك سبيله، وأفعله فعله، غير أني ما استطعت أن أعزم علي ما عزم، وأن أصنع ما صنع.

تقدم أنس بن النضر - ﷺ - إلى الجنة وهو يراها أمامه فقاتل الذين كانوا يريدون أن يحولوا دونها، فجاءت إليه نخبة من صناديد قريش فأخذ يبارز الرجال، فتتلقاه سيوف المشركين ورماحهم فلا يهن ولا يتراجع، ويمضي يثخن في المشركين الجراح حتى تنهدَ قواه، ويسقط صريع على أرض العزة والشرف.

ولما انجلت المعركة؛ إذا بأنس قد ثوى شهيد على أرض أُحد، وفيه بضع وثمانون ضربة بالسيف، أو طعنة بالرمح، أو رمية بالسهم، وقد بلغ من كيد المشركين له أنهم مثلوا به ميتًا؛ مثلة قضت على معالمه، فما عرفه أحد إلا أخته أَمْ حارثة ﷺ من بنانه.

ولقد أكرم الله أنس بن النضر - ﷺ -؛ فأنزل فيه قرآنا؛ تلاه المسلمون آناء الليل وأطراف النهار، وسيظل يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لقد أنزل الله فيه قول الله عز وجل: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: 23).

ثابت بن الدحداح

في ركب السعداء:

منذ أن قدم مصعب بن عمير – رضي الله عنه – المدينة المنورة سفيرًا لرسول الله ﷺ، أخذ يفقه أهلها ويعرفهم بالإسلام، فبدؤوا يدخلون في دين الله أفواجًا، وأخذا مصعب رضي الله عنه يعد المدينة المنورة ليوم الهجرة العظيم، وهبت رياح الإيمان تغمر بيوت المدينة بأريجها المعطار، وكان ممن نال شرف الدخول إلى دوحة السماء؛ ليسجل في قائمة الخالدين أسرة تسكن في إحدى نواحي المدينة المنورة، ولم تكن هذه الأسرة سوى أسرة ثابت ابن الدحداح وزوجه، ولقد أسلم جميع أفراد هذه الأسرة المباركة، ومشوا في ركب السعداء.

فمنذ أن بايع الأنصار رسول الله – صلى الله عليه سلم – عكفوا على قراءة القرآن الكريم، يعمرون به قلوبهم فهمًا، ويستجيبون لما تدعو إليه عملاً، وهم في غبطة بما تفيئه آياته الكريمة من سعادة في الدارين.

ربح بيعك:

كان أبو الدحداح وزوجه أم الدحداح ممن أشرقت نفوسهما بنور القرآن الكريم، وكان لأبي الدحداح أرض وفيرة في مائها، غنيةٌ في ثمرها، وكانت أم الدحداح رضي الله عنها معوانًا لزوجها في أعمال الخير، فعندما نزل قول الله عز وجل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة:245).

بادر أبو الدحداح – رضي الله عنه – إلى التصدق بماله ابتغاء ثواب الله عز وجل، ومن ورائه زوجه تحضه على ذلك طمع بما وعد الله به عباده المؤمنين.

فقد ذكر شيخ المفسرين الإمام القرطبي في تفسيره بسنده عن زيد بن أسلم

رحمه الله أنه قال: لما نزلت: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، قال أبو الدحداح: فداك أبي وأمي ونفسي يا رسول الله، إن الله يستقرضنا، وهو غني عن القرض؟ قال: نعم، يريد أن يدخلكم الجنة به، فقال: فإني إن أقرضت ربي قرضًا يضمن لي به، ولصبيتي وزوجتي معي الجنة؟

قال ﷺ: نعم، قال ثابت: فناولني يدك، فناوله رسول الله - ﷺ - يده، فقال: إن لي حديقتي إحداهما بالسافلة، والأخرى بالعلية، والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضًا لله تعالى، فقال ﷺ: أجعل إحداهما لله، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك، فقال: فأشهدك يا رسول الله، أني جعلت خيرهما لله تعالى، - وهو حائط فيه ستمائة نخلة - قال ﷺ: إذًا يجزيك الله به الجنة، فانطلق أبو الدحداح مسرعًا حتى جاء أم الدحداح، وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل، فأنشأ يقول:

هداك ربي سبل الرشاد ... إلى سبيل الخير والسداد
بني من الحائط بالوداد ... فقد مضى قرض إلى التناد
أقرضته الله على اعتمادي ... بالطوع لا منَ ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف في المعاد ... فارتحالي بالنفس والأولاد
والبر لا شك فخير زاد ... قدمه المرء إلى المعاد

هنا ماذا يتصور المرء أن يكون موقف الزوجة وقد أخذ منها أجمل ما تحب، وأحسن ما تشارك زوجها فيه؟ عندما لا يكون ثمة إيمان راسخ في الأعماق؛ فإن الموقف: الضجر، والتأفف، وضيق الصدر إلخ، ولكن عندما يكون عند الزوجة إيمان عميق، وعقيدة راسخة، ويقين بما يعد الله عز وجل لعباده المتصدقين يكون الموقف مختلفًا تمامًا عن الأول، إنه التسليم بذلك، والفرح بما فعل الزوج، وتشجيعه وتأييده في موقفه العظيم، وكذلك كانت أم الدحداح رضي الله عنها.

إنها لما سمعت أبا الدحداح يقول ما قال آنفًا؛ ردت عليه بقول المؤمنة الصابرة

الراجية ما عند الله تعالى في الآخرة، ردت بقولها: ربح بيعك، بارك الله لك فيما اشتريت، ثم أنشأت تقول:

بـــشرك الله بـخـير وفـــرح مثلك أدى مـا لديه ونصح
قـــد مـتـع الله عـيـالي ومنح بالعجوة السوداء والزهو البلح
والعبد يسعى وله ما قد كدح طول الليالي وعليه ما اجترح

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم، حتى أفضت إلى الحائط الآخر، فقال النبي - ﷺ -: كم من عذق رداحا في الجنة لأبي الدحداح.

نخلة ببستان:

لم يكتف أبو الدحداح وزوجه بذلك، بل مضى أبو الدحداح - رضي الله عنه - في طريق الإسلام يستجيب له، ويعتز به، ويقدم من أجله كل ما يستطيع، واختار لنفسه أرفع الدرجات، وأصدق القربات، وهو بذل المال في سبيل بارئه وخالقه، فقد تصدق بما تبقي له من مال، فقد جاء في صحيح مسلم وغيره بسنده:

إنه جاءت خصومة للنبي - ﷺ - بين يتيم وأبي لبابة رضي الله عنه على نخلة، فقد كان هناك بستان لأبي لبابة بجانب بستان آخر لهذا اليتيم وبينهما نخلة، وهذا اليتيم لا زال لم يدرك حق الإدراك، فقال أبي لبابة: هذه النخلة لي، وقال اليتيم: هذه النخلة لي.

فتشاجرا، فذهب اليتيم فاشتكى أبو لبابة إلى النبي ﷺ، فأحضر النبي - ﷺ - أبا لبابة، فقال النبي - ﷺ -: هذا اليتيم، يشكوك في نخلة أخذتها منه، فقال: والله، ما كان ذلك يا رسول الله، ما كنت لآخذ نخلته، فقال النبي ﷺ: إذًا نخرج ونعاين.

خرج النبي ﷺ ولم يعتمد على كلام هذا ولا هذا، وإنما خرج ليعاين البستانين، ويعاين مكان النخلة، وعندما وصل إلى المكان، فإذا بالنخلة في بستان أبي لبابة

واضحة جلية كم قال، فهل يعطف على هذا اليتيم فيحكم بغير حكم الله؟ لا، ما كان رسول الله يفعل هذا.

فحكم بالنخلة لأبي لبابة، فذرفت دموع اليتيم على خديه، فأراد النبي ﷺ أن يجبر كسر قلبه، لأنه لم يدرك الحق، فقال لأبي لبابة: أعطيه هذه النخلة، ولك بها عذق نخل في الجنة؟ لكن أبا لبابة كان في وقت غضب، إذ كيف يشكوه إلى رسول الله، والحق له، فقال: لا، يا رسول الله.

وكان في هذه الجلسة رجل يتمنى فرصة كهذه هو أبو الدحداح رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، لئن اشتريت النخلة، وأعطيتها هذا اليتيم ألي العذق في الجنة، فقال النبي ﷺ: نعم، يا أبا الدحداح لك ذلك.

فيلحق أبو الدحداح بأبي لبابة، ويقول له: أتبعيني هذه النخلة ببستاني كله، قال: أبعكها، لا خير في نخلة شكيت فيها إلى رسول الله ﷺ.

فباعه النخلة بالبستان كله، وذهب وناد في زوجته: يا أم الدحداح، ويا أبناء أبي الدحداح، قد بعناها من الله، فاخرجوا منها، فقالت امرأته: ربح البيع يا أبا الدحداح، فخرج ومع أطفاله بعض الرطب فقام يأخذه ويرميه فيها، ويقول: قد بعناها من الله عز وجل بعذق في الجنة، والله لا نخرج منها بشيء، وخرج هو وأهله، وقد باع كل شيء واشترى عذقًا من نخلة عند الله سبحانه وتعالى.

يوم في حياة أبي الدحداح:

يقول مقاتل بن سليمان في تفسيره: إن أبا الدحداح أصبح يومًا صائمًا، فلما كادت الشمس أن تغرب طلب من أم الدحداح أن تجهز له فطوره، وقبل أن تقوم من مقامها جاء مسكينٌ يطرق بابهم، ويقول: عشوني بما عندكم فإني لم أطعم اليوم شيئًا، فقال أبو الدحداح لها: قومي فاثردي رغيفًا وصُبَي عليه مرقة وأطعميه، ففعلت ذلك، فما لبثوا أن جاءت جارية يتيمةٌ، فقالت: أطعموني فإني ضعيفةٌ لم أطعم اليوم شيئًا، فقال رضي الله عنه:

يا أم الدحداح، قومي فاثردي رغيفًا وأطعميها؛ فإن هذه أحق من ذلك المسكين، ففعلت وأطعمتها، فبينما هم كذلك إذ جاء على الباب سائلٌ أسيرٌ ينادي: عشُوا الغريب في بلادكم، فإني أسيرٌ في أيديكم وأجهدني الجوع، فالبذي أعزكم وأذلني لما أطعمتموني، فقال أبا الدحداح: يا أم الدحداح، قومي فاثردي رغيفًا وأطعمي الغريب الأسير، فإن هذا أحق من أولئك، ففعلت وأطعمته، ثم بحث أبي الدحداح في بيته عن فطور له، فلم يجد ما يأكل.

وقيل: إن صنيع أبي الدحداح وزوجته في ذلك اليوم مما أنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: 8، 9).

أسد يوم أحد:

مضى أبو الدحداح ﷺ في طريق الإسلام، يستجيب له ويعتز به ويقدم من أجله كل ما يستطيع، واختار له أرفع الدرجات وأصدق القربات فكم بذل المال، ها هو يبذل النفس في سبيل بارئها وخالقها، فبدأ لأبي الدحداح أن يضحي بنفسه طلبًا لما عند الله وما أعده لعباده من النعيم المقيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: 111).

ففي يوم أحد دارت الدائرة على المسلمين لما ترك الرماة مواقعهم، وأوقع المشركون فيهم قتلاً، وأصيب النبي ﷺ بجراحات شديدة، وأُشيع أنه قتل، فخارت معنويات كثير من المسلمين، وهمُ البعض منهم بالعودة إلى المدينة، وهنا برز دور أسد أحد أبو الدحداح الذي يظهر في الوقت المناسب دائمًا، فجعل ينادي بأعلى صوته: يا معشر الأنصار، إليَ إليَ، أنا ثابت ابن الدحداح، إن كان محمد ﷺ قتل فإن الله حيٌ لا يموت، فقاتلوا عن دينكم؛ فإن الله مظهركم وناصركم.

فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين على المشركين، فصمدوا لكتيبة من أشرس فرسانهم كانت تقتل في المسلمين قتلاً حتى صدوهم

عنهم بعدما جُرح أبو الدحداح ومن معه جراحاتٍ منكرة أودت بحياتهم جميعًا على أرض أحد، إلا أبا الدحداح - رضي الله عنه -؛ فقد وجدوه بعد المعركة في دمائه يلتقط أنفاسه فحمل إلى بيته جريحًا.

حان وقت الرحيل:

بعد فترة عاشها أبو الدحداح - رضي الله عنه - صابرًا محتسبًا وهو يعاني من آلام الموت والطعنات والضربات في يوم أحد، انتفضت به هذه الجروح الغائرة لتلحقه بركب الشهداء، وليرى وعد الله الذي ينتظره منذ سنوات.

وقد صلى النبي - صلى الله عليه وسلم - على أبي الدحداح رضي الله عنه، ثم خرج مع الناس في جنازته التي ضمت جمعًا غفيرًا من المهاجرين والأنصار، فجلس النبي - صلى الله عليه وسلم - عند قبره حتى دفن، ثم قام فركب فرسه، والناس من حوله، فتذكر صلى الله عليه وسلم مناقب هذا الشهيد البطل وصنيعه يوما تصدق ببستانه، فتحركت شفتاه الشريفتان بكلمات تخللت مسامع من حوله، فقال صلى الله عليه وسلم: كم من عذقٍ مدلَى لأبي الدحداح في الجنة.

أوس بن ثابت

في رحاب المآثر:

تكاد سيرة أوس بن ثابت تغيب عن الأذهان في حين أنه من علية قومه بني النجار، ومن سادة الأنصار العظام، وقد وصلت إلينا معلومات قليلة عنه، في حين أن ابنه شداد، وأخاه حسان من مشاهير الصحابة الأعلام.

كان أوس بن ثابت ﷺ من فضلاء الصحابة، وعلمائهم، وفقهائهم، كان عالم حليم كثير العبادة، شديد الورع والخوف من الله تعالى، وكان مع ذلك مقاتل فدائي فذ لا يعرف للخوف أو للتردد معني يقبل على الموت أقبل الظمأ على الماء البارد في اليوم شديد الحر، عاش حياته لله ربه وكذلك كان مماته لله ربه يوم أحد، فتعال أيها العاشق لنتجول قليلاً في سيرة هذا الصحابي الجليل.

مكانته عند قومه:

كانت حياة أوس – ﷺ – في المدينة ومن خلال استجلاء أخباره في صحائف التاريخ إنه كان ذو مقام رفيع القدرِ، وكانت له كلمة مسموعة؛ ومكانة مرموقة في قومه، فقد رضيه الأوسيون والخزرجيون حكمًا لهم في الكثير من الخلافات بينهم قبيل مطلع فجر الرسالة المحمدية.

مع السابقين:

حينما لاحت أنوار الإسلام في سماء يثرب كان أوس من الرعيل الأول من الأنصار، وقد أسلم على يد الداعية اللبيب مصعب بن عمير – ﷺ –، ولما كانت بيعة العقبة الثانية التقى الأنصار رسول الله – ﷺ –، والتفوا حوله وبايعوه، وكان

من بينهم ليلتها أوس بن ثابت.

وحينما بدأت طلائع المهاجرين تسري نحو المدينة، جعل الأنصار يستقبلونهم في منازلهم، نزل ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ على أوس، وعندما شرع رسول الله يواخي بين المهاجرين والأنصار، آخي بين عثمان وأوس، وقد آثر أوس أخاه عثمان في كثير مما يحب.

من أهل بدر:

عاش أوس بن ثابت – رضي الله – عنه بجوار الرسول ﷺ، حتى جاءت غزوة بدر ونادي منادي رسول الله: يا خيل الله اركبي، كان أوس من العصابة المباركة التي شهد الله لها بالإيمان والخيرية، فهو من أهل البلاء يوم بدر وما أدراك ما أهل بدر.

حان وقت الشهادة:

في يوم أحد سارع أوس إلى الجهاد وكان في مقدمة الصفوف يقاتل قتال الأبطال، ويناضل نضال المغامرين حتى أتخذه الله يومها شهيدًا، وقد سجَل أخوه شاعر الرسول حسان بن ثابت استشهاده في قصيدة بديعةٍ منها قوله:

ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت شهيدًا وأسنى الذكر مني المشاهد

حسيل بن ثابت

في رحاب المجد:

فاز اليمان وزوجته وأبناؤه بشرف الصحبة النبوية، وكُتب جميعهم في ديوان الصحابة العظام، وهذه منقبةٌ تكاد تكون فريدة للأسرة اليمانية، إذ لم يحظ بها سوى أسر قليلة في زمن النبوة، فهذه زوجة اليمان: الرباب بنت حارثة الأنصارية، أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ، ولدت لليمان؛ حذيفة، وسعدًا، وصفوان، ومُدلجًا، وليلى، وكان النبي ﷺ يكرم الرباب بشكل كبير، فقد دعا لها ذات يوم بالمغفرة حينما قال لابنها حذيفة: اللهم اغفر لحذيفة ولأمه.

وجميع أبناء اليمان قد تشرفوا بمبايعة النبي - ﷺ -، فها هو: حذيفة أكبرهم وأشهرهم، كان من سادات الصحابة، بل كان حذيفة من نجباء أبناء الصحابة، ومن أذكياء المدرسة النبوية، وكتم سر الرسول، وصاحب مهمة الاستطلاع الخطيرة يوم الخندق، وسيرة حذيفة مستوفاةٌ في كتب التاريخ والتراجم.

وابنه الآخر هو: المجاهد البطل صفوان بن اليمان، شهد جميع المشاهد مع الرسول القائد، وكان له دور عظيم في كل المشاهد خصوصًا يوم أحد.

ولليمان بناتٌ صحابياتٌ: منهن: خولة، وهي من روايات الحديث، فقد سمعت من النبي - ﷺ - يقول: لا خير في جماعة النساء إلا عند ميت، فإنهن إذا اجتمعن قلن وقلن.

وله بنت آخر هي: فاطمة بنت اليمان، لها صحبةٌ، وروايةٌ، ومما أخرجه أحمد وغيره بسنده عنها، أنها قالت: أتينا رسول الله نعودُهُ في نساء، فإذا سقاءٌ معلقٌ نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من الحمَى، قلنا: يا رسول الله، لو دعوت الله فشفاك، فقال رسول الله – ﷺ –: إن من أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

وأخرج الإمام أحمد أيضًا عنها بسنده، أنها قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يومًا، فقال: يا معشر النساء؛ لا تحلين الذهب، أما لكنَ في الفضة ما تحلين به، ما من امرأة تحلى ذهبًا تظهره إلا عذبت به. وهنا نكتفي بترجمة هؤلاء الأبناء الأربعة حتى لا يطيل الأمر.

عند بدر:

نعم الله على اليمان مع أبنائه بنعمة الإسلام منذ أن أظهر الداعية المكي الفذ الإسلام في ربوع يثرب، وأثبت اليمان وابنه حذيفة وفاءهم الكبير لدين الله عز وجل، فقد روى أهل الأحاديث والسير: إنه قبل بدر الكبرى أقبل اليمان وابنه حذيفة فلقيهما أبو جهل والجيش الوثني، فقالوا: إلى أين؟

فقالا: في حاجةٌ لنا، فقال أبو جهل: ما جئتم إلا لتمدُوا محمد علينا، وأرادوا أن يقتلوهما، فأخذوا عليهما موثقًا وعهدًا ألا يكثَرا عليهم، فحلفا لهم، فخُلوا سبيلهما، فأتيا رسول الله – ﷺ – فذكرا له ذلك، وقالا: إنا حلفنا لهم ألا نعين عليهم، فإن شئت قاتلنا معك، قال ﷺ: بلي، نفي ونستعين الله عليهم، ونفي بعهدهم، فانطلقا إلى المدينة، فذاك الذي منع اليمان وابنه حذيفة من شهود بدر.

أما في رواية الإمام مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان ﷺ، أنه قال: ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسيل فأخذنا كفار قريشٍ، فقالوا: إنَكم تريدون محمدًا؟ فقلنا: ما نريده؛ إنما نريد المدينة، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفنَ إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله - ﷺ -، فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي بعهدهم، ونستعين الله عليهم.

إعصار أحد:

يروي أصحاب السير والمغازي أن حسيلاً كان شيخ كبير يوم معركة أحد، وأنه حضر ميدان المعركة، فاستشهد يومئذٍ، قتله أحد الصحابة خطًا، ولم يعرفه، لأن الجيش يختفون لأُمة الحرب، ويسترون وجهوهم، فإن لم يكن علامةٌ بيَنةٌ، وإلا ربما قتل الأخ أخاه، ولا يشعر، ولاستشهاد اليمان في معركة أحد قصةٌ مسطورةٌ في الصحيح، وكتب السيرة والطبقات، فتعالوا بنا لنتعرف على بعض هذه الروايات:

روي الإمام البخاري في الصحيح بسنده عن أم المؤمنين عائشة ﷺ أنها قالت: لما كان يوم أحد، هزم المشركين، فصرخ إبليس فيهم: أي عباد الله، أُخراكم، فرجعت أولاهم، فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد الله؛ أبي أبي، فقالت: فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم.

وقد أفردت بعض مصادر السيرة النبوية القصة بشكل مفاصل: لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحدٍ، دفع حسيل وثابت بن وقاش في الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه - وهما شيخان كبيران -: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله، ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظمأ حمار إنما نحن هامةُ اليوم أو غدًا، أفلا نأخذ أسيافنا، ثم نلحق برسول الله - ﷺ -؛ لعل الله تعالى يرزقنا الشهادة.

أخذ الشيخان أسيافهما، ثم خرجا حتى دخلا في الناس من جهة المشركين، ولم يعلم المسلمون بهما، فأما ثابتٌ فقتله المشركون، وأمَا حسيل فاختلفت عليه أسياف المسلمين، فقتلوه ولم يعرفوه.

فقال حذيفة: أبي، فقالوا: ما عرفناه، وصدقوا، فقال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله - ﷺ - أن يديهُ، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده عند رسول الله ﷺ خيرًا.

عمرو بن ثابت

إعراض:

لما أسلم سعد بن معاذ على يد مصعب بن عمير - رضي الله عنه - ذهب إلى قومه بني عبد الأشهل يحمل لهم الخير والسعادة، وكان سيد مطاع فيهم، فدعا القوم إلى الإسلام فأسلم بنو عبد الأشهل جميعًا إلا رجلاً واحدًا وهو عمرو بن ثابت أبى أن يسلم، مع أن أباه وجميع عائلته قد أسلموا جميعًا لله ربهم.

بقي عمر بن ثابت على غير الإسلام زمنًا يرى بني قومه قد تركوا الشرك وعبادة الأوثان، وعبدوا الله الواحد الرحمن، فلم تعد يثرب هي التي يعرفها، بل تغير اسمها إلى المدينة، وتغيرت معها أخلاق القوم، وتحسنت طباعهم، واستقام سلوكهم، وتآلفت قلوبهم، ولا شك أنه كان في نظر الكثير منهم مشركًا معرضًا عن الإسلام.

من هنا كانت البداية:

ظل الأمر كذلك حتى خرج عمرو في تجارة له لعدة أيام، وأثناء طريق عودته كان الإيمان قد دق باب قلبه، ففتحه عمرو على مصراعيه ليملأ الإيمان أركان فؤاده، فعاد يشق الصحاري بدابته ليرتمي بين يدي رسول الله ﷺ، ويقبل رأسه ويداه ويعتذر له عن تأخر إسلامه حتى الآن، ويعلنها قائلاً: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

دخل ابن ثابت المدينة فوجد فيها حالة غريبة، وجدها شبه خاليةٍ من رجالها، وكان ذلك يوم السبت الخامس عشر من شوال السنة الثالثة من الهجرة، إنه يوم

أُحُد، فأخذ عمرو يتساءل: أين أبي، وأخواتي، وبنو عمي؟ فقالوا: بأحد، فقال: أين سعد بن معاذٍ؟ قالوا: بأحدٍ، فقال: أين بنو عبد الأشهل؟ قالوا: بأحدٍ.

عند أحد:

وصل عمرو بن ثابت - رضي الله عنه - إلى ساحة القتال فوجد رحاها دائرة، وكأني بعينه تبحث وسط الجموع المتشابكة عن الرسول القائد - ﷺ -؛ ليخبره أنه أسلم وجاء يقاتل تحت لوائه، فاقتحم ابن ثابت بفرسه ساحة المعركة يخترق الجموع حتى وقعت عينه على الرسول؛ فانطلق نحوه، فلما وقف بيد يديه قال: يا رسول الله، أرأيت أني أسلمت أكان خير لي؟ قال: نعم، فشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، أرأيت لو أني حملت على القوم، فقاتلت حتى أقتل أكان خير لي، ولم أصل صلاة قط، غير أني أحب الله ورسوله والشهادة في سبيله؟ قال: نعم.

قاتل عمرو جموع الوثنيين أشد القتال حتى أجهدهم، ولما دارت الدائرة على المسلمين شد بفرسه فدخل في وسط نخبة من فرسان قريش؛ ليصد هجوم القوم عن الرسول القائد - ﷺ - فقاتل حتى أثبتته الجراحة.

غضبًا لله ولرسوله:

لما هدأت أصوات السيوف خرج المسلمون يلتمسون القتلى، ويتفقدون الجرحى، فبينما رجال بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم إذا هم بعمرو بن ثابت، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم، وما جاء به ولقد تركناه وإنه لمنكر هذا الأمر، فحمل إلى أهله جريحًا، فدخل عليه سعد بن معاذ فقال له: ما جاء بك يا عمرو؟ جئت غضبًا لله ولرسوله؟ أم حمية لقومك؟ قال: بل جئت غضبًا لله ولرسوله.

مالك بن سنان

مع السابقين:

أسلم مالك بن سنان - رضي الله عنه - هو وزوجته أنيسة بنت أبا حارثة، وابنه الصحابي الشهير أبي سعيد الخدري على يد مصعب بن عمير قبل هجرة النبي - ﷺ - إلى المدينة، ولما هاجر النبي - ﷺ - إلى المدينة، خرج مالكا وابنه أبو سعيد في جموع الأنصار الغفيرة لاستقبال رسول الله - ﷺ - عند قدومه في مشهد حافل لم ولن ترى البشرية مثله، ومنذ أن وقعت عين مالك على النبي - ﷺ - وهو يلازمه كظله، ينهل من علمه، ويتعلم من أخلاقه.

العفيف الزاهد:

كان مالك بن سنان رضي الله عنه فقيرًا معدومًا يطوى ثلاثة أيام خالي البطن جائع لا يأكل من شدة الفقر، ولا يسأل أحد شيء، فقال النبي ﷺ: من أراد أن ينظر إلى العفيف المسألة، فلينظر إلى مالك بن سنان.

فلقد تعفف - رضي الله عنه - عن المسألة مع أنه في حاجة؛ وذلك لما في السؤال من ذل، ومن يستعفف يعافه الله، ومن يستغن يغنه الله.

الطريق إلى أحد:

عاش مالك بن سنان أيام لا توصف بجوار الرسول الأعظم - ﷺ - ينهل من أخلاقه، حتى جاء شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وقد خرجت جموع قريش لقتال النبي ﷺ وأصحابه في المدينة، فأحاط المهاجرون والأنصار

وأبناؤهم رسول الله – ﷺ –؛ ليرسموا صورة بديعة يتعلم المتأمل فيها كيف يكون الحب والفداء.

ولما أراد جيش الإسلام أن يتحرك نحو أحد؛ وجد النبي – ﷺ – بين جموعه عددًا من أبناء الصحابة حديثة أسنانهم فخشي عليهم فأمر بإرجاعهم، وكان من بين هؤلاء الأحداث: أبو سعيد الخدري، الذي خرج مع أبيه ليقدما أرواحهما فداءً لله ورسوله، وكان أبو سعيد لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره بعد.

ولقد أخذ مالك بن سنان – رضي الله عنه – يحاول إقناع الرسول القائد – ﷺ – بقوة ولده على القتال، ولنترك الحديث لأبي سعيد ليروي لنا القصة، فيقول: عرضت يوم أحد على النبي ﷺ ولي ثلاث عشرة، فجعل أبي يأخذ بيدي، فيقول: يا رسول الله، إنه عبلُ العظام – أي ضخم العظام –، وإن كان مؤذنا، فجعل النبي – ﷺ – يصعد فيَ البصر ويصوبه، ثم قال: رده، فردني.

وقف أبو سعيد مع بقية من ردهم رسول الله – ﷺ – وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا على فراقهم لرسول الله ﷺ، وكأني بمالك ينظر نظرة مودع إلى ولده وثمرة فؤاده وهو يطيب خاطره، ويمسح الدمع عن عينيه، وكأنه يشعر أنه آخر لقاء به في الدنيا.

رائحة الجنة:

وقف مالك بن سنان – رضي الله عنه – أمام الرسول القائد ﷺ وكأنه يشم رائحة الجنة، فقال: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحسنين، إما يظفرنا الله بهم، فهذا الذي نريد، فيذلهم الله لنا فتكون هذه وقعة كوقعة بدر، فلا يبقى منهم إلا الشريد، والأخرى يا رسول الله أن يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله ما أبالي أيها كان، أن كلاَ لفيه الخير.

أتشرب الدم:

لما دارت رحى الحرب ضروسا رمى عتبة بن أبي وقاص الرسول القائد - ﷺ - فكسر رباعيته اليمنى والسفلى، وجرح شفته السفلى، وشجه عبد الله بن شهاب في جبهته، وأن ابن قميئة جرح وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله - ﷺ - في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر الفاسق ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله - ﷺ -، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائم.

وتلقاه مالك بن سنان فلحس الدم عن وجهه ﷺ فمص جرح رسول الله - ﷺ -، ثم ابتلعه، فقيل له: أتشرب الدم؟ قال: نعم، أشرب دم النبي - ﷺ -، فقال رسول الله - ﷺ -: من سره أن ينظر إلى من خالط دمي دمه فلينظر إلى مالك بن سنان، وفي رواية: من خالط دمي بدمه، لا تمسه النار.

إلى الرفيق الأعلى:

ما زال مالك بن سنان رضي الله عنه يوم أحد يدفع عن الرسول القائد - ﷺ - ويفديه بنفسه، حتى قتله عراب بن سنان الكناني، فمات شهيد كما يرجو، ونال المنزلة العالية التي ينالها الشهداء عند ربهم.

أجرك الله في أبيك:

لما بلغ الناس في المدينة مصاب النبي - ﷺ -، يقول أبو سعيد: فلما كان من النهار وبلغنا مصاب رسول الله - ﷺ -، جئت مع غلمان من بني خدرة نعترض لرسول الله - ﷺ - وننظر إلى سلامته فنرجع بذلك إلى أهلنا، فلقينا الناس منصرفين، فلم يكن لنا هم إلا النبي ﷺ ننظر إليه، فدنوت منه فقبلت ركبته وهو على فرسه، ثم نظرت إلى وجه وإذا شفته السفلى تدمى، فلما نظر إليَ قال: سعد بن مالك؟ قلت: نعم، بأبي وأمي، فقال لي: أجرك الله في أبيك.

ولما علم أبو سعيد أن أباه قد استشهد في بطاح أحد انطلق وعينه تفيض بالدمع من جديد، وأقدامه تسابق الريح حتى وقف على جثمان أبيه الحنون وهو مجندل في دمائه، ولنترك أبا سعيد يحدثنا بما فعل عندئذٍ، فيقول: قتل أبي مالك بن سنان يوم أحد، فنقلته، فلقيت صارخ بعثه رسول الله - ﷺ - أن ادفنوهم حيث أدركتم الدعوة، قال: فدفنت أبي حيث مات.

شماس بن عثمان

اسمه ونسبه:

هو شماس بن عثمان بن الشريد بن هرمى بن عامر المخزومي القرشي، جاء في الكثير من الروايات أن اسمه الحقيقي، هو: عثمان بن عثمان، وأما شماس فهو لقبه الذي اشتهر به، يقول ابن الأثير الجزري صاحب أسد الغابة سبب تسميته بشماس: إن بعض شماسة النصارى قدم مكة في الجاهلية، وكان جميل الوجه، فعجب الناس من جمال وجهه، فقال عتبة بن ربيعة خال شماس: أنا آتيكم بشماس أجمل منه، فأتى بابن أخته عثمان بن عثمان، فسمى عثمان من ذلك اليوم بشماس، وغلب ذلك عليه.

وجاء في رواية أخرى لصاحب الطبقات ابن سعد الزهري: سمى شماس بهذا الاسم لوضاءته فغلب لقبه على اسمه.

في رحاب المجد:

جمع شماس بن عثمان - ﷺ - المجد من جميع أطرافه، فهو صحابيُ من السابقين، وابن صحابية، وبنت عمه أمًا للمؤمنين، وقد نالت بنت عمه شهرة عظيمة كادت تغطي سيرته، مما جعل أخباره التي وصلت إلينا يسيرة، وسنسعى في هذه الورقات لمعرفة المزيد عن شماس بن عثمان.

أما أبوه فهو: عثمان بن الشريد المخزومي، أحد سادة بني مخزوم، وأحد رجال قريش غني وكرم، مات قبل ظهور الدعوة المحمدية في صحراء مكة.

أما أمه فهي: صفية بنت ربيعة، وأبيها ربيعة سيد بني عبد شمس المطاع، وسيد سادات قريش في الجاهلية، أسلمت أم حبيب على يدي ابنها شماس

بن عثمان، وكانت من السابقين إلى الدعوة المحمدية، وكانت كذلك من المهاجرات الأوائل.

أما امرأته فهي: أم حبيب نعم بنت سعيد بن يربوع، أبيه سعيد سيد من سادات بني يربوع في الجاهلية، وأحد قادة العرب المغاوير، أسلمت أم حبيب مع السابقين، وهاجرت الهجرتان مع زوجها، وأم زوجها.

أما خاله فهو: عتبة بن ربيعة أحد أعظم رجالات قريش عقلاً وشجاعة وبطولة، كان من أبطال قريش المشهورين، قتل يوم بدر الكبرى على يدي أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه -.

أما بنت عمه هي: أم المؤمنين هند بنت أبي أمية، الشهيرة بأم سلمة بنت زاد الراكب - رضي الله عنها -، كانت أم سلمة ذات عقلٍ رشيدٍ، ورأي سديدٍ، وقلب سليم، وخلق فاضل، وسلوك نبيل، وكانت من السابقين الأولين إلى الإسلام مع زوجها أبى سلمة، كذلك كانت من أصحاب الهجرتين، وتزوجها الحبيب المصطفى ﷺ بعد وفاة زوجها أبى سلمة السنة الرابعة للهجرة.

مع السابقين:

كان شماس بن عثمان يعيش في الجاهلية حياة الرفاهية والترف، فإذا به في غضون أيام يترك هذا النعيم كله لينتقل إلى نعيم روحي آخر عبقت مكة كلها بأريجه، إنه عبق الإسلام، الذي يدعو إليه محمد - ﷺ -، فقد سارع شماس بن عثمان وزوجه وأمه إلى الإيمان بالله، فكانوا من السابقين، وما إن شاع نبأ إسلام شماس وزوجه حتى هاجت قريش وماجت وجعلت تصب عليهما العذاب صب ما يزلزل الصخور الصلاب، فلم يضعفا ولم يهنا ولم يترددا، ولما اشتد عليهما العذاب أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فكان من أول من خرج من المسلمين فار بدينه إلى أرض الحبشة شماس، وزوجه أم حبيب بنت سعيد، وأمه صفية بنت ربيعة - رضي الله عنهم -.

الهجرة إلى المدينة:

لم يلبث شماس في الحبشة إلا قليلا ثم عاد إلى مكة المكرمة، ثم هاجر شماس وعائلته إلى المدينة، ونزل على مبشر بن عبد المنذر، وآخى النبي - ﷺ - بين شماس بن عثمان وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة ﷺ.

ومن عجب الاتفاق أن البطلين الذين تآخيا في الله عز وجل، قد تآخيا كذلك في الجهاد في ساحات الوغى، وتآخ كذلك في الاستشهاد، وتآخيا كذلك في ميعاد هذا الاستشهاد، فقد لقيا ربهما جل وعلا في معركة واحدة، وربك يفعل ما يشاء ويختار.

أسد يوم أحد:

كان شماس بن عثمان - ﷺ - في مقدمة الصفوف يوم معركة بدر الكبرى، ونال شرفها وثوابها ووعدها الكريم، وقد أبلى شماس يوم بدر بلاءً عظيما، ثم شهد شماس المعركة العصيبة الشديدة غزوة أحد، فأبلى فيها بلاءً حسنًا، وحينما بلغ الأعداء المجرمون رسول الله - ﷺ -؛ ليهاجموه، وقف شماس إلى جواره، يدافع عنه، ويفديه بنفسه، ولا يبالي بالطعنات تأتيه عن يمين وشمال، ولذلك شبهه النبي - ﷺ - بالجنة أي بالترس الواقي، فقال ﷺ: ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهًا إلا الجنة.

وفي رواية ابن الأثير بسنده عن رسول الله: كان رسول الله - ﷺ - يقول: ما وجدت لشماس شبيهًا إلا الجنة، يعني مما يقاتل عن رسول الله - ﷺ - يومئذ، وكان رسول الله - ﷺ - لا يرمي بصره يمينًا ولا شمالاً إلا رأى شماسًا في ذلك الوجه يقاتل عن رسول الله - ﷺ -، ويترسه بنفسه حتى قتل.

وهكذا حوَل شماس بن عثمان جسمه إلى ترس يقي به رسول الله - ﷺ - من سلاح الأعداء إلى جانب الدفاع عنه بسيفه، حتى إذا غشي رسول الله - ﷺ - ترَس بنفسه دونه حتى استشهد - ﷺ -.

في بيت أم سلمة:

لما سقط شماس بن عثمان - ﷺ - صريعًا في أرض أحد فحمل إلى المدينة وبه رمق فأدخل على أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ﷺ، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، ابن عمي لا يدخل على غيري؟

فقال رسول الله - ﷺ -: احملوه إلى أم سلمة، فحمل إليها فمات عندها، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرد إلى أحد، فيدفن هناك كما هو في ثيابه التي مات فيها بعد أن مكث يومًا وليلة إلا أنه لم يأكل، ولم يشرب، ولم يصل عليه رسول الله - ﷺ - ولم يغسله، ودفن مع إخوانه من الشهداء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

الشهداء المهاجرون في أحد:

كان شماس من الأربعة الذين نالوا الشهادة من المهاجرين يوم أحد، وهم: حمز بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وشماس بن عثمان، وسائر شهداء أحد الآخرين كانوا من الأنصار ﷺ أجمعين.

رثاء شماس:

قال سعيد بن يربوع - ﷺ - يعزي أخته في زوجها شماس بموته شهيدًا في طاعة الله ومرافقته لحمزة أسد الله:

أقنى حياءك في ستر وفي كرم ... فإنما كان شماسا من الناسِ
لا تقتلي النفس إذا حانت منيتهً ... في طاعة الله يوم الروع وإلباسِ
قد كان حمزة ليث الله فاصطبري ... فذاق يومئذ من كأس شماسِ

وفي رواية أخرى تقول إن قال هذه الأبيات: هو شاعر الرسول - ﷺ - حسان بن ثابت - ﷺ -، وليس سعيد بن يربوع.

كما رثته امرأته أم حبيب نعم بنت سعيد، فقالت:

يا عين جودي بفيض غير إبساس على كريم من الفتيان أباس
صعب البديهة ميمون نقيبته حمال ألوية ركاب أفراس
أقول لما أتى الناعي له جزعًا أودى الجواد وأودى المطعم الكاسي
وقلت لما خلت منه مجالسه لا يبعد الله عنا قرب شماس

وكان شماس بن عثمان - رضي الله عنه - في الرابعة والثلاثين من عمره حين نال نعمة الشهادة في سبيل الله يوم أحد، لقد ذكرنا في هذه السطور سيرة الفدائي المجهول لدى الناس، المعلوم عند رب الناس الذي أعطاه أغلى ما يتمناه الإنسان وهو الشهادة في سبيله جل وعلا، وكفى بها نعمة.

خلاد بن عمرو

في رحاب المجد:

قبل أن نتعرف على سيرة خلاد بن عمرو - رضي الله عنه -، تعالوا بنا لنتعرف على عائلة هذا البطل المغامر، أما أبوه هو: الشهيد الأعرج عمرو بن عبد الله بن الجموح، كان سيد من سادات العرب، وشريف من أشرافهم، كان من قوم كرام يقال لهم بنو سلمة وهم الذين أرادوا أن يتحولوا من بيوتهم إلى المكان المجاور للمسجد الحبيب، شهد البيعة وكان من النقباء، شهد أحد فأبلى فيها بلاً حسنًا، ولم تعقه عرجته عن الضرب والطعن والنضال حتى لقي ربه شهيدًا سعيدًا يومئذ.

أما أمه فهي: هند بنت عمرو بن حرام، عرفت هند في قومها بالفضل وسداد الرأي، وكمال التدبير، كما تميزت تربيتها لأولادها، ورعايتها لزوجها، كانت هند من أوائل نسوة الأنصار، وأمهات الصحابة اللواتي أسلمن وبايعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فربح بيعهن، وصرن من خير أمة أخرجت للناس، ولم تكن هند وحيدة في روضاتِ الخيرات، وإنما شاركها أخواتها الخمسة، وأسلمن وبايعن وصدقن البيعة لله ورسوله ووفين شروطها.

أما خاله فهو: ظليل الملائكة عبد الله بن عمرو بن حرام، كان سهلاً مطوعًا في استجابته للإسلام منقادًا إليه بفطرته، كان من أقرب الناس مكانًا في مجلس الحبيب، كان يقتدي به في خلقه الفاضل وسلوكه النبيل، قال الحبيب صلى الله عليه وسلم لأخته هند يوم أحد: ولم تبكي فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع، وقال لابنه جابر: أباك كلم ربه بدون حجاب.

أما أخيه هو: الصحابي الفقيه معاذ بن عمرو، قاتل طاغية قريش أبو جهل يوم

بدر، ومحطم أمالهم يوم أحد، كان مغامر من مغامرين الإسلام الذين لا يخشون أحد من البشر، وكان له مناقب بعدد أنجمِ السماء، وتقصر عن استيفاء فضائله الأقلام، وتعجزُ عن حصرها الأرقام.

نور السماء يضيء يثرب:

لما بايع النبي - ﷺ - بعض شباب الأنصار في بيعة العقبة الأولى، طلب منه أسعد بن زرارة أن يرسل إليهم أحد أصحابه؛ ليتعهد نماء الإسلام في المدينة، ويقرأ على أهلها القرآن، ويفقههم في الدين، ويدعو إلى الإسلام من لم يسلم بعد من أهل يثرب، فأرسل النبي - ﷺ - إليهم مصعب بن عمير - رضي الله عنه -، الذي نزل عند أسعد بن زرارة، فكان ينتقل به إلى كل مكان في يثرب يستطيع أن يدعو أهله للإسلام، حتى أسلم على يديه خلق كثير، ومن بين هؤلاء كان أمير شهداء بني سلمة خلاد بن عمرو، فعندما تخللت آيات القرآن مسامعه تحركت شفتاه بكلمة الحق، ولكن كيف أشرقت شمس الإسلام في قلبه.

بينما كان خلاد وأخيه معاذ في جماعة من أصحابهم يسرحون ويمرحون بين الماء والظلال الأشجار؛ طلع عليهم أسعد بن زرارة ومعه رجل غريب يبدو عليه الوسامة والوضاء فحياهم في رقة وأنسً، وخاطبهم في حب ووداد، وقال: ألا تجلسون إليَّ ساعة، فأحدثكم بما عندي، فإن سركم ما تسمعون؛ أتممت، وإن أضجركم؛ أمسكت، فقالوا: بلى، نسمع ما عندك.

فأجلس وانتظموا حوله كما تنتظم حبَات العقد الأنيق حول الجيد المشرق، فاتجه إليهم بوجهه الطلق المأنوس، وعرفهم على نفسه، وقال: أنا مصعب بن عمير من أهل مكة، سفير رسول الله إليكم، فتعجب الفتية من قوله سفير رسول الله، ونظر بعضهم إلى بعض نظرات فيها الكثير من التعجب، وقالوا: رسول الله.

فخاطبهم مصعب ببيانه العذب المشرق، وطفق يحدثهم عن مزايا الإسلام، ويزين في قلوبهم حلاوة الإيمان، ويكره إليهم الكفر وعبادة الأوثان، فما كاد يتم

كلامه؛ حتى تألق وجه معاذ بن عمرو بنور السماء، ثم نظر إليه وقال: كيف أصنع إذا أردت الدخول في هذا الدين؟

فقال: تقوم إلى هذه البئر؛ فتتطهر بمائها، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد ورسوله وخاتم أنبيائه، ثم توجه وجهك للذي فطر السموات والأرض، وتصلى لله ركعتين.

قال معاذ: كأن أول هذا الدين طهارةٌ للبدن بالوضوء، ونهايته طهارة للروح بالصلاة، فتبسم مصعب بن عمير إعجابًا به، وقال: ما أسرع ما فهمت يا معاذ، ثم قام معاذ إلى الماء فتطهر، وشهد الشهادتين، وصلى ركعتين، فما إن رآه أخواه معوذ وخلاد حتى أسلما بإسلامه، وفعلا فعله، ودخلا في دين الله معه.

إسلام سيد بني سلمة:

جاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق، وأسمى هذه المكارم برُ الوالدين والإحسان إليهما، ولقد رأى خلاد واخواه معاذ ومعوذ أن أعلى مقامات الإحسان لوالديه هي هدايتهم؛ ليخرجوا من ظلمات الجاهلية والأوثان إلى نور الحق والإيمان، فبحثوا عن حيلة يقنعوا بها أبوهم الذي تعلق قلبه بصنمه مناة، حتى هدي معاذ إلى حيلة عزم على تنفيذها، فتعالوا معي لنتعايش مع القصة كما جاءت عند أصحاب السير والتواريخ:

كان عمرو بن الجموح قد جاوز الستين حين بدأت أشعة الإيمان تغمر بيوت يثرب على يد الداعية الفذ مصعب بن عمير فآمن على يديه جميع أبناء عمرو الجموح، وآمنت زوجته هند، وهو لا يعرف من أمر إيمانهم شيئًا، وكان هو في الوقت نفسه يخشى على أبنائه أن يرتدوا عن دين آبائهم وأجدادهم وأن يتبعوا هذا الداعية المكي مصعب بن عمير، فقال لزوجته: يا هند، لا تدعى أحدًا من عيالك يستمع لهذا الرجل المكي حتى أنظر ماذا أصنع، فقالت هند: كما تريد، ثم قالت وهي ترجو إسلامه: ولكن هل لك أن تسمع من ابنك معاذ ما روي عنه؟

قال عمرو متعجبًا: فلعله صبأ وترك دينه؟ قالت: لا، ولكن كان مع القوم، فأرسل إلى معاذ فقال: أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل فأخذ ابنه يقرأ بصوت ندي رخيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: 1 إلى 6).

فقال عمرو: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، أو كل كلامه مثل هذا؟ فقال: نعم، يا أبتاه، فهل لك أن تبايعه، فقد صنع ذلك عامة قومك، قال: لست فاعلاً حتى أوامر مناة، فأتاه وخاطبه طويلاً، وقال: يا مناة، لا ريب أنك قد علمت بأن هذا الداعية المكي لا يريد أحدًا بسوءٍ سواك، وقد كرهت أن أبايعه حتى أستشيرك، فأشر عليَ، فلم يرد عليه مناة بشيء، فقال: لعلك قد غضبت، وأنا لم أصنع شيئًا يؤذيك بعد، ولكن لا بأس، فسأتركك أيامًا حتى يسكت عنك الغضب، وانصرف عمرو عنه.

علم معاذ أنه لا سبيل إلى إسلام أبيه ما لم ينتزع هذا الصنم من حياته، وكان يعلم أن أباه الشيخ لا يطيق أن يسمع كلمة في صمنه تسوءه، وأنه من المحال أن يتخلى عنه؛ بعد هذه الصحبة الطويلة؛ للوم اللائمين، فعزم على أن يسلك لغايته طريقًا آخر غير طريق الإقناع؛ مستعينا بإخوته وأترابه.

ففي ذات ليلة عمد هو وأخواه معوذ وخلاد ومعاذ بن جبل إلى مناة؛ فانتزعوه من مكانه في هدوءٍ، ومضوا به إلى حفرة خلف البيوت؛ ترمى فيها الأقذار، وطرحوه في أعماقها أرضًا، وعادوا أدراجهم، ثم ناموا مع النائمين؛ وكأن شيئًا لم يحدث.

فلما أصبح الشيخ المسن مضى على عادته إلى صنمه؛ فلم يجده مكانه، فاستشاط غضبًا، وطفق يبحث عنه في كل مكانٍ إلى أن وجده؛ مكبًا على وجهه في الحفرة، فاستخرجه منها وغسله بالماء الطهور، وطيبه بأغلى الطيب، وبوأه مكانه الذي كان فيه.

وفي ليلة الثانية كرر معاذ وصحبه صنيعهم بالصنم، فلما أصبح عمرو ولم يجده مكانه، قال: ويلكم من عدا على إلهنا في هذه الليلة، ثم غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من يصنع هذا بك لأحرقه، فإذا أمسى وقام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، وفعلوا ذلك ثلاث ليال، فلما كانت ليلة الرابعة راح عمرو إلى صنمه قبل منامه، وأخذ سيفًا مسنونًا وعلقه برقبته، وقال له: يا مناة، إن كنت إلهًا حقًا؛ فادفع عن نفسك أولئك الذين يبغون عليك، ويسيئون إليك، وهذا السيف معك؛ فافعل به ما تشاء.

فلما أمسوا ونام عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فعلقوه وقرنوه بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر الناس، وغدا عمرو فلم يجده، فخرج يتبعه حتى وجده في البئر منكسًا مقرونًا بكلبٍ ميتٍ، فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم سيد بني سلمة، وحسن إسلامه.

طاب خلاد بإسلام أبيه نفسًا، وقر بإيمانه عينًا، فقد تحول البيت المؤمن إلى معقل من معاقل الإسلام في المدينة المنورة، بعد أن دان كل من فيه بدين الإسلام، واستضاء جميع سكانه بنوة محمد - ﷺ -.

أعظم ليلة في التاريخ:

بعد ما أدى مصعب بن عمير - رضي الله عنه - مهمته وبلغ رسالة ربه إلى أهل يثرب حتى لم يبق بيت من بيوت يثرب إلا وفيها رهط يظهرون الإسلام، عاد مصعب إلى مكة، وكان النبي - ﷺ - في هذه الأيام قد بلغ العداء بينه وبين قريش الذروة، وجاءت هذه الأخبار إلى يثرب فعلم الأنصار بما يحدث للنبي - ﷺ - وأصحابه الكرام من اضطهاد وحرب ضروس.

فاجتمع يومًا من أسلم من أهل يثرب؛ ليتشاوروا في حال رسول الله - ﷺ - وأصحابه وما تفعله بهم قريش، فقالوا: إلى متى نترك رسول الله - ﷺ - يطرد في جبال مكة ويخاف؟ وطالت هذه الجلسة حتى اجتمعت كلمتهم على قرارٍ حاسمٍ

سيغير مجرى التاريخ، ألا وهو دعوة النبي - ﷺ -، وأصحابه إلى المدينة، لتكون يثرب العاصمة الأولى للدولة الإسلام.

كتم شباب الأنصار ما اتفقوا عليه حتى جاء موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من بعثة النبي - ﷺ -، فخرجوا في حجيج قومهم، تحمل قلوبهم شوقًا لرؤية الحبيب المصطفى - ﷺ -، ولما وصل الركب إلى مكة أرسلوا إلى النبي - ﷺ - سرًا يواعدونه شعب العقبة أوسط ليالي أيام التشريق.

ولما جاءت تلك الليلة نام المؤمنون مع قومهم أول الليل في رحالهم حفاظًا على سرية الأمر حتى مضى ثلث الليل، ثم قاموا يتسللون في خفة الطير واحدًا تلو الآخر، يسيرون في طرق متفرقة حتى اجتمعوا في الشعب وهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين.

ولما جاء النبي - ﷺ -، ومعه عمه العباس وكان يومئذ على دين قومه، وبعد أن أتفق النبي ﷺ مع الأنصار على بنود البيعة وهي: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

فلما قام الأنصار ليبايعوا هنا أمسك أسعد بن زرارة - رضي الله عنه - بيد النبي - ﷺ -، وأشار بيده الأخرى إلى أصحابه قائلاً: رويدًا رويدًا يا أهل يثرب، هل تدرون على ما تبايعون؟ فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فأما أنتم قومٌ تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قومٌ تخافون من أنفسكم جبينة فذروه فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا: يا أبي أمامة، أمط عنَا يدك، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا ونستقيلها.

ولا شك أن هذه الليلة فيما أرى هي أعظم ليلة في حياة خلاد بن عمرو، ففيها رأى الحبيب المصطفى - ﷺ - لأول مرة في حياته، وفيها تمت البيعة الكبرى التي غيرت مسار دعوة السماء، وبها أقيمت له دولة، وأصبح له أنصار ذوو شوكة، أنها ليست أعظم ليلة في حياة خلاد بن عمرو بل هي أعظم ليلة في حياة البشر.

في رحاب الحبيب:

لم يمض غير قليلٍ على بيعة العقبة الكبرى؛ حتى قدم الرسول - ﷺ - المدينة مهاجرًا، وبنى ﷺ مسجده الشريف، وكانت بنو سلمة قوم خلاد ديارهم بعيدة عن النبي ﷺ وعن مسجده، وكانت قلوبهم تذوب شوقًا لرسول الله - ﷺ -، فأرادوا أن يتركوا منازلهم، وأن يسكنوا قرب المسجد، وهكذا الحب الصادق تهون على النفس فيه البيوت وملاعب الصبا.

فلما بلغ ذلك رسول الله - ﷺ -، قال لهم: إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد، قالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال ﷺ لهم: يا بني سلمة، ألا تحتسبون آثاركم إلى المسجد؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال ﷺ لهم: يا بني سلمة دياركم؛ فإنها تكتب آثاركم، إن لكم بكل خطوة درجة، فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا، وأقاموا في مساكنهم.

ومنذ ذلك اليوم أقبل عليه خلاد وإخوته إقبال الظامئ على الماء البارد، وتعلقوا به تعلق الأم بوحيدها، ولازموه ملازمة المحبَ لحبيبه، فكانوا يغدون معه إذا غدا، ويروحون معه إذا راح، ويصلُون إذا حضرت الصلاة، ويشهدون موعظته وهديه إذا جلس يعظ أصحابه، ويفقههم بدين الله، حتى غدا خلاد وإخوته؛ ريحانة من رياحين فتيان يثرب.

في بدر الكبرى:

منذ إن إسلام خلاد بن عمرو بن الجموح - ﷺ - أصبح من المجاهدين المدافعين عن دين الله عز وجل الراغبين في الاستشهاد في سبيله، وجاءت بدر الكبرى فسارعت أسرة آل عمرو بن الجموح إلى الانخراط في صفوف المجاهدين، ولكن سيد بن سلمة عمرو بن الجموح - ﷺ - كان به عرج فمنعه أبناؤه من المشاركة في العراك، وتوسلوا إلى رسول الله - ﷺ -، فقالوا له: يا رسول الله، إن أبانا شيخ كبير مريض وهو مصر على الخروج للقتال معنا فامنعه.

فمنعه النبي - ﷺ - من الخروج إلى بدر، ولكنه تألم ألمًا شديدًا لذلك، وخرج خلاد وإخوته جميعًا إلى بدر، خرج خلاد ومعاذ ومعوذ أبناء عمرو بن الجموح ومعهم أبو أيمن مولى عمرو بن الجموح، وخرج الكثير من بني سلمة مجاهدين في سبيل الله.

وجاء في كتب الطبقات والتراجم: أنه لما وصل رسول الله - ﷺ - إلى السقيا في طريقه إلى بدر - وهي آبار على بعد ميل من المدينة - عرض جنده هناك، فلما عاود السير برجاله اتخذ تشكيل الحرب خشية أن يفاجئه عدوه أثناء سيره وهو على غير أهبة القتال.

وقد عرضت حاجة في المدينة إلى خلاد بن عمرو فجاء إلى قائده الرسول الأعظم - ﷺ -، واستأذنه فذهب لقضائها، ولما وصل المدينة سأله والده عمرو بن الجموح عن الرسول - ﷺ -، وعن كيفية مسير الجيش، فأخبره بأن الرسول - ﷺ - يعرض الناس هناك، وأن الجيش اتخذ تشكيل الحرب، عند ذلك فرح عمرو وتفاءل بالنصر، وقال لخلاد: نعم القتال، والله لأرجو أن تغنموا وتظفروا بمشركي قريش.

وفي ساحة المعركة تألق نجم آل عمرو بن الجموح، قد أبلى خلاد بلاءً عظيم أدهش التحالف الوثني، وتمكن أخيه معاذ بن عمرو من قتل الطاغية المتكبر أبو جهل، وعاد الجيش المنتصر بعد ذلك إلى المدينة، وكان عمرو بن الجموح ينتظر

عودة الرسول - ﷺ - سالمًا من المعركة بفارغ الصبر، ولما يسأل عن أحد من أبنائه بل سأله عن الحبيب المصطفى - ﷺ -.

عند أحد:

قررت قريش وأجمعت القبائل على الثأر من هزيمتها في بدر الكبرى، وتحركت هذه الجموع الهائلة ناحية العاصمة الإسلامية؛ لتدميرها، وإبادة شعبها، ولما كانت الليلة التي صبيحتها المعركة طاف منادي رسول الله ﷺ في المدينة: أن حيَ على الجهاد، وهو يخبر الناس: أن النبي - ﷺ - سيلتقي بالمجاهدين بالمسجد، فتجهز خلاد بن عمرو وإخوته الثلاثة للخروج مع الرسول - ﷺ -.

وبينما المجاهدون الأربعة يتجهزون إذ دخل عليهم أبوهم عمرو، وكان أعرج شديد العرج، فوجدوه يتجهز ليخرج معهم، فقالوا: إن الله - عز وجل - قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله - ﷺ -، فقال: يا رسول الله، إن بنيَ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال له رسول الله - ﷺ -: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد، فلما رأى العزم منه، قال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة.

خرج عمرو مع بنيه الأربعة للجهاد في سبيل الله، وهو برجله، وابنه معاذ بيده المبتورة يوم بدر، وقبل بدء القتال خرج عمرو ﷺ بعرجته يشق الصفوف حتى أتى رسول الله - ﷺ -، فقال له: يا رسول الله، من قتل اليوم دخل الجنة؟ قال النبي - ﷺ -: نعم، يا عمرو، قال: فوالذي نفسي بيده، لا أرجع إلى أهلي حتى أدخل الجنة، فقال له الفاروق عمر: يا عمرو، لا تألَ على الله، فقال رسول الله - ﷺ -: مهلاً يا عمر؛ فإن منهم من لو أقسم على الله لأبره، منهم عمرو بن الجموح.

وفي رواية قال ﷺ: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ فقال رسول الله - ﷺ -: نعم.

وتدور رحى المعركة طاحنة، ويقاتل خلاد إلى جنب أبيه وإخوته الثلاثة ﷺ، وفجأة يسقط عمرو بن الجموح في جموع قريش، ويرى خلاد أبيه وما فعل به المشركون فيندفع إليهم كالطوفان وأخذ يقاتل الفرسان ليسحب جثة أبيه، لكنه يسقط شهيدًا في نفس المكان بعد أن أثخنته الجراح، رحل عمرو ومن بعده خلاد بعد قدما أرواحهما؛ فداء لله ورسوله.

ويمر الحبيب – ﷺ – على عمرو بن الجموح ﷺ وهو مجندلٌ في دمائه، فيقول له: كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة.

عبد الله بن عبد الأسد

بداية جديدة:

كان أبو سلمة يتألم لكل ما يراه من حوله من أمور الجاهلية التي لا يرتضيها أصحاب القلوب الحية، وكان يتمنى من أعماق قلبه أن يأتي فجر قريب ينير أرجاء الكون بنور الإيمان، وسرعان ما بزغ هذا الفجر ببعثة الحبيب المصطفى - ﷺ -، فكان أبو سلمة من المسارعين إلى الدوحة الربانية، ولقد تحمل في سبيل الله كثيرًا من الأذى، فلما رأى النبي - ﷺ - ما يحدث لأصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، فكان أبو سلمة ممن هاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من بطش قريش وتعذيبهم وإيذائهم.

العودة إلى الوطن:

ظل أبو سلمة وزوجه أم سلمة في الأرض الطيبة الحبشة مدة من الزمن، لكن أبو سلمة لم يستطع البقاء في الحبشة بعيدا عن الحبيب - ﷺ -، فسرعان ما عاد إلى مكة لينعم بصحبة النبي ﷺ وليكن ما يكن، ولما اشتد إيذاء قريش لأصحاب النبي - ﷺ - أذن لأصحابه بالهجرة إلى المدينة ليكونوا في رحاب إخوانهم الأنصار الذين وضعوهم في العيون وأغلقوا عليهم الجفون خوفًا عليهم من نسيم الهواء.

امتحان عصيب:

ولهجرة أبي سلمة إلى المدينة قصة مؤلمة؛ فقد صحب معه زوجه أم سلمة وابنه سلمة، فحال المشركون بينه وبينها فاحتسبوها عندهم، وفرقوا بينها أيضًا وبين ولدها سلمة؛ فقد تنازعوه وتجاذبوه فيما بينهم حتى خلعوا يده، فأهل أم سلمة

يريدون أن يبقي معهم، وأهل أبيه يريدون أن يبقى معهم، فغلب أعمامه أهل أمه، فأخذوه عندهم بعيدًا عن حنان أبويه؛ فاحتملت أمه هذا الفراق المؤلم صابرة محتسبة وحيدة وسط قوم لئام، قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، لا ترى ولدها ولا تسمع لزوجها خبرًا يواسيها.

ظل أبو سلمة وحيد كذلك يعاني ما يعانيه من فراق زوجه وولده عامًا كاملاً ينتظر من الله الفرج، وإن الفرج مع الكرب، وهاجرت أم سلمة إليه ومعها ولدها، وقدر رق لها أهلها بعد أن أخذ منها الحزن مأخذ، وبلي جسدها وأشرفت على الموت من شدة الضعف والهزال.

بطل في ساحات الوغى:

لما وقعت بدر الكبرى كان أبا سلمة في طليعة الجيش، يتربص بأهل الشرك؛ لينتقم لله منهم، وليضرب بسهمه في سبيله غير هياب للموت؛ فلقد رآه أكثر من مرة وهو يعذب في مكة، وبعد بدرٍ جاءت المعركة العصيبة الشديدة أحد، فسارع إليها أبو سلمة، وواصل فيها جهاده وجلاده، مقدمًا غير محجم، حتى ناله وسام إلهي من هذه المعركة، وهو جرح عميق في عضده، وظل شهر يتداوى منه، وهو يتحرق شوقًا إلى معاودة القتال في الميدان من جديد.

الأمير المغامر:

بعد هزيمة أحد تجرأت بعض القبائل على المسلمين، وأول من قام بعمل ضد المسلمين بعد كارثة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما، يدعون بني أسد إلى حرب الرسول القائد - ﷺ - والمسلمين.

ولقد أراد الرسول القائد - ﷺ - أن يرضي نزعة النضال في نفس أبي سلمة، فأرسله لحرب بنو أسد، وذلك في السنة الرابعة للهجرة، ففرح بذلك فرح شديد،

فانطلق إلى نجد ومعه مائة وخمسين رجلاً من أصحابه، فودعهم الرسول - ﷺ -، وأوصاهم بتقوى الله ع - ز وجل - والإخلاص في سبيله، وقال لأبي سلمة: أخرج في هذه السرية؛ فقد استعملتك عليها، فسر حتى تأتي أرض بني أسد، فأغر عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعهم.

اتخذ أبو سلمة طريقه إلى نجد مبتعدًا عن الطرق المعروفة والمسالك المألوفة، حتى انتهى إلى مكان يقال: قطن، وهو موضع فيه ماء لبني أسد، فقسم سريته إلى ثلاثة أقسام: قسم يهاجم العدو، وقسم يحمي ظهره، وقسم يجمع ما لدى العدو من الغنائم، وظلوا يهاجمون أعداءهم ويناوشونهم، وينزلون بهم ما يستطيعون من خسائر قرابة شهر.

ثم التقى الجمعان في معركة فاصلة أيد الله فيها جنده بنصره المؤزر وهزم جمع بني أسد هزيمة منكرة؛ فولوا الأدبار، تاركين وراءهم غنائم كثيرة فحاذها المسلمين وأسروا منهم عددًا كبيرًا ثم عادوا إلى المدينة.

عاصم بن ثابت

كان عاصم بن ثابت ﷺ من السابقين الأولين إلى الإسلام، وكان في بيعة العقبة الأولى ممن رافع الله مقامه، وأظهر في مدراج التوفيق أعلامه؛ وقد أثنى عليه أهل العلم والتاريخ، وذكروه من أصحاب بيعة العقبة الأولى، وأشاروا إلى أنهم لما انصرفوا من مكة؛ بعث معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ﷺ؛ وأمره أن يقرئهم القرآن الكريم ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين؛ ففعل، وآتيت الدعوة المصعبية أكلها، فأسلم معظم أهل المدينة على يديه.

ولما أطلت بيعة العقبة الثانية كان عاصم بن ثابت من رجالها المؤمنين الذين صدقوا ما عادوا الله، وبايعوا رسوله، وشهدوا العقبتين، فكان من السابقين الميامين، ولما هاجر الحبيب المصطفى - ﷺ - كان عاصم ر - ضي الله عنه - دائم بجواره في كل وقت.

أسد بدر:

أبلى عاصم بن ثابت - ﷺ - في أولى المغازي النبوية بين أهل الإيمان وأهل الشرك، وقد قال النبي ﷺ لمن معه: كيف تقاتلون؟ فقام عاصم بن ثابت ﷺ، فأخذ القوس والنبل، وقال: إذا كان القوم قريبًا من مائتي ذراع كان الرَميْ، وإذا دنوا حتى تنالهم الرماح كانت المداعسة حتى تقصف، فإذا تقصَفت وضعناها وأخذنا بالسيوف وكانت المجالدة، فقال النبي - ﷺ -: هكذا نزلت الحرب، من قاتل فليقاتل كما يقاتل عاصم.

وتألق نجم عاصم بن ثابت - ﷺ - في هذه المعركة كفارس لا يشق له في البطولة غبار حتى قتل رأس من رؤوس الجاهلية وسيد من سادات قريش هو

عقبة بن أبي معيط، ولكن بطولة عاصم بن ثابت في بدر لا تذكر في جانب ما قام به يوم أحد، ومن بعده يوم الرجيع، فتعالوا بنا لنتعايش مع هذه البطولات الخالدة:

أسطورة أحد:

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى أن قريش كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدرٍ، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى، وقد اتفقت قريش على أن تقوم بحربٍ شاملة ضد المسلمين تشفى غيظها، وتروى غلة حقدها، وأخذت في الاستعداد للخوض معركة الاستئصال للمسلمين وتدمير عاصمتهم.

خرجت قريش بقضها وقضيضها، وسادتها وعبيدها إلى لقاء المسلمين عند أحد، فقد كانت الأضغان - كما ذكرنا - تشحن صدورها شحنًا لقتلاها في بدر ولم يكفها ذلك، وإنما أخرجت بعض النساء؛ ليحرضن الرجال على القتال، وكان في جملة من خرجت معهن: هند بن عتبة، وسلافة بنت سعد ومعها زوجها طلحة وأولادها الثلاثة: مسافع، والجلاس، وكلاب، ونساء غيرهن.

ودارت رحى الحرب الطاحنة بين الفريقين وارتفعت الصيحات وتطايرت الرؤوس، وسالت الدماء في كل شبر من أرض المعركة، ولما وضعت الحرب أوزارها، وكتب فيها النصر لقريش على المسلمين.

كانت سلافة بنت سعد تنتظر أن يقبل عليها زوجها أو أحد أبنائها الثلاثة، لتقف على أخبارهم، بيد أن انتظارها قد طال عبثًا، فأوغلت في أرض المعركة وجعلت تتفحص وجوه القتلى، فإذا بها تجد زوجها صريعًا مضرجًا بدمائه، فهبت كاللبؤة المذعورة، وجعلت تطوى الأرض بحثًا عن أولادها: مسافع، وكلاب، والجلاس.

فما لبثت أن رأتهم ممددين على سفوح أحد، أما مسافع، وكلاب كأنا قد فارقا الحياة، وأما الجلاس فوجدته وما تزال به بقية من حياة، أكبت سلافة على ابنها

الذي يعالج سكرات الموت، ووضعت رأسه في حجرها، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه، وقد يبس الدمع في عينيها من هول الكارثة، ثم أقبلت عليه وهي تقول: من صرعك يا بني؟ فهمّ أن يجيبها، لكن حشرجة الموت منعته، فألحت عليه بالسؤال فقال: صرعني عاصم بن ثابت، وصرع أبي، وأخي مسافع، وأخي.. ثم لفظ آخر أنفاسه.

جن جنون سلافة بنت سعد، وجعلت تعول وتشنج وأقسمت باللات والعزى ألا تهدأ لها لوعة، أو لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم بن ثابت، وأعطتها قحف رأسه لتشرب فيه الخمر، ثم نذرت لمن يأسره أو يقتله ويأتيها برأسه، أن تعطيه كل ما لديه من مال، فشاع خبر نذرها في قريش، وجعل كل فتى من فتيان مكة يتمنى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت، ويقدم رأسه لسلافة لعله يكون الفائز بكل هذا المال.

يوم الرجيع:

لم يمض غير قليل على أحد حتى انتدب رسول الله - ﷺ - عشرة من كرام الصحابة؛ لبعث لبعض القبائل ليعلموا القوم الإسلام كما طلبوا هم، وأمر عليهم البطل المقدام عاصم بن ثابت رضي الله عنه قاهر الأعداء.

فمضى النفر الأخيار لإنفاذ ما أمرهم به الرسول - ﷺ -، وفيما هم في بعض الطريق بين عسفان ومكة علمت بهم جماعة من هذيل، فهبوا نحوهم مسرعون، وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، فامتشق عاصم ومن معه سيوفهم وهموا بمنازلة القوم، فقال لهم الهذليون: إنكم لا قبل لكم بنا، وإننا أصحاب هذه الديار، وجمعنا كثير غفير، وجمعكم قليل ضئيل، ثم إننا ورب الكعبة، لا نريد بكم شرًا إذا استسلمتم لنا، ولكم على ذلك عهد الله وميثاقه.

فجعل صحابة رسول الله - ﷺ - ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم يتشاورون فيما يصنعون، فالتفت عاصم إلى أصحابه، وقال: أما أنا فلا أنزل في ذمة مشرك،

ثم تذكر نذر سلافة الذي نذرته يوم أحد وجرد سيفه وهو يقول: اللهم إني أدافع عن دينك، فاحم لحمي وعظمي، ولا تظفر بهما أحدًا من أعداء الله.

ثم كر في بطولة نادرة على الهذليون، وتبعه ستة من أصحابه وظلوا يقاتلون القوم حتى صرعوا واحد بعد آخر، وأما الصحابة الثلاثة الآخرون وهم: عبد الله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وحبيب بن عدي - ﷺ - فقد استسلموا لآسريهم، فما لبث الهذليون أن غدروا بهم.

وجاء هذا الخبر في أحسن الأسانيد عند أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب بسنده عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: بعث النبي ﷺ سرية عينا له، وأمَر عليهم عاصم بن ثابت، فانطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق بين عسفان ومكة نزولاً، ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم في قريب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم حتى لحقوا بهم، فلما رآهم عاصم بن ثابت وأصحابه لجئوا إلى فدًفد، وجاء القوم فأحاطوا بهم، وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً.

فقال عاصم بن ثابت - ﷺ - فقال: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم فأخبر عنا رسولك، قال: فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر، وبقي زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى، ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق أن ينزلوا إليهم، فنزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم؛ حلَوا أوتار قسيهم فربطوهم، فقال الرجل الثالث الذي كان معهما - وهو عبد الله بن طارق -: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجروَه، فأبى أن يتبعهم، وقال: إن لي في هؤلاء أسوة، فضربوا عنقه، وانطلقوا بخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة.

ويقول ابن سعد في الطبقات: أن عاصم لم ينخدع بوعود الكفار الذين قالوا لهم: إنا لا نريد قتلكم، وإنما نريد أن ندخلكم مكة فنصيب بكم ثمنًا.

فقال عاصم: إني نذرت أن لا أقبل جوار مشرك أبدًا، وجعل يقاتلهم ويرتجز ورمى حتى فنيت نبله، ثم طاعنهم حتى انكسر رمحه وبقى السيف، فقال: اللهم إني

حميت دينك أول النهار فاحم لي لحمي آخره، وكان هؤلاء الكفرة الفجرة يجردون كل من قتل من أصحابه، ثم قاتل فجرح منهم رجلين وقتل واحدًا وهو يقول:

أنا أبو سليمان ومثلي راما
ورثت مجدي معشرًا كرامًا
أصيب مرثد وخالد قياما

وقال أيضًا:

ما علتي وأنا جلد نابل والقوس فيها وتر عنابل
تزل عن صفحها المعابل والموت حق والحياة باطل
إن لم أقاتلكم فأحي هابل وكل ما حمَ الإله نازل
بالمرء والمرء إليه آيل

وأخذ يقاتل وهو يرتجز ويقول أيضًا:

أبو سليمان وري المقعد وضالة مثل الجحيم الموقد
إذا النواصي افترشت لم أرعد ومجنأ من جلد ثور أجرج
ومؤمن بما على محمد

ظل عاصم بن ثابت يناضل القوم ويرتجز بالشعر حتى شرعوا فيه الأسنة حتى قتلوه.

حماية الله له:

لم يكن الهذليون في بادئ الأمر يعلمون أن عاصم بن ثابت هو أحد قتلاهم، فلما عرفوا ذلك؛ فرحوا به أشد الفرح، ومنوا أنفسهم بجزيل العطاء، ولا غرو ألم تكن سلافة بنت سعد قد نذرت إن هي ظفرت بعاصم أن تشرب في فحف رأسه الخمر؟ ألم تكن قد جعلت لمن يأتيها به حيًا أو ميتًا له كل مالها.

لم يمض على مصرع عاصم بضع ساعات حتى علمت قريش بمقتله، فقد كانت

هذيل تقيم قريبًا من مكة، فأرسل زعماء قريش رسولاً من عندهم إلى قتلة عاصم يطلبون منهم رأسه؛ ليطفئوا بها غلة سلافة ويبرون قسمها، ويخففون أحزانها، وحملوا مالاً وفيرًا، وأمروه رسولهم أن يبذله للهذليين بسخاء لقاء رأس عاصم.

قام الهذليون إلى جسد عاصم ليفصلوا عنه رأسه، ففوجئوا بأسراب النحل قد حطت عليه وأحاطت به من كل جانب، فكانوا كلما أرادوا الاقتراب من جثته طارت في وجوههم، ولدغتهم في عيونهم، فلما يئسوا من الوصول إليه بعد أن بعد حاولوا ذلك الكرة تلو الكرة، قال بعضهم لبعض: دعوه حتى يجني الليل؛ فإن النحل إذا حل الظلام حلت عنه وخلته لكم، ثم جلسوا ينتظرون غير بعيدٍ.

لكنه ما كاد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى تلبدت السماء بالغيوم الكثيفة، وأرعد الجو وانهمر المطر انهمارًا لم يشهد له مثيلاً، وسرعان ما سالت الشعاب وامتلأت البطاح وغمرت الأودية، واكتسح المنطقة سيل كسيل العرم، فلما انبلج الصبح قامت هذيل تبحث عن جسد عاصم في كل مكان، فلم تقف له على أثر ذلك أن السيل أخذه بعيد عنهم، ومضى به إلى حيث لا يعلمون، فلقد استجاب الله عز وجل دعوة عاصم بن ثابت فحمى جسده الطاهر من أن يمثل به، وصان رأسه الكريمة من أن يشرب في قحفها الخمر.

الحارث بن الصمة

في وجه الطوفان:

لقد احتمل الصحابة في صدر الإسلام ما احتملوا، وقاتلوا وقتلوا، فأعز الله لهم دينهم، وأعلى لهم شأن دنياهم، والله ذي الفضل العظيم، منهم الحارث بن الصمة الذي تحصن بالإسلام، واعتصم باليقين، ووقف إلى جوار الرسول الأعظم - ﷺ - وبايعه في صدق وإخلاص على الموت في سبيل الله بلا تردد أو إبطاء.

تغير مسار التاريخ:

كان الحارث بن الصمة رضي الله عنه أحد السبعين العظماء الذين اصطفاهم الله؛ ليغيروا مجرى حياة البشرية، وذلك حين اجتمعوا في يثرب، وقالوا: حتى متى نترك رسول الله - ﷺ - يطرد في جبال مكة هو وأصحابه؟ ثم لم يلبثوا حتى ارتحلوا إليه - ﷺ -، واجتمعوا به ليلاً في شعب العقبة، وبايعوه على أن يهاجر إليهم فيمنعونه وينصرونه حتى يبالغ رسالة ربه ولهم الجنة بذلك.

فكانت بيعتهم هذه نقطة تحولٍ في مسار دعوة الإسلام، فهي نواة تأسيس دولته على أرض المدينة، وكان الحارث بن الصمة - رضي الله عنه - من أحدث الذين شهدوا العقبة سنًا، وحينما خرج النبي - ﷺ - مهاجرًا إلى المدينة، راكبًا ناقته، متوجهًا حيث أمره الله - عز وجل -، أدركه الحارث في جماعة من قومه، وسأله أن ينزل عنده ويقيم، فقال: خلو الناقة فإنها مأمورة، ثم مضى ﷺ حتى نزل دور بني النجار.

في الطريق إلى بدر:

خرج الحارث بن الصمة - رضي الله عنه - إلى بدر الكبرى، ناويًا الجهاد الخالص الصادق مع رسول الله ﷺ وصحبه، عزمًا على الشهادة في سبيل ربه، ولكن إرادة الله تعالى شاءت ولا راد لمشيئته أن تنكسر رجل الحارث في الطريق، عند مكان يسمى الروحاء بين مكة والمدينة، فرده الرسول القائد - ﷺ إلى المدينة -، وضرب له بسهمه وأجره فكان كمن شهدها لصدق نيته.

فقد جاء في الطبقات عند ابن سعد الزهري بسنده عن المسور بن رفاعة عن عبد الله بن مكنف أنه قال: خرج الحارث بن الصمة مع رسول الله - ﷺ - يعني يوم بدر - فلما كان بالروحاء كسر، فرده رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، وضرب له بسهمه وأجره فكان كمن شهدها.

لقد حال القدر بينه وبين لقاء المشركين، وكان حريصًا يتحرق شوقًا للقائهم فيروى سيفه من دمائهم، ويلقي ربه شهيدًا، ولكن هكذا شاء الله.

نفسي دون نفسك:

لما أقبلت أحد، وكأنما أراد الحارث بن الصمة رضي الله عنه فيها أن يعوض ما فاته من القتال والتضحية يوم بدر الكبرى، فأقبل لا يلوى على شيء، يضرب ذات اليمين وذات الشمال، وحينما مال ميزان المعركة ضد المسلمين؛ لحكمة أرادها الله - جل وعلا -، ثبت ابن الصمة إلى جوار قائده سيد الخلق - ﷺ -، ثبت الحارث بن الصمة ضمن ثلاثين بطلاً من عمالقة الصحابة - رضي الله عنهم - ودافعوا عن الرسول القائد - ﷺ - ببطولة وبسالة.

وكل منهم يقول لقائده ونبيه وإمامه ﷺ: وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعليك السلام غير مودع، وأصيب الحارث يومئذ إصابات كثيرة احتملها بشجاعة، وكانت أشدها ضربة أصابت عاتقه، ولذلك قال علي بن أبي طالب شعرًا في هذا المجاهد الثابت:

يا رب إن الحارث بن الصمة كان وفيًا وبنا ذا ذمه
أقبل في مهامه مهمة كليلة ظلماء مدلهمه
بين سيوف ورماح جمة يبغي رسول الله فيما ثمه

وها هو ابن هشام الزهري يحكي لنا موقف آخر له يوم أحد ويقول: لما أشاع المشركون خبر مقتل النبي ﷺ، ففت ذلك في عضد المسلمين، ولكن كعب بن مالك الأنصاري – رضي الله عنه – رأى النبي ﷺ، فنادي بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار النبي ﷺ إلى كعب بن مالك: أن أصمت.

فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، والحارث بن الصمة رضي الله عنهم، ورهط آخر من المسلمين.

فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول: أين محمد، لا نجوت إن نجا، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف إليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه.

فلما دنا تناول رسول الله – ﷺ – الحربة من الحارث بن الصمة، فلما تناول رسول الله – ﷺ – الحربة من الحارث بن الصمة – يقول بعض القوم فيما ذكر لي –: فلما أخذها رسول الله – ﷺ – منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منه عن فرسه مرارًا.

وكان أبى بن خلف يلقى رسول الله – ﷺ – بمكة فيقول: يا محمد، إن عندي العود فرسا أعلفه كل فرقا من ذرة أقتلك عليه، فقال رسول الله – ﷺ –: بل أنا أقتلك عليه إن شاء الله.

فلما رجع أبى بن خلف إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير، فاحتقن الدم فقال: قتلني والله محمد، فقالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك

من بأس، قال: إنه قد كان قال بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني فمات أبى بن خلف بسرف وهم قافلون إلى مكة بعد أحد.

الشهيد القارئ:

ختمت حياة الحارث بن الصمة أعظم ختاما إذا استشهد في بعث بئر معونة، وكان رسول الله – ﷺ – قد أرسله في وفد من المسلمين على رأسه المنذر بن عمرو في سبعين من خيار الصحابة يسمون بالقراء، كانوا يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، وأمرهم رسول الله بالمسير إلى نجد ودعوة أهلها إلى الإسلام استجابة لمطلب أبي البراء عامر بن ملاعب الأسنة حين وفد على النبي – ﷺ – في المدينة، وتعهده بحمايتهم.

وخرج ركب أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة في طريقهم عبر الصحراء إلى نجد ومعهم كتاب الرسول إلى الشاعر عامر بن الطفيل زعيم نجد يدعوه فيه إلى الإسلام، ونزلوا موقعًا يسمى بئر معونة بين أرض بني عامر وأرض بني سليم فعسكروا فيه، وأوفدوا من هناك حرام بن ملحان – رضي الله عنه – يحمل إلى ابن الطفيل كتاب النبي ﷺ، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، بل وثب على حرام وقتله غيلة وغدرًا، ثم استصرخ بني عامر على أصحاب الرسول كي يقتلوهم، فأبوا أن يجيبوه، وقالوا: لن نخفر ذمة أبي براء.

فاستصرخ قبائل من بني سليم، فأجابوه إلى ذلك، وخرجوا في وفرة من العدد والعدة لقتال المسلمين، وكان أصحاب الرسول قد استبطئوا صاحبهم حرامًا، فأقبلوا في أثره، وما أن لقيتهم عصابة عامر ابن الطفيل حتى أحاطت بهم في رحالهم فاستلوا سيوفهم ثم قاتلوا الكثرة الغادرة حتى قتلوا عن آخرهم – إلا كعب بن زيد وعمرو بن أمية –، وكان آخر الشهداء المسلمين الحارث بن الصمة الذي قاتل قتال الأبطال، وأبلى بلاءً حسنًا حتى خر صريعًا ليحلق بإخوانهم الذين سبقوه إلى جنات ربهم.

المنذر بن عمرو

مع السابقين:

كان المنذر بن عمرو يكتب بالعربية قبل الإسلام وكانت الكتابة في العرب قليلة، ولما جاء النبي ﷺ بالرسالة كان من الأنصار السابقين إلى الإسلام والدوحة الربانية، فقد كان ضمن السبعين رجلاً الذين بايعوا رسول الله - ﷺ - بيعة العقبة الكبرى على الموت في سبيل الله تعالى، وأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه، وعلي السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذه كلها بنود البيعة فإن وفوها، كان جزاؤهم الجنة.

نقيب الخزرج:

كان تلك البيعة في مكة في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية، وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله - ﷺ - انتخاب اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، وتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاث من الأوس، وكان أحد النقباء الخزرج الصحابي الجليل المنذر بن عمرو.

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم ﷺ ميثاقًا آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين، وقال لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المهاجرين - قالوا: نعم.

في استقبال الحبيب:

لما هاجر النبي - ﷺ - إلى المدينة كان المنذر أحد الذين تعرضوا لناقة النبي - ﷺ - وهي تدخل في شوارع المدينة، وتعلق المنذر بخطامها وطلب من رسول الله - ﷺ - أن ينزل في ضيافته، ولكن رسول الله كرر كلمته المأثورة: دعوا الناقة فإنها مأمورة.

في ساحات الوغى:

نال المنذر بن عمرو الشرف الأسمى حين شهد بدر الكبرى، حيث ظهر فيها إخلاصه لله تعالى، ومبادرته إلى موطن الابتلاء والشهادة، وكان المنذر يقال له المعنق ليموت - أي المسرع إلى طلب الشهادة والموت في سبيل الله -، وهو لقب غلب عليه وشهر به، وفي يوم أحد كان المنذر كالطود الشامخ في قتال التحالف الوثني فقد أبلى بلاءً عظيما، ولقد أصيب إصابات بالغة لكنها كان دون غايته، وفي كارثة بئر معونة جعله الرسول القائد - ﷺ - أمير على القراء، وكان من أمرها:

إن أبا البراء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، لرجوت أن يستجيبوا لك فقال النبي - ﷺ -: إني أخشى عليهم أهل نجد، فقال أبو البراء: أنا لهم جار فابعثهم، فليدعو الناس إلى دينك فبعث رسول الله سبعين رجلاً من أصحابه وجعل عليهم المنذر بن عمرو - وقيل عاصم بن ثابت -.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة إلى الجنوب الشرقي من المدينة بين حرة بني سليم، ومنازل بني عامر فلما نزلوها أرسلوا كتاب رسول الله - ﷺ - إلى الشاعر عامر بن الطفيل العامري، فلما جاءه حرام بن ملحان وسلمه كتاب رسول الله - ﷺ - قتله دون أن ينظر ما فيه، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فلم يطيعوه إلى قتال الباقين؛ لأن أبا البراء ملاعب الأسنة أجارهم.

فاستغات عليهم بني سليم فنهضت معه قبائل من عصية، ورعل، وذكوان، فخرجوا حتى غشوا المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب، إحاطة السور بالمعصم، ووضعوا فيهم سيوفهم، فأمر المنذر رجاله بالقتال، ووقفوا أمام قرابة ألف مقاتل يدفعون البأس بالبأس، لا ترهبهم كثرة ولا عدة، لقد علموا أنهم يدفعون ضريبة الإيمان تحت ظلال السيوف، فأقبلت عليهم رياح الجنة من كل جانب تدعوهم إليها شهداء صالحين.

لقد تذكروا عهد الله ورسوله أن يعيشوا لدعوة الحق ويموتون في سبيلها، ولقد جاءهم أوان الصدق ليتبوءوا مقاعد الصدق عند مليك مقتدر، دارت الحرب حامية الوطيس، وصار أصحاب النبي - ﷺ - يحصدون من أعدائهم وراح القتلى يتساقطون من الفريقين كليهما في كثرة كاثرة، وانقذف المنذر في صفوف القوم في استبسال لم تألفه الدنيا من قبل، ووسط شهداء المعركة كان هناك المنذر تعلو وجهه ابتسامة هانئة كضوء الصبح، وتقبض يمناه على حثية من تراب مضمخة بدمه الطهور، وسيفه ممدد إلى جواره.

لقد قاتل المسلمين حتى قتلوا جميعًا، ولم ينج منهم أحد سوى كعب بن زيد سقط جريح بين الموتى ثم صحا ولحق بربه شهيد يوم الخندق، كما نجا رجلان منهم، كان يرعيان للقوم هما: عمرو بن أمية، والمنذر بن محمد، ولم يعرفا مصرع القوم إلا من الطير، فاتجهوا نحو المكان، فإذا إخوانهم جميعًا صرعى، وأعداؤهم لا يزالون في أماكنهم، فقال المنذر بن محمد لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله - ﷺ -؛ فنخبره الخبر، فقال المنذر بن محمد: لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، ثم دخل في صفوف العدو فتناوشته السيوف حتى خر صريعًا، أما عمرو وقع أسيرًا لكنه استطاع أن يفلت من الأسر، وعاد إلى المدينة.

حرام بن ملحان

فزت ورب الكعبة

إن حديثنا في هذه الصفحات عن علم من أعلام الصحابة، ومجاهد ممن أقاموا للأمة صرح دولتها، ومع ذلك لا يعرف الكثير منا شيئًا عن حياته وسيرته، من أجل ذلك طفت في بستان حياة الصحابة الأبرار - ﷺ -، فقطفت زهورًا من حياته لنستنشق عبيرها، ونتعرف عليه من خلالها،، نحن نلتقي مع التقى المؤمن، والصابر المحتسب حرام بن ملحان ﷺ

في رحاب المجد:

هو حرام بن مالك - ومالك هذا هو ملحان - بن خالد بن عدي بن النجار الأنصاري، كتب حرام بن ملحان ﷺ بمداد الفضائل أجمل مكارم المجد في صحائف محاسن الخصائل، فكان من الصحابة الذين تُتْلى شمائلهم في المحافل، فقد جمع حرام المجد من كل طرف.

فأمه هي: مليكة بنت مالك بن عدي - ﷺ - أسلمت وبايعت، وكان لها مواقف جليلة مع رسول الله - ﷺ - وأصحابه، منها ما أورده الإمام البخاري - رحمه الله - بسنده عن أنس بن مالك - ﷺ - أن جدته مُليكة ﷺ دعت رسول الله - ﷺ - ذات يوم لطعام صنعته فأكل منه، ثم قال رسول الله - ﷺ -: قوموا فلأصلي لكم؛فقمت إلى حصير لنا قد أسودَ من طول ما لبس فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله - ﷺ - فقمت أنا واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا، فصلى بنا رسول الله - ﷺ - ركعتين ثم انصرف.

أما أخته هي: أم سليم الرميصاء بنت ملحان - ﷺ - وقد ترجمنا لها في كتبنا

صور من حياة الأنصاريات - كانت مؤمنة راسخة الإيمان، عاقلة وافرة العقل، زوجًا وأمًا من الطراز الأول، وكانت فوق ذلك كله مجاهدة في سبيل الله، فلكم ملأت رئتيها من غبارِ المعارك العبق بطيوب الجنة، وخطبت أناملها من جراح المجاهدين، وهي تمسحها بيديها وتحكم عليها الضَماد، ولكم سبكت الماء في حُلُوق العطاش وهم يجودون بنفوسهم في سبيل الله، وحملت لهم الزَاد، وأصلحت السهام.

وأخته الأخرى هي: الصحابية الشهيدة أم حرام بنت ملحان؛ زوج عبادة بن الصامت - ﷺ - التي أخبرها رسولنا - ﷺ - أن من أمته أناسًا يركبون البحر مجاهدين في سبيل الله كالملوك على الأسرة، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم، وحقق الله نبوءة رسوله، واستشهدت في معركة غزو قبرص.

أما ابن أخته؛ فهو: الفدائي الشهيد البراء بن مالك بن النضر، هو الذي قالت عنه كتب السير والتراجم: إنه أحد فضلاء الصحابة الأنصار، وأحد السادة الأبرار الذين يضرب بهم المثل في الفروسية، والذي قتل من الأعداء المشركين مائة في مواطن المواجهة والمبارزة، ولا عجب في ذلك فهو البطل الكمي الباسل الذي كتب الفاروق بشأنه إلى عماله في الآفاق: ألا يولوه على جيش من جيوش المسلمين خوفًا من أن يهلكهم بإقدامه.

أما ابن أخته الآخر؛ فهو: خادم الرسول أنس بن مالك بن النضر، الذي قيل في حقه كان أحسن الناس صلاة في الحضر والسفر، وأشبه الرجال بصلاة رسول الله، كان ﷺ لبيبًا حقًا، يرى ببصيرته أكثر مما يرى ببصره؛ لهذا حمل من العلم ما لا يحمله أكابر الرجال المقربين إلى الرسول - ﷺ - وذلك لكثرة ملازمته له في بيته وفي مسجده وفي غزوته كلها.

بئر معونة:

كانت أحداث هذه القصة في صفر من العام الرابع الهجري، وقصة هذه الوقعة كما يقصها أصحاب السير: أن أبا براء عامر بن مالك الذي كان يلقب

بملاعب الأسنة جاء إلى النبي – ﷺ –؛ فعرض عليه الإسلام، فلم يُسلم ولم يبْعد الإسلام، وقال: يا رسول الله، لو أرسلت بعض أصحابك إلى أهل نجد لرجوت أن يجيبوهم، فقال النبي – ﷺ –: إني أخاف عليهم أهل نجد: فقال أبو براء: أنا لهم جار.

هنا اختار النبي – ﷺ – سبعين رجلاً من الأنصار – وفي رواية أنهم أربعون رجلاً –، يقال لهم القراء.

كانوا يقرءون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه بالمسجد ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء.

فبعث النبي – ﷺ – هؤلاء الأبرار الأطهار إلى نجد، وكان أميرًا عليهم المنذر بن عمرو أحد رجال بني ساعدة، وكان من فضلاء المسلمين وساداتهم، وسار القوم حتى وصلوا ناحية بئر معونة، وهي أرض بين بني عامر وبني سليم، فنزلوا هناك.

وقرر القوم أرسل كتاب للشاعر الشهير عامر بن الطفيل يعرضوا عليه الإسلام، فاختاروا حرام بن ملحان – رضي الله عنه – لهذه المهمة، فانطلق حرام بن ملحان – رضي الله عنه – نحو هدفه لإبلاغ هذه المهمة واستأمن من القوم فأمنوه.

فلما دخل حرام على عامر بن الطفيل وكان يحمل في قلبه حقد عظيم على النبي – ﷺ – وعلى أصحابه، فأخذ الكتاب لكنه لم ينظر فيه، وأومأ إلى أحد رجاله فطعن حرام من الخلف، وكان ذلك بعد أن ظفر بأمانهم، فكانوا بذلك بئس القوم الخونة الغادرون.

قال حرام بن ملحان بعد أن أحس بالطعنة من الخلف: فزت ورب الكعبة، وأخذ دمه على يده فنضحه على وجهه ورأسه.

لم يكتفِ عامر بن الطفيل بهذا الغدر، بل قام هذا الخائن بما هو أكبر، إذا استعدى على القراء من أصحاب النبي – ﷺ – بقومه بنو عامر فأبوا ذلك، وقالوا: أنهم في ذمة أبو البراء ولا نخفر ذمته فيهم.

هنا استعدى عليهم بنو سليم فأجابتهم منهم عُصية ورعل وذكوان، فجاءوا من كل حدب حتى أحاطوا بالقراء من كل جانب وهم في رحالهم، فلما رأوهم قاموا إلى سيوفهم؛ فقاتلوا حتى قتلوا جميعًا، فقالوا: اللهم بلغ عنا نبيك أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا.

يقول أنس بن مالك ﷺ: نزل جبريل عليه السلام على النبي - ﷺ - فأخبره أن القوم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم.

وفي رواية أخرى يقول أنس: كنا نقرأ: أن بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا، قال: ثم نسخ ذلك بعد، فدعا رسول الله - ﷺ - ثلاثين صباحًا على رعل وذكوان وبني لحيان وعصية الذين عصوا الله وعصوا رسوله.

يروى ابن سعد في الطبقات ويقول: من سره أن يشهد على قوم أنهم شهدوا فليشهد على هؤلاء، وقد استشهد حرام بن ملحان وأخيه سليم في هذه المأساة.

وقد جاءت رواية أخرى في مقتل حرام بن ملحان - ﷺ - في الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة: أنه - ﷺ - ارتث في هذه الموقعة - أي أنه حمل جريح ولم يقتل -.

فقال الضحاك بن سفيان الكلابي - وكان رجلاً مسلمًا يكتم إسلامه - لامرأة من قومه: هل لك في رجل إن صح فإنه سيكون نعم الراعي؟ فأخذته، فضمته إليها، وعالجته، فسمعته ذات يوم يقول:

أتت عامر ترجو الهـوادة بيننا وهل عامر إلا عـدوَ مداجن؟
إذا ما رجعنا ثم لم تك وقعة بأسيافنا في عامر ونطاعن
فلا ترجونًا أن يقاتل بعدنا عشائرنا والمقربات الصوافن

فأخبرت قومها بما قاله حرام فوثبوا عليه فقتلوه.

ورواية هنا ذكرت في المراجع الثلاث بلا سند، والخبر الأول هو الأصح أنه قتل طعنا بالرمح من الخلف، وهو يؤدى الرسالة، وقال: فزت ورب الكعبة،

وهذا دليل آخر على صحة الرواية الأولى، جاء على لسان جبار بن سلمى قتل حرام بن ملحان نفسه، فما هي القصة، هذا ما سنعرفه في السطور القادمة:

قصة إسلام قتله:

تعالوا بنا لنتعايش مع القصة كما جاءت في كتب الأحاديث والسير: فقد بعث رسول الله – ﷺ – نفرًا من أصحابه على طلب ملاعب الأسنة؛ ليدعو قومه إلى الإسلام، وكانوا سبعين رجلاً من خيار الصحابة، وكان في هذه السرية حرام بن ملحان – رضي الله عنه –، قتله أحد المشركين، وهو جبار بن سلمى وكان مستبعدا أن يُسلم لشدة حقده على الإسلام، ولكنه أسلم قريبًا، فاستغرب الناس، وسألوه عن سبب إسلامه، وكان قبل ذلك يحرض على قتال المسلمين، فقال:

إن قصة إسلامي أنني واجهت حرام بن ملحان، وكان شيخا كبيرًا فطعنته برمح بين كتفيه، ونظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، يتلقى الدم بيديه ويمسح به وجهه ورأسه ويقول: فزتُ ورب الكعبة، قلت ما معنى هذا يا رجل؟ كيف تفوز، وأنت مقتول.

كان جبارا يقول في نفسه هل أنا في حلم أم هذا الرجل كاذبٌ؟

والإنسان يا أخوة لا يكذب عند الموت، وإذا كان يكذب في بعض الأحيان في حياته، فعند الموت لا يكذب، وما جرب على العرب الكذب عند الموت.

وكان جبار بن سلمى حق في أن يستغرب ويحار، ويقول في نفسه طعنت رجلاً برمح، ودخل الرمح من جانب وخرج من جانب وخر صريعًا يشحط في دمه، ويلفظ نفسه الأخير، ثم يقول: فُزت ورب الكعبة.

إنه أيقن أن زوجه ستكون أرملة، وأبناؤه سيكنون أيتامًا، إنه حُرم كل لذة في الدنيا، فلا شراب، ولا طعام، ولا نور شمس، ولا ضوء قمر، ولا حديث ولا سمر، وليس له إلا حفرة قبر، فما هذا الفوز؟!

فقال: وهو في آخر رمق له إنها الشهادة، وإنها جنان.

فسألت بعض المسلمين عن قوله، فقالوا: الشهادة، إنه كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ويعرف ما يفوز به الشهيد من السعادة ورضا الرحمن، ولقد شاهد نعيم الجنة، كأنه يراها بعينيه، فقال: فزت ورب الكعبة، قلت فاز لعمر الله، وأسلمت لله رب العالمين.

عامر بن فهيرة

مع السابقين:

كان عامر بن فهيرة – رضي الله عنه – من السابقين إلى الدوحة الربانية، وقد أسلم قبل أن يدخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دار الأرقم، كان واحد من المعذبين في سبيل الله عز وجل، فهو بذلك يلمع في قائمة الأوائل من سجل المؤمنين السابقين.

الصابر على البلاء:

كان عامر – رضي الله عنه – من الذين ضربوا المثل في الصبر والمصابرة، فلقد كان من المستضعفين في الأرض وكان من الذين صب عليهم كفار قريش ألوانًا من العذاب، وعلى الرغم من ذلك كان ثبت بإيمانه ويقينه ثبات الجبال الرواسي إلى أن اشتراه الصديق أبو بكر وأعتقه لوجه الله تعالى خوف عليه من أن يفتن في دينه.

دوره في الهجرة:

في يوم الهجرة اشترك عامر بن فهيرة – رضي الله عنه – مع أسرة الصديق في خدمة المهاجرين العظيمين، وهما مختبئان في الغار، وللأسف يمر المؤرخون على دور عامر بن فهيرة في الهجرة مروراً عابراً، وبرغم ما يستحقه من وقفة اهتمام وتقدير، فلم يكن آخر الأدوار ولا أقلها شأنًا في الهجرة، بل كان حلقة قوية من حلقاتها، وعنصرًا أساسيًا من عناصرها، اقتضاهما حسن التنظيم، واختيار الرجل المناسب لهذا الحدث الخطير.

لقد كانت المهمة التي عهد بها إلى عامر مهمة مزدوجة أن يرعى غنم الصديق نهارًا، فإذا أمسى؛ قصد إلى الغار واحتلب للنبي - ﷺ - وصاحبه وذبحا - شربًا من لبنها وأكلا من لحمها - وأن يتبع بالغنم مسار عبد الله بن أبي بكر بعد عودته من غار ثور إلى مكة فيعفي على ما تركته أقدامه من آثار في رمال الصحراء.

أما الشق الثاني من دوره وهو طمس آثار عبد الله فتبدو أهميته إذا ذكرنا مدى شهرة العرب قديمًا بقص الأثر، وما كان يتحمل من ضرر للرسول - ﷺ - والرسالة لو لم يكن هناك من يؤدي بكفاءة هذا الدور ولا سيما أن قريشًا جُن جنونها بعد أن علمت بخروج النبي - ﷺ - والصديق من مكة فحشدت كل ما في وسعها من وسائل بشرية ومادية وغيرها مثل اقتفاء الأثر للظفر بهما، وبالتالي الحيلولة بين الرسول - ﷺ - وبلوغ المدينة، وتحقيق هدفه في اتخاذها دارًا ومنبرًا للإسلام بعد أن يئس من مكة.

ومن ثم كانت مهمة عامر بن فهيرة بشقيها أمرًا لا غنى عنه ولا بديل له، وكان عامرا يمثل الشخصية المناسبة لتلك المهمة، فهو مولى الصديق وموضع ثقته، وهو مهيأ بطبيعته وبحكم ظروفه ونشأته وخبرته للقيام بهذا العمل، مما يجعله أصلح له من غيره.

الصاحب الثالث:

يروي لنا ابن عبد البر في كتابه الدرر في اختصار المغازي والسير: إن عبد الله بن أريقط أتى رسول الله وصاحبه براحلتيهما بعد خروجهما من الغار فركباها، وأردف الصديق عامر بن فهيرة على رحلته.

ويستدل من هذه الرواية على أن عامرا قد صحب الرسول - ﷺ - وأبا بكر في رحلتهما إلى المدينة، وهي صحبة تضع الرجل في منزلة لا تدانيها منزلة مما يشهد له بالفضل والسبق، ومفهوم بداهة أن عامر لم يكن ليحظى بهذا الشرف لولا ما

عرف به لدي الرسول الأعظم - ﷺ - والصديق من قوة العقيدة والاستعداد للتضحية والقدرة على التحمل، فضلاً عن الإخلاص والوفاء.

في ساحات الوغى:

لقد كان عامر بن فهيرة - رضي الله عنه - واحد من فرسان الرسول - ﷺ - الذين كُتب لهم شرف الجهاد في معيته - ﷺ - فقد شهد العراك في بدر وأبلى فيه بلاءً حسنًا، وكتبا من أهل بدر، وما أدراك ما أهل بدر، وشهد كذلك معركة أحد، وكان له فيها البلاء المحمود المشكور.

وقد كان رضي الله عنه يعيش في سعادة غامرة بجوار النبي - ﷺ - يتعلم من هديه وأخلاقه العذبة الفياضة، ومن سُنته المطهرة ما تزكى به نفسه، ويسعد به قلبه في الدنيا والآخرة حتى جاءت السنة الرابعة للهجرة، وفيها كان المشهد الختامي لحياة هذا العملاق العظيم، واختصار القصة:

لقد جاء إلى المدينة الرسول في صفر من السنة الرابعة للهجرة أبو براء عامر بن مالك المعروف «بملاعب الأسنة» قدم ودخل على رسول الله - ﷺ - في المسجد فعرض عليه الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد عن الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك؛ لرجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، فقال عامر: أنا لهم جار؛ فابعثهم.

فبعث رسول الله - ﷺ - سبعين من أصحابه، وجعل عليهم المنذر بن عمرو، وفيهم الحارث بن الصمة، وعامر بن فهيرة، وحرام ابن ملحان وغيرهم من أعلام جيل السماء، فساروا حتى نزلوا بئر معونة إلى الجنوب من المدينة بين حرة بني سليم، ومنازل بني عامر فلما نزلوها أرسلوا كتاب رسول الله - ﷺ - إلى عامر بن الطفيل الشاعر المعروف، فلما جاءه حرام ابن ملحان، وسلمه كتاب رسول الله قتله دون أن ينظر إلى ما فيه.

ثم استصرخ عليهم بني عامر قومه، فلم يطيعوه إلى قتل الباقين؛ لأن أبا براء أجارهم، فاستصرخ عليهم بني سليم فنهضت معه ومعهم بعض القبائل، فخرجوا حتى خشوا المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم، ووضعوا فيهم سيوفهم، فاستل المسلمون سيوفهم، ووقفوا أمام ما يقربُ من ألف رجل يدفعون البأس بالبأس لا ترهبهم كثرة ولا عدة.

فدارت الحرب حامية الوطيس وصار أصحاب النبي يحصدون من أعدائهم قدر ما يحصدون منهم، وقاتلوا حتى قتلوا جميعًا لم ينج منهم أحد سوى كعب بن زيد - رضي الله عنه - قد سقط جريح بين الموتى، ثم صحا بعد مدة وسار حتى لحق بالمدينة، وشهد الخندق واستشهد فيها.

دفين الملائكة:

كان ممن ذاق شراب الشهادة يومئذ بطلنا المجاهد عامر بن فهيرة طعنه رجل يسمى جبار بن سلمى الكلابي، فقال عامر حينما أصابته الضربة القاتلة: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، واستمع جبار القاتل إلى العبارة التي رددها عامر الشهيد فلم يفهم معناها، لماذا قال: الله أكبر؟ وأين الفوز الذي فاز به وهو مقتول؟ ألم يترك الأهل والأحباب والأولاد؟! ألم يترك الأموال؟! ألم يذق الموت، ويترك الحياة إلى التراب؟!

وذهب الرجل يسأل بعض المسلمين: فقيل له إن عامرًا يقصد بقوله هذا أن الله قد أكرمه حينما مات رزقه نعمة الشهادة في سبيله، وأنه سيفوز بنعيم الجنة في الدار الآخرة، وانبهر جبار من هذا اليقين المسيطر، وهذا الإيمان الراسخ، وأخذ يفكر ويفكر، وكأن عامرًا يطل عليه دائمًا من عالم الخلد، ويشير إليه بأصابع نورانية، ويقول له بصوت فيه روعة السماء وهيبة الآخرة: يا جبار أقلع عن كفرك وعنادك

إن الباب مفتوح أمامك فادخل في دين الله تبارك وتعالى تكن من الفائزين، وشرح الله صدر جبار للإسلام؛ فاهتدى وأعلن إسلامه.

وعن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: رفع عامر بن فهيرة إلى السماء فلم توجد جثته يرون أن الملائكة وارته.

وفي رواية أخرى يقول عمرو بن أمية - رضي الله عنه -: لقد رأيت عامر بعد ما قتل قد رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إليه بين السماء والأرض.

الحارث بن حاطب

من هو الحارث بن حاطب:

أسلم الحارث مع السابقين من أُسود الأنصار قبل أن يهاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة المنورة الهجرة التي غيرت مجرى التاريخ، وقد داعبت نسمات الإيمان قلبه، فأوجدت منه رجلاً يعتز به الإسلام، ويفتخر به الأنصار، بل المسلمون جميعًا على مر الزمان والقرون.

عرف الحارث الحق منذ أن صافحت سمعه شهادة التوحيد، ومنذ أن خرجت من قلبه شهادة الإيمان، فأصبحت مسيرته في الحياة واضحة كالشمس في رابعة النهار، وأضحي مشهورًا بنقاء السيرة، وصفاء السريرة.

موعد مع السعادة:

لما أرسل الحبيب - ﷺ - مصعب بن عمير - رضي الله عنه - إلى المدينة المنورة؛ ليدعو أهلها إلى الإسلام؛ وليعلمهم شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن، أصابت تلك الدعوة المباركة قلبًا طاهرًا ألا وهو قلب الحارث بن حاطب الذي استجاب لنداء الحق مع أول آية يسمعها من مصعب بن عمير فأسلم في التو واللحظة، ولم يتلعثم أو يتلكأ عن الاستجابة لأمر الله، بل وذهب على الفور إلى أمه أمة بنت صامت الأوسية فأسلمت على يديه، وكذلك أسلم على يديه أخيه ثعلبة بن حاطب، ولم يبقَ أحدٌ من أهله إلا وأسلم لله ربه.

كان الحارث بن حاطب منذ ذلك الوقت في أشد الشوق والحنين لرؤية الحبيب - ﷺ - الذي بعثه ربه ليخرج به الناس من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان، ولما أذن الله لحبيبه ﷺ بالهجرة إلى المدينة اهتز قلب

الحارث بن حاطب فرحًا بقدوم الحبيب ﷺ وقام لاستقباله وهو يشعر أنه قد حاز الدنيا بكل ما فيها.

ظل الحارث بن حاطب - رضي الله عنه - ملازمًا للحبيب - ﷺ - يتعلم على يديه ويقبس من هديه وعلمه وأخلاقه، حتى جاءت بدر الكبرى.

قصته في بدر:

لما نادي منادي الجهاد يا خيل الله اركبي ك؛ ان الحارث بن حاطب - رضي الله عنه - من المسارعين للذود عن حياض الإسلام، وأعد عدته لذلك، وخرج مع المسلمين في طريقه إلى بدر، ولكنه حين وصل إلى منطقة الروحاء رده النبي ﷺ إلى بني عمرو بن عوف في مهمة دبلوماسية خطيرة، فانصاع لأمر النبي - ﷺ - وقام بالمهمة.

وقد ضرب النبي - ﷺ - له بسهمه وأجره، فكان كمان شهدها، وكان شأنه في ذلك شأن بعض أصحاب النبي - ﷺ -، الذين وكلت إليهم بعض المهام الضرورية فلم يشهدوا القتال، ولكنهم كمن شهدها.

ومن هؤلاء عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، الذي شغله مرض زوجته رقية بنت النبي - ﷺ - عن الخروج إلى بدر، وماتت في أثناء المعركة، وضرب النبي - ﷺ - له بسهمه وأجره.

ومنهم كذلك أبو لبابة الأنصاري الذي رده النبي - ﷺ - أيضًا من الروحاء وخلفه على المدينة، وضرب له بسهم وأجر.

ومنهم كذلك طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد رضي الله عنهما بعثهما النبي - ﷺ - يتحسسان خبر عير قريش، فخرجا ولم يعودا إلا بعد المعركة، فضرب لهما النبي - ﷺ - بسهميهما وأجرهما؛ لأنهما كانا في مهمة استطلاعية تتعلق بأمور القتال.

ومنهم كذلك عاصم بن عدى العجلاني الذي خلفه النبي - ﷺ - على أهل العالية وضرب له بسهم وأجر.

وقد ذكر الرواة والمحدثون أن الذين تخلفوا عن بدر لأعذار واحتسبوا كأنهم حاضرون، وأخذوا أجرهم وأسهمهم ثمانية رجال منهم هؤلاء الذين ذكرناهم.

ويضاف إليهم رجلان آخران هما الحارث بن الصمة كسر بالروحاء وخوات ابن جبير كسر أيضًا، لقد حال بينهما وبين شهود المعركة التي كانا يستعدان لها ويتهيآن للخروج فيها حائلاً شديدًا هو الكسر، فلم يمنعهما ذلك من أن يأخذ كل منهما سهم وأجر، وهذا هو عدل الإسلام الذي يعتبر أن الأعمال بالنيات، وأن لكل امرئ ما نوى، وكثيرًا ما تكون نية المرء خيرًا من عمله.

أمير يوم أحد:

لما جاءت موقعة أحد كان الحارث بن حاطب من المسارعين إليها، وكان له فيها غناء مشكور، وسعى محمود، فقد كان في قلب الجيش الإسلامي بجوار النبي - ﷺ -، وعندما حلت الهزيمة بالمسلمين كان الحارث بن حاطب ممن ثبت حول الرسول - ﷺ -، وممن بايعه على الموت، وظل يدافع عنه حتى لم يبق في جسده موضع إلا به ضربة سيف، أو رمية سهم، أو طعنة رمح.

وجاء يوم الخندق:

ثم جاءت موقعة الخندق التي تألبت الأحزاب فيها من كل جانب على المدينة؛ أكثر من عشرة آلاف مقاتل زحفوا من مكة ونجد وغيرهما من مختلف الجهات، ولكنهم وجدوا المسلمين قد حفروا أمامهم خندقًا حال بينهم وبين اقتحام المدينة.

ولم تجد محاولاتهم المستميتة في اقتحام الخندق شيئًا، فقد كان أبطال الإسلام المدججين بالسلاح على أهبة الاستعداد في استقبال المغامرين منهم، المغرورين بأنفسهم فكانوا يجندلونهم عن خيولهم ويقتلونهم شر قتلة، كما حدث لعمر بن عبد ود الذي كانوا يعتبرونه بطل الأبطال، وفارس الفرسان.

فقد سولت له نفسه أن يقتحم الخندق من نقطة وجدها ضعيفة وفي حماية من

كوكبة فرسان المشركين، وأخذ ينادي: من يبارز؟ من يبارز؟ فخرج إليه صنديد الإسلام وأسد الله الغالب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأورده حتفه في أقل من غمضة عين، ثم ولى المشركون الأدبار.

ثم لم يلبثوا أن أرسل الله عليهم ريحًا باردة شديدة عاصفة قوضت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وزلزلت أركانهم، وأثارت الرعب في قلوبهم، فولوا سراعًا هاربين.

وبعد هذا المعركة الفاشلة التي جمعت فيها قريش والأحزاب ومن ورائهم اليهود جموعهم لم تقم لهؤلاء الأعداء قائمة، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: الآن تغزون قريش ولا تغزوكم.

شهيد خيبر الباسل:

تمضي الأيام وجاءت السنة السابعة للهجرة واليهود لا يكفون لحظة عن إثارة القلاقل، ونصب المكائد، وتحريض على الإسلام ورسول الإسلام، ولم يكتفوا بخيانتهم الكبرى يوم حصار الأحزاب، هنا قرر الرسول القائد - صلى الله عليه وسلم - استئصال شأفتهم من المدينة، وتحرك في أول محرم من السنة السبعة إلى معاقل اليهود في خيبر.

وأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله.

كان الحارث بن حاطب - رضي الله عنه - واحد من جنود الله في هذه المعركة الطاحنة، فقد كان الحارث - رضي الله عنه - حريصًا كل الحرص على الجهاد في سبيل الله، عزم كل العزم على الاستشهاد في سبيل ربه، واضعًا بذلك روحه على كفه، راغبًا في الشهادة لا العودة مرة أخرى إلى داره، وكأن الله تعالى قد علم رغبته وصدق نيته

في الشهادة، فكان أحد الشهداء.

وكان استشهاده في خيبر غدرًا وخيانة من اليهود، لأنهم ما تعودوا أن يقاتلوا أعداءهم مواجهين لهم فهم أجبن من ذلك، ولكنهم كانوا كما وصفهم الخالق سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: 14).

لقد رماه رجل من فوق الحصن فدمغه، فكان في ذلك شهادته، وتحقق للحارث أمنيته التي ظل يحلم بها قرابة عشرة أعوام منذ أن صافح يد الحبيب - ﷺ - يوم البيعة الكبرى في العقبة.

بشر بن البراء

في رحاب المجد:

تخفق أنسامٌ منعشة من سيرة هذا الشاب الكريم، فهو من الأنصار الفضلاء، والنجب النبلاء، الذين آووا المهاجرين ونصروهم وآثروهم على أنفسهم، ولمَ لا فهو سليل عائلة مباركة من أعظم عائلات الأنصار في الإسلام، وقبل أن نتعرف على سيرة الشهيد المسموم بشر بن البراء تعالوا بنا؛ لنتعايش قليلاً مع عائلة هذا الشاب الفدائي؛ لنرى كيف وصل بشر لهذه المكانة الكبرى:

أما أبوه؛ فهو: الصحابي الجليل البراء بن معرور بن صخر الخزرجي الأنصاري ابن عم سعد بن معاذ، ونقيب قومه بني سلمة، وأول من بايع ليلة العقبة الأولى على أرجح الأقوال، كان فاضلاً تقيًا، فقيه النفس، له كلامٌ نفيسٌ يشهد له يوم بيعة العقبة، ومنزلته سامية عند الخزرج، وكلمته مسموعة لديهم، فهو سيدٌ نقيبٌ، ويحق له الفخر بذلك، وهو أول من استقبل القبلة حيًا وميتًا، وعندما حضرته الوفاة أوصى بثلث ماله للنبي - ﷺ - يضعه حيث شاء، وكان موته قبل قدوم الحبيب المصطفى - ﷺ - إلى المدينة المنورة بقليل، ولكن النبي ﷺ هو من صلى عليه، وكان بذلك أول من مات من النقباء، وأول من استقبال الكعبة عند موته، وأول من صليَ عليه النبي - ﷺ - حينما قدم المدينة، وأول من دفن في البقيع من أصحاب الرسول.

أما أمه؛ فهي: الصحابية الصابرة خليدة بنت قيس - رضي الله عنها -، كانت أم بشر امرأة صادقة الشيم، سابقة بالكرم، ذات تقي وصلاح، وذلك تبوأت منزلة سامية، ومكانة كبرى بين نساء الأنصار، وكان لها مساحة لا بأس بها في واحات

نساء الصحابة وأمهاتهم، كما أن لها مقالة مسموعة، ومواقف محمودة أيام عصر النبوة، ولها مناقب نادرة بين نساء الصحابة، أسلمت مع ذويها في المدينة النبوية قبل الهجرة، ولها منقبة باهرة؛ ففي بيتها نزل الأمر الإلهي بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، وهي كذلك ممن روى الحديث عن النبي - ﷺ -.

أما أخوه؛ فهو: الصحابي المجاهد مبشر بن البراء، شهد الحديبية، وبيعة الرضوان، وكل المشاهد بعد ذلك، له صولات وجولات في المغازي النبوي مع الحبيب - ﷺ -، ومن بعده في الحروب الردة، وفتوح الشام، التي أغلب الظن قتل في أحد منها.

أما أخواته البنات؛ فهن: هند، وسلافة، والرباب، وكلهن أسلمن وبايعن رسول الله - ﷺ -، وكان لهم الآثار البيض، والسُؤدد الظاهر، والمجد الباهر في المجتمع النسوي في عهد النبوة.

مع السابقين:

أسلم بشر بن البراء مع أبيه على يد مصعب بن عمير في المدينة قبل هجرة النبي - ﷺ -، ثم شهد مع أبيه بيعة العقبة الكبرى، وبعد موت أبيه البراء بقي مع النبي - ﷺ - لا يفارقه كالظل في واضحة النهار، ينهل من علمه وأخلاقه، ويشهد معه كل مشاهده، فقد كان من الرماة المشهورين، ولم تفته غزوة مع قائده رسول الله - ﷺ - حتى لقي ربه شهيدًا مسمومًا يوم خيبر.

عند أحد:

في يوم أحد لما ارتبكت صفوف المسلمين بعد نزول الرماة من أماكنهم، ثبت طائفة مع الرسول القائد ﷺ يحيطون به، ويصدون عنه، منهم بشر بن البراء، ولكنهم أجهدوا من طول القتال وشدته إجهادًا شديدًا، فألقى الله عليهم النعاس، لتستريح أبدانهم، وتهدأ نفوسهم، وها هو ذا الزبير بن العوام - رضي الله عنه -

يصف المشهد قائلاً: لقد رأيتني مع رسول الله - ﷺ - حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره.

ويقول أبو اليسر الأنصاري - رضي الله عنه -: لقد رأيتني يومئذ في أربعة عشر رجلاً من قومي إلى جنب رسول الله - ﷺ -، وقد أصابنا النعاس أمنة منه، ما منهم رجلاً إلا يغط غُطَيطًا، ولقد رأيت سيف بشر بن البراء سقط من يده وما يشعر به، وأخذ بعد ما تثلم، وإن المشركين لتحتنا.

الشهيد المسموم:

دارت الأيام ببشر ابن البراء حتى جاءت السنة السابعة من الهجرة حيث خرج الرسول القائد - ﷺ - بجيشه لغزو يهود خيبر الذين هاجموا المسلمين في كل موطن، وحاصروا المدينة مع قريش في جيش الأحزاب، وكان بشر بن البراء أحد أبطال هذا الفتح، فقد أبلى فيها بلاءً حسنًا، وكان يرافق الرسول القائد - ﷺ - فيها خطوة بخطوة، ولما هزم الله اليهود، وفتحت خيبر مكث الرسول القائد - ﷺ - فيها مدة من الزمان، ففي أحد الأيام أهدت امرأة يهودية لرسول الله - ﷺ - شاة مصلية سمتها.

وقد سألت: أي عضوٍ من الشاة أحب إلى رسول الله؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم، وسممت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله - ﷺ - تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، وكان معه بشر بن البراء وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر - رضي الله عنه -، فأساغها، وأما رسول الله - ﷺ -، فلفظها، ثم قال: ارفعوا أيديكم، فإن عضوًا من أعضائها يخبرني أنها مسمومة، فرفع الناس أيديهم عنها.

ثم أرسل النبي - ﷺ - إلى صاحبتها، فقال: أسممت طعامك هذا؟ فقالت: نعم، من أخبرك؟ قال: أخبرتني هذه في يدي، ثم قال ﷺ: ما حملك على ذلك؟ فقالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كنت نبيًا لم يضرك الذي

صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك، فقال رسول الله - ﷺ -: ما كان الله ليسلطك عليَ، فقالوا: ألا نقتلها يا رسول الله؟ فقال: لا، ثم عفا عنها ولم يعاقبها - ثم قتلت قصاصًا بعد موت بشر -.

حب يفوق الخيال:

أما بشر بن البراء - رضي الله عنه - فلم يقم من مكانه، حتى عاد لونه كالطيلسان - أي مائلاً للسواد -، فقد تمكن السم من جسده، وأنهكت قواه، ووجد الألم يتزايد فعلم أنه ليس بناج، وأنه ميت، فكأني به وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ينظر نظرة طويلة حادة إلى الحبيب المصطفى - ﷺ - يملأ بها عينيه وقلبه من وجهه الشريف، نظرة يودع بها من هو أحب إليه من نفسه التي ستخرج من الدنيا بعد قليل، وكأني بالنبي - ﷺ - يحنو عليه، ودموع الحاضرين تنساب على الخدود أسفًا على سيد بني سلمة وخيرة شبابها.

ثم يحرك بشر بن البراء شفتيه بكلماتٍ تعبر عن حب صادقٍ نابع من إيمان عميق فيقول للنبي - ﷺ -: والذي أكرمك بالحق، لقد وجدت ذلك في أكلتي التي أُكلت، فإن منعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون أدغمتها.

ثم خرجت روحه - رضي الله عنه -؛ لتحلق مع أروح الشهداء في الجنة تسرح فيها حيث شاءت، ولقد بقي بشر رضي الله عنه بعد موته في ذاكرة النبي - ﷺ - وأصحابه، وبالأخص أمه خليدة بنت قيس - رضي الله عنها - التي لم يفارقها ذكره طرفة عين، وكان النبي - ﷺ - من حين إلى آخر يتألم من أثر الشاة المسمومة، فيتذكر عندئذٍ بشر ويدعو له.

عبد الله بن رواحة

مع الأخيار:

هو: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الخزرجي الأنصاري، أما أمه هي: كبشة بنت واقد بن عمرو بن مالك، فهي خزرجية مثله يتصل نسبهما عند جده مالك الأغر، وأخته هي: الصحابية الجليلة عمرة بنت رواحة أم الصحابي الجليل النعمان بن بشير، وكان عمرو بن امرئ القيس أحد أجداده الذين يرجع إليهم الناس في مشاكل الجاهلية، فيحكم بينهم وينفذ فيهم قضاؤه.

أمير النقباء:

كان عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - يوم أهل نور النبوة على مكة شاعرًا فحلاً من شعراء يثرب، وسيدًا مرموقًا من سادات الخزرج، فما إن بلغته دعوة الهدى والحق حتى شرح الله صدره للإسلام، وفي موسم الحج خرج ابن رواحة لأداء مناسك الحج مع قومه وعشيرته، فكان هذا اللقاء التاريخي عند العقبة، وكانت بيعة العقبة الثانية فتقدم ابن رواحة، ومد يده لتصافح وتبايع الحبيب - صلى الله عليه وسلم - نيابة عن السبعين رجلاً، وقال رضي الله عنه يومها:

يا رسول، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 111).

ولقد مر أعرابي والرسول - ﷺ - يقرأ هذه الآية، فقال الأعرابي: كلام من هذا، فقال ﷺ: كلام الله عز وجل؛ فقال الأعرابي: والله بيع مربح، لا نقيله ولا نستقيله، وأسلم هذا الأعرابي وقد لقي ربه شهيدًا في إحدى المغازي النبوية.

بعد هذه البيعة المباركة عاد ابن رواحة إلى المدينة وقد امتلأ قلبه غبطة وسعادة وسرورًا يكفي الكون كله من حوله بل ويزيد عليه، ومنذ ذلك اليوم الأغر وضع سنانه ولسانه في طاعة الله - عز وجل - ومرضاة رسوله - ﷺ -.

شوق وحنين:

منذ أن بايع ابن رواحة الحبيب - ﷺ - ازداد شوقه وحنينه لرؤيته في المدينة المنورة لملازمته، فشاء الله تعالى أن يهاجر الحبيب ﷺ إلى المدينة؛ لتدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ولتصبح منذ ذلك الوقت منارة للكون كله عبر العصور والأزمان.

وخرج ابن رواحة - رضي الله عنه - مع قومه؛ لاستقبال الحبيب - ﷺ -، وما إن استقر النبي - ﷺ - في المدينة حتى كان ابن رواحة يلازمه ملازمة العين لأختها؛ ليقبس من هديه وعلمه وأخلاقه العذبة المباركة.

دوره في إسلام أبو الدرداء:

كان أبو الدرداء تربطه بعبد الله بن رواحة في الجاهلية صداقة ومحبة فقد كانا متآخيين في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اعتنقه عبد الله بن رواحة وأعرض عنه أبو الدرداء، وتمر الأيام والليالي وما زال أبو الدرداء على الشرك.

وفي يوم من الأيام خرج أبو الرداء كعادته إلى متجره وأخذ يبيع ويشترى ثم عاد إلى منزله وهو في غاية الاشتياق لرؤية إلهه - الصنم - الذي كان يعبده، وإذا به يجد مفاجأة لم تخطر بباله أبدًا، فلقد دخل بيته - وهو غائب عنه - عبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة فكسرا صنمه، فرجع يجمع الصنم، ويقول: ويحك، هلا

امتنعت، ألا دفعت عن نفسك، فقالت أم الدرداء: لو كان ينفع أو يدفع عن أحد؛ لدفع عن نفسه، ونفعها.

فقال أبو الدرداء لزوجته: أعدَي لي ماء في المغتسل، فاغتسل، ولبس حُلته، ثم ذهب إلى النبي – ﷺ –، فنظر إليه ابن رواحة مقبلاً، فقال: يا رسول الله، هذا أبو الدرداء، وما أراه إلا جاء في طلبنا؟ فقال ﷺ: إنما جاء ليسلم، إن ربي وعدني بأبي الدرداء أن يسلم.

وهكذا احتل ابن رواحة مساحة عظيمة في نفس أبى الدرداء؛ إذ هو سبب في إسلامه وهدايته، وكان أبى الدرداء يعترف بهذا له، وأثر عنه قوله: أعوذ بالله أن يأتي عليَ يومٌ لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة، وفي كل مجلس يجلسه أبو الدرداء كان يحدث عن عبد الله بن رواحة، ويذكر فضائله ومناقبه، فلم تكن صورته تبرح مخيلة أبى الدرداء لحظة.

عبادته وخوفه:

قال أبو الدرداء – رضي الله عنه –: إن كنا لنكون مع رسول الله – ﷺ – في السفر في اليوم الحار ما في القوم أحد صائم إلا رسول الله – ﷺ – وعبد الله بن رواحة.

وعن ابن أبي ليلي قال: تزوج رجلٌ امرأة ابن رواحة بعد موته، فقال لها: تدرين لم تزوجتك؟ فقالت له: لا، ولما، قال: لتخبريني عن صنيع عبد الله في بيته، فذكرت له شيئًا لا أحفظه، غير أنها قالت: كان إذا أراد أن يخرج من بيته صلى ركعتين، وإذا دخل صلى ركعتين، لا يدع ذلك أبدًا.

بين ابن رواحة وابن سلول:

ذهب النبي – ﷺ – بعد الهجرة يعود سعد بن عبادة في مرضه أصابه قبل وقعة بدر، فركب حمارًا وأردف وراءه أسامة بن زيد، وسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله أبى بن سلول، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود،

وكان من المسلمين ابن رواحة.

فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خَمَر عبد الله بن أبي بن سلول أنفعه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله - ﷺ - ثم وقف ونزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًا فلا تؤذينا به في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال ابن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمين والمشركين واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي - ﷺ - يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عبدة، فقال النبي ﷺ: ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ - يقصد ابن سلول - قال سعد: وما قال؟ قال رسول الله: قال كذا وكذا، فقال سعد: اعف عنه يا رسول الله، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اجتمع أهل هذه البحير - يقصد أهل المدينة - على أن يتوجوه، ويعبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك، شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت.

الدفاع عن الحبيب باللسان:

كان حب النبي - ﷺ - يملك عليه شغاف قلبه، وكان رضي الله عنه شاعرًا رقيق المشاعر، ينظم الشعر ارتجالاً في إطناب وإسهاب، من غير تكلف ولا اعتساف، ويفتق بشعره أسرار المعاني، ويعبر ببديهته الحاضرة عن أغوار النفوس، فإذا مدح؛ زان، وإذا ذمَ؛ شان، قال عنه الزبير بن العوام - رضي الله عنه -: ما رأيت أحدًا أجرأ ولا أسرع شعرًا من ابن رواحة، وقد ذكر الأدباء له شعرًا كثيرًا في مدح النبي - ﷺ - والثناء عليه بما هو أهله، وذم أعدائه وشانئيه من المشركين وأهل الكتاب.

من ذلك قوله:

وفينا رسـول الله نتلو كتابه إذا انشقَ معروفٌ من النور ساطعُ

يبيت يجـافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجعُ

أتـــى بـــالهـــدى بـعـد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

ومنه قوله في ذم المشركين:

عصيتم رسول الله أف لدينكم وأمركم السوء الذي كان غاويا
فـإني وإن عنفتموني لقائلٌ فدى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نعدله فينا بغيره شهابًا لنا في ظلمة الليل هاديًا

ومن أحسن ما قال في مدح النبي - ﷺ - أيضًا:

يا هاشم الخير إن الله فضلكم عـلى الـبريـة فضلاً مـا لـه غير
إني تفرَست فيك الخير أعرفه فراسةٌ خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسول فمن يُحرم نوافله والبشر منه قد أودى به القدرُ
ولو سألت أو استنصرت بعضهم في جُلَ أمرك ما ردوا ولا نصروا
فثبت الله من آتاك من حسنٍ تثبيت موسى نـصرًا كالذي نصروا

ولما سمع الرسول - ﷺ - هذا الشعر منه قال له: وإياك فثبت الله، ففاز بها حتى لقي الله عز وجل.

في ساحات الوغى:

لما حمى الوطيس واشتدت المعارك بين أهل الحق وأهل الباطل، كان في كل عراك ابن رواحة من المسارعين لنصرة الحق والذود عن حياضه، فها هو تراه في بدر الكبرى يقاتل قتال الليوث المهتاجة فكان يهد الصفوف هدًا.

ونراه في أحد قد أبلى بلاءً حسنًا، ولقد حز في قلبه مقتل سيد الشهداء حمزة عبد المطلب عم الرسول، ولما كان مأتمه جاء كل رجل بنساء قومه ينحن على حمزة، وجاء ابن رواحة بنساء بني الحارث ليشاركن في ذلك الحزن العام، ولكن الرسول - ﷺ -، قال له: ما أردت هذا، ونهاهن من الغد عن النوح، ورثى ابن رواحة أسد الله حمزة بقصيدة أولها:

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء أو العويل
على أسد الإله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعًا هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هُدت وأنت الماجدُ البرُ الوصول

في يوم الخندق:

شهد ابن رواحة كذلك الخندق، وكان الرسول - ﷺ - ينقل التراب يومئذ مع القوم حتى وأرى بياض إبطيه، وأخذ ابن رواحة يرتجز ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزل سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

وكان الرسول - ﷺ - يرفع بها صوته: أبينا، أبينا.

وكان ابن رواحة يرى ما كابد المسلمين في هذه الموقعة، وكانوا يأكلون مما يبعث به أهلوهم، وكانت عمرة بنت رواحة أخت عبد الله ترسل ابنتها بجفنة تمر وعجوة في ثوبها إلى زوجها بشير وإلى أخيها عبد الله، ورآها الرسول - ﷺ -؛يومًا وهو جالس مع أصحابه، فقال: تعالي يا بُنية ما هذا الذي معك، فأخبرته، فأخذه في كفيه ونثره على ثوب بُسط له، وأمر بأن ينادى بأهل الخندق فاجتمعوا يأكلون منه حتى صدروا ورأوا أنه ليفيض من أطراف الثوب.

ابن رواحة في الحديبية والقضاء:

في السنة السادسة للهجرة خرج رسول الله - ﷺ - يريد العمرة وساق معه الهدي وأحرم؛ ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا، وكان أصحابه أكثر من ألف وأربعمائة رجل وامرأة وكان ابن رواحة فيهم، وصدتهم قريش برغم علمها بحسن ما جاؤوا إليه، وعقدت بين الفريقين هدنة الحديبية، وكان فيها أن يأمن

الناس الحرب عشر سنين، وأن يرجع الرسول - ﷺ - وأصحابه فلا يدخل مكة في ذلك العام، على أن يعود العام القابل.

وفي العام السابع من الهجرة جاء رسول الله - ﷺ - مع من كان قد صد في عمرته تلك وأدى عمرة القضاء، فدخل النبي - ﷺ - مكة وقد ركب ناقته القصواء، وأصحابه بين يديه، وابن رواحة آخذ بزمام ناقته، وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القت في سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال الفاروق: يا ابن رواحة، في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر؟

فقال الحبيب ﷺ: خلَ عنه يا عمر والذي نفسي بيده لكلامه أشدُ عليهم من وقع النبل.

وهكذا ظل بطلنا المغوار شوكة في ظهر المشركين إلى أن جاء اليوم الذي ينتظره البطل في شوق ولهفة، ألا وهو اليوم الذي لقي ربه في شهيدًا سعيدًا ألا وهو يوم مؤتة، فتعالوا بنا؛ لنتعايش مع ابن رواحة في هذا اليوم لنتعرف على بطولته ومغامرته الكبرى يومئذ.

القائد الورع:

في سنة ثمان للهجرة بعث الرسول القائد - ﷺ - بثلاثة آلاف من جند الإسلام إلى بلاد الشام للقاء الروم والعرب المستعربين بعد قتل رسوله الحارث بن عمير الأزدي - رضي الله عنه - على يد شرحبيل بن عمرو، وقد أمَر على الجيش الإسلامي مولاه زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فعلى المسلمين جعفر بن طالب فإن

أصيب فقائد الجيش عبد الله بن رواحة.

ولما همّ الجيش الإسلامي بمغادرة المدينة؛ جعل الناس يُودعُون جند الإسلام عامة، ويخصون الأمراء الذين أمرهُمُ الرسول ﷺ على الجيش؛ فلما ودع عبد الله بن رواحة مع من ودّع بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ قال: والله ما يُبكيني حُب الدنيا، ولا صبابة بالحياة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار حيث يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: 71).

فأيقنت بالورُود ولكني لست أدري كيف لي بعده بالصدور، فقال لهم المسلمون: صبحكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فما إن سمع دعاءهم بأن يردوا إلى أهليهم وقف ابن رواحة ينشد ويقول:

لكني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تقذف الزَّبَدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مرُّوا عليِ جدثي يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

أجل يا سادة تلك كانت أمنيته، ولا شيء سواها ضربة سيف أو طعنة رمح، تنقله إلى عالم الشهداء الظافرين.

ابن رواحة يتكلم:

تحرك الجيش الإسلامي ناحية مؤتة، وعندما نزل المجاهدون أرض معان من أرض الشام، بلغهم أن طاغية الروم هرقل نزل في مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، واجتمعت إليه مائة ألف من العرب المستعربة فلما بلغ ذلك المسلمين قاموا بمعان ليلتين ينظرون أمرهم، وطفقوا يوازنون بين عددهم القليل، وعدد عدوهم الكثير وقالوا: نكتب إلى رسول الله - ﷺ - فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

هنا نهض ابن رواحة - ﷺ - من وسط صفوفهم كالنور في ظلام البهيم، وقال لهم: يا قوم، والله إن الذي تكرهون الذي خرجتم له تطلبون - يقصد الشهادة -، إنا والله، ما نقاتل أعداءنا بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا؛ فإنما هي إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، هتف المسلمون الأقلون عددًا، الأكثرون إيمانًا، هتفوا قائلين: قد صدق والله ابن رواحة.

فارس الشهداء:

مضى الجيش إلى طريقه حتى نزل بمؤتة ووقف في قلته الضئيلة وجهًا لوجه أمام الكثرة الهائلة، والعدة الغاشمة؛ إذ رأوْا صفوفًا لا آخر لها، وأعدادًا تفوق الحصر والحساب.

وشمرت حرب الفناء عن ساقيها فتقدم الأمير زيد بن حارثة فقتل القوم حتى سقط شهيد مجيد، وتلاه الأمير الثاني جعفر بن أبي طالب فما لبث أن مزقته السيوف إربًا إربًا ونال الشهادة في غبطة وعظمة.

حمل ابن رواحة الراية من جعفر وكان القتال قد بلغ ضراوته، وكادت القلة المسلمة تتوهُ في زحام الجيش العرمْرم اَلْلجُبّ، الذي حشده هرقل، وحين كان ابن رواحة يقاتل كجندي، كان يصول ويجول في غير تردد ولا مبالاة، أما الآن وقد صار أميرًا للجيش ومسئولاً عن حياة جنوده، فقد بدا أمام ضراوة الروم وكأنما مَرَّتْ به لَمْسَة تردد وتهيب، لكنه ما لبث أن استجاش كل قوى المخاطرة في نفسه وصاح:

يـا نـفـس إلا تـقـتـلي تمـوت هذا حياض الموت قد صليت
ومـا تمـنـيـت فـقـد لقيت أن تـفـعـلي فعلهما هديت

يعني بهذا صاحبيه الذين سبقاه إلى الشهادة: زيد وجعفر ﷺ.

ثم ارتعد بعدها رعدة مهيبة قال بعدها: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى امرأتي؟ فهي طالق، إلى غلماني؟ فهم أحرار، إلى مالي؟ فهو لله ورسوله ﷺ.

وحمل الأمير الثالث على العدو ونفذ إلى صفوف الأعداء فرأى الموت يحصد المسلمين، ثم عاد وأخذ يؤنب نفسه على تردده كل التأنيب فعاد يقول:

أقسمت يا نفس لتنزلنه طائعة أو لِتَكْرَهْنَهُ
ما لي أراك تكرهين الجنة إن أجلب الناس وشدوا الرنّة
لطالما قد كنت مُطمئنة قل أنت إلا نطفةٌ في شنه

ولما نزل أتاه ابن عم له بعظم من لحم فقال: اشدد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت، فأخذ من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه، ثم رمى بنفسه في وسط الأعداء.

لقد انطلق ﷺ يعصف بالروم عصفًا، ولولا كتاب سبق بأن يكون اليوم موعدُهُ مع الجنة، لظل يضرب بسيفه حتى يُفْني الجموع المقاتلة، ولكن ساعة الرحيل دقت معلنة بدْء مسيرته إلى الله تعالى.

لقد استقبلته السيوف تطعنه في رأسه فقاتل ودمه ينزف فاستقبل الدم بيده فدلك به وجهه، وهو يقول: يا معشر المسلمين، ذبوا عن لحم أخيكم، فجعل المسلمين يحملون حتى يجوزوه، فلم يزالوا كذلك حتى سقط شهيد مكانه بين الصفين.

يا سادة، لقد هوى جسدُه فصعدت إلى الرفيق الأعلى رُوحُه المستبسلة الطاهرة، وتحققت أغلى أمانيه حين قال:

حتى يُقال إذا مرُوا على جدثي يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

حبيب بن زيد

في رحاب المجد:

أما عن أمه؛ فهي: أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو المازنية - رضي الله عنها - من خيار المجاهدات اللاتي ضربن بسهم وافر في نصرة الدين في كثير من المواطن، وأثبتت للعالمين أن المرأة المسلمة لو تسلحت بالإيمان الكامل، والعز الصادق، والإرادة القوية؛ لصنعت المعجزات، وضربت أروع الأمثال في البطولة النادرة، والشجاعة الخارقة للعادة، إنها امرأة آمنت بربها، واستمسكت بالعروة الوثقى، وزادها الله يقينًا وهدى، ومنحها القوة على تحمُّل الشدائد، ومواجهة الصعاب.

وأما أخوه؛ فهو: عبد الله بن زيد الذي جعل نحره دون نحر النبي - ﷺ -؛ وصدره دون صدره يوم أُحد، حتى قال الحبيب ﷺ: بارك الله عليكم من أهل بيتٍ، رحمكم الله من أهل بيت.

عند العقبة:

نفذ النور الإلهي إلى قلب حبيب بن زيد وهو غضَ طريَ، فاستقر فيه وتمكن منه، وكتب له أن يمضي مع أمه وأبيه وأخيه وخالته إلى مكة ليسهم مع النفر السبعين من الغر الميامين في صنع تاريخ الإسلام، وعندما ابتدأت البيعة، قام الرجال يصافحون النبي - ﷺ - يشهدون شهادة الحق، ويقرون البيعة بين هذه الأيدي المباركة، امتدت يد صغيرة، غضة طرية، وصافحت اليد الطاهرة الشريفة.

نظر النبي - ﷺ - إلى صاحب هذه اليد الصغيرة التي تأخذ البيعة، وابتسم، إنه طفل صغير لم يبلغ الحلم بعد، لكنه شديد الثقة بنفسه، مطمئنًا لهذا الرسول وما

جاء به من الحق، هو صغير السن، أخضر القلب، لكنه كبير العقل، يمتلئ قلبه بنور الإيمان، وكيف لا، وأسرته كلها جاءت؛ لتبايع النبي - ﷺ -.

في صحبة الحبيب:

منذ أن مد هذا الفتي الطاهر يده البضة الصغيرة؛ لتصافح تلك اليد الشريفة الطاهرة يد رسول الله ﷺ وقد شعر أن ثمة قوة من الإيمان تتدفق في صدره، وتملأ قلبه الأخضر روعة وفرحة أن صار أحد الموحدين الذين آثروا الباقية على الفانية.

فلما هاجر النبي - ﷺ - إلى المدينة، كان ذلك الشبل أحد الذين سعدوا أيما سعادة لتشريفه لهم، فكان يجلس بين الرجال يرفع رأسه، ويصيخ السمع وترتسم على محياه البديع ابتسامات مضيئة ورائعة والنبي ﷺ يتكلم بكلمات أغلى من ماء العيون.

ولطالما تحدث النبي - ﷺ - عن الجهاد، وعظمة الشهادة في سبيل الله تعالى، فكان الصغير يتوق لحمل السلاح، ونيل هذا الشرف العظيم، فلما كانت غزوة بدر، حمل حبيب السيف، وراح يحاول الانضمام إلى جيش النور، بيد أن رسول الله - ﷺ - استصغره، ورده ردًا جميلاً.

عاد حبيب بن زيد؛ ليعاود الكرة مرة أخرى في غزوة أحد، لكنه لم يستطع المشاركة نظرًا لصغر سنه، لقد كان حبيب متشوقًا من أعماق قلبه أن يكون له دور، أي دور في هذه المعركة حتى ينال الأجر العظيم من الله عز وجل، ويا حبذا لو نال الشهادة فهي أمنية كل مؤمن في هذا العصر الزاهي، إنهم قوم يتعجلون وعد الله - عز وجل - لهم بالجنة، كانوا يقاتلون بضراوة، يرمون بأنفسهم في أتون المعارك، كانوا حريصين على الموت حرص أعدائهم على الحياة.

إعداد حبيب:

كان حبيب - رضي الله عنه - يبكي عندما رفض الرسول - ﷺ - انضمامه للجيش، ولكن هل يأس حبيب من المشاركة في الجهاد، لا، كيف بمن كانت أمه تحمل كل

هذا القدر من البطولة والشجاعة أن يأخذه اليأس، أو يغلبه القنوط إنها لا تزال تسقيه عشق الجهاد، تغرس فيه الشجاعة، فكان يزداد تمسكًا حتى كانت غزوة الخندق، أذن له النبي – ﷺ –، فكانت سعادته هائلة، فقد صار الآن أحد جنود الرحمن، وأصبح بوسعه الآن أن يحلم بالفوز بالرضوان.

وتجلت مهاراته القتالية في المعارك والغزوات، وسعد الرسول – ﷺ – بهذا الشبل المقاتل، فضلاً عن فصاحته وبلاغته، إذا كان حبيب بن زيد يستمع إلى أحاديث النبي – ﷺ – فتلتصق بقلبه مباشرة، ويستمع إلى السورة من القرآن فيمتلأ قلبه بالإيمان، ويزداد يقينًا على يقين، أن دين الله هو الحق، وأن محمد – ﷺ – هو خاتم الأنبياء والمرسلين جاء بالحق من عند ربه.

وهكذا تربى هذا الشبل في مدرسة النبوة؛ ليتخرج فيها فارس مغوار لا يشق له غبار، فضلاً عن إعداد أسرته له وفي مقدمتهم تلك الأم العظيمة الرائعة أم عمارة، وكأنما أعد هذا الشبل؛ ليكون مهيأً لذلك المشهد العجيب، الذي يهز أعماق القلب، ويثير الدهشة والإعجاب، برغم ما يحمل من دموية هزت ضمائر المسلمين ولا يزال، فتعالوا بنا؛ لنتعايش مع هذا المشهد العجيب منذ البداية.

وفد بني حنيفة:

في السنة التاسعة للهجرة المحمدية كان الإسلام قد صلب عوده، وقويت شوكته، ورسخت دعائمه، وانتشرت الدعوة الربانية في أغلب ربوع الجزيرة، حتى طفقت وفود العرب تشدُ الرَحال من أنحاء الجزيرة إلى المدينة المنورة للقاء النبي – ﷺ –، وإعلان إسلامها بين يديه، ومبايعته على الإسلام، وكان من بين تلك الوفود فود بني حنيفة القادم من أعالي نجد.

حين بلغ الوفد المدينة أناخ جماله في حواشي المدينة، وخلف الوفد على رحاله رجلاً منهم يدعى مسيلمة بن حبيب، ووصلوا إلى النبي – ﷺ – وهو في المسجد، وأعلن الوفد إسلامه بين يديه وأسلم جميع بني حنيفة من خلفهم، أكرم الرسول

- ﷺ - وفادتهم، وأمر لكل منهم بعطية وأمر لصاحبهم الذي خلفُوه في رحالهم بمثل ما أمر لهم به.

مدعي النبوة:

كان مسيلمة بن حبيب الحنفي يعتمل بداخله نوازع شتى حين وجد الوفود تهل على المدينة، وأن أمر رسول الله - ﷺ - قد انتشر بين الناس، فامتلأ قلبه بالحقد، والغيرة، والحسد، وكل الصفات القبيحة، وتلبسه شيطانه وراح ينفث في قلبه بأفكار شوهاء، سوداء حالكة، لماذا لا يكون هو الآخر نبيًا، الأمر بسيط جدًا؛ ليعلن بين الناس أنه نبيًا يوحى إليه، مثله مثل محمد سواء بسواء؛ لذلك لم يكد يبلغ الوفد منازله في نجد حتى ارتد مسيلمة بن حبيب عن الإسلام.

وبالفعل دعا مسيلمة بعض أصدقائه المقربين وأعلن لهم أنه قد صار نبيًا، وراح يقول كلامًا أقرب إلى الخبل والجنون، قائلاً إنه من كلام رب العالمين آتاه به الوحي، وتبادل القوم جميعًا النظرات، وهزوا رؤوسهم، فقد كانوا يعلمون يقينًا أن مسيلمة كذاب.

ولكن ماذا لو دعموه، وقاموا بمساعدته، مؤكدا أن بني حنيفة سيكون لها شأن عظيم، نعم سيكون لها المكانة العظمى في قلوب العرب، لا تقل عن مكانة قريش باعتبارها قبيلة النبي - ﷺ -، وقد أعلنها أحدهم بكل وقاحة وقال: أشهد أن محمدًا لصادق، وأن مسيلمة لكذاب، ولكن كذاب ربيعة أحب إلييمن صادق مضر.

ذاع أمر مسيلمة وفرح به بنو حنيفة، نعم، منهم من صدقه، ومنهم من كذبه، لكنهم جميعًا التفوا من حوله، وأعلنوا تأييده إلا القليل منهم الذي ظل على عقيدته لم يتزحزح قيد أنملة مثل سيدهم: ثمامة بن أثال ﷺ، الذي حارب مسيلمة ومن معه بكل ضراوة.

رسالة الكذاب إلى الحبيب:

لما قوي ساعد الكذاب مسيلمة وغلظ أمره كتب إلى رسول الله - ﷺ - كتابًا جاء فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد: فإني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قومٌ يعتدون.

وبعث الكتاب مع رجلين من رجاله؛ فلما قرئ الكتاب للنبي - ﷺ - قال للرجلين: وما تقولان أنتما؟ فأجابا: نقول كما قال، فقال ﷺ لهما: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقيكما.

ثم كتب النبي - ﷺ - رسالة إلى مسيلمة بعث بها مع الرجلين، جاء فيها: من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

حبيب في مواجهة الطاغية:

مضى الكذاب مسيلمة ينشر إفْكه وبهتانه، وازداد أذاهُ للمؤمنين وتحريضه عليهم، وانتشر كذبه وادعائه، ووجد أعوانا يعينونه على الباطل فاستفحل أمره، وزكمت رائحته العطنة أنوف الموحدين الصداقين، فرأى الرسول - ﷺ - أن يبعث إليه رسالة ينهاه عن حماقاته، فأرسل إليه النبي - ﷺ - بأحد أصحابه؛ ليحدثه ويدعوه إلى جادة الحق والصواب، محملاً برسالة من صاحب الخلق الجم محمد بن عبد الله - ﷺ -، وانتدب لهذا الأمر بطل، لا يزال يحرك في قلوب المؤمنين أرفع آيات التقدير، إنه الشاب الذي تربى في مدرسة النبوة حبيب بن زيد - رضي الله عنه -.

وما أن حمل حبيب بن زيد أمانة الدعوة التي كلفه بها أستاذه الرسول الأعظم - ﷺ - حتى نفض عن نفسه غبار الكسل، وأطلق عنان فرسه، وراح ينطلق بكل ما يملك من قوة إلى غايته إنها رسالة ثمينة انتدبه النبي - ﷺ - من أجلها، لو

استطاع أن يهدى الله تعالى قلب مسيلمة على يديه لأسعد بذلك قلب النبي - ﷺ - وأصحابه، ووأد فتنة عظيمة تكاد تعصف بأهل نجد وما حولها.

بلغ الفارس النبيل ديار بني حنيفة في أعالي نجد ثم قدم رسالته إلى الكذاب مسيلمة، وقرأ الكذاب الرسالة؛ فازداد إمعانًا في ضلاله وغروره، لقد انتفخت أوداج مسيلمة وامتلأ صدره بالخنق والضيق وهو ينظر بعين رأسه ما وصل إليه من مكانة كالتفاف الناس من حوله، أهكذا بكل سهولة وبساطة يترك كل ذلك المال، والجاه، والسلطان، أيترك المجد، السؤدد، الشهرة، المكانة العظيمة في قلوب الأتباع، النساء الجميلات، إن الدنيا كلها بين يديه، أهكذا يترك كل ذلك ليكون تابعًا لمحمد القرشي بعد أن صار متبوعًا؟

وهل محمد أفضل منه، إنه نبي يوحي إليه كما يوحي إلى محمد!!

لقد كذب مسيلمة كذبة وصدق نفسه.

هناك هز الطاغية المتكبر رأسه ونظر إلى وجه حبيب بن زيد المتورد المستضيء بنور الحق والإيمان واليقين، فقال له: ماذا تقول في محمد بن عبد الله؟ أجاب حبيب على الفور: محمد بن عبد الله هو رسول الله، صمت مسيلمة قليلاً وراح يدور كالوحش الكاسر، ثم فاح بصوته البغيض: وأنا هل تشهد أني رسول الله؟ شمخ الصحابي الجليل بأنفه لأعلى وقال في صلابة وقوة: إن في أذني صمما عن سماع ما تقول.

كان هذا الكلام لطمة عنيفة أصابت وجه مسيلمة جعلت الشرر يتطاير من عينيه، وراح جسده كله ينتفض من شدة الغضب، وأشار مسيلمة إلى بعض أعوانه بما يعني أن خذوه ولقنوه درسًا قاسيًا ليكون عبرة لكل من يحاول أن ينكر نبوته.

وهكذا، لم يكن مع مسيلمة شيء من المروءة ولا من الرجولة ما يرده عن سفك دم هذا الشاب الطاهر التقى، الذي هو رسول يحمل رسالة مكتوبة كانت العرب تحترمه وتقدسه، وفي اليوم التالي دعا مسيلمة الناس ليروا ذلك المشهد

العجيب الذي يدمى القلب، ويسيل حبات العين ثم أمر مسيلمة أن يأتوا إليه بالصحابي الجليل حبيب بن زيد على مشهد من الجميع.

أقبل الصحابي المؤمن يعلوه وقار الإيمان ترف على وجهه الجميل ابتسامة مضيئة، برغم ما أصابه من تعذيب يكاد من هوله يسقط أعتى الرجال، جيء بالتقي المؤمن يحمل آثار تعذيب شديد أنزله به المجرمون مؤملين أن يسلبوا إيمان روحه فيبدو أمام الجميع متخاذلاً مستسلمًا، مُسارعًا إلى الإيمان به حين يدعى إلى هذا الإيمان أمام الناس، وبهذا يحقق الكذاب الفاشل معجزة موهومة أمام المخدوعين به.

وقف الكذاب ملتفا بعباءة النذالة والحماقة، وابتسم ابتسامة تقطر سَمَا ثم أشار إلى الجلاد إشارة ذات معنى، فوقف الجلاد خلف حبيب مشرعًا السيف لأعلى، والذي يكاد من لهيب لمعانه أن يخطف الأبصار، كانت الحشود الهائلة التي تجمعت تقف وكأن على رؤوسهم الطير، حالة من الصمت المطبق تخيم عليهم جميعًا.

قال مسيلمة الكذاب لحبيب: أتشهد أَنَّ محمدًا رسول الله؟ قال حبيب: نعم، أشهد أن محمد ﷺ رسول رب العالمين أرسله هداية للناس، هنا كست صفرة الخزي وجه الداعية الكذاب مسيلمة، وعاد يسأل: أفلا تشهد أني رسول الله؟ فيصمت حبيب ولا يجيب، فيلكزه الكذاب بسيفه وهو يتفطر غضب: أفلا تشهد إني رسول الله، فيقول حبيب في سخرية قاتلة: إني لا أسمع شيئًا مما تقول!

تحولت صفرة الخزي على وجه الطاغية المتكبر إلى سود حاقد مخبول لقد فشلت خطته، ولم يجده تعذيبه، وتلقَى أمام الذين جمعهم؛ ليشهدوا معجزته لطمة قوية أسقطت هيبته الكاذبة في الوحل، ثم هاج الطاغية كالثور المذبوح، ثم أومأ مسيلمة للجلاد والذي ينتصب خلف حبيب رضي الله عنه، فرفع سيفه وبسرعة أهوى به على حبيب فبتر قطعة من جسده؛ لتسقط متدحرجة أمام ناظريه.

رفع مسيلمة حاجبيه وسأله مرة أخرى: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فإذا

بنور الإيمان يفترض وجه حبيب بن زيد فيبتسم قائلاً: نعم أشهد أن محمدًا رسول الله، ثم قال: أفلا تشهد أني رسول الله؟ فقال: لا، لا أسمع ما تقول، ويهوى الجلاد بسيفه ليقتطع جزءً آخر من جسد هذا الصحابي.

وهكذا ظل الطاغية الفاجر مسيلمة يطرح السؤال المرة تلو الأخرى والجلاد يعمل سيفه في الجسد المؤمن، ويتدحرج الجسد قطعة وراء قطعة، وعضوا وراء عضو، والحشود كلها تتأمل هذا المشهد المريع، وحبيب ابن زيد يؤكد بكل ما يملك أن محمد رسول الله رافضًا أن يمتثل لرغبة الطاغية المتوحش برغم ما بلغ به من التنكيل والتمثيل وهو لا يزال على قيد الحياة.

وسقط الجسد الطاهر، سقط الشاب المؤمن، سقط شبل الإيمان، الذي تربى في مدرسة النبوة ليصير أسد شجاع لا يهاب الموت، بينما الروح المؤمنة صعدت إلى عنان السماء لتلتقي بأخواتها من أرواح الشهداء والصالحين، لتسعد بالنعيم المقيم الذي أعده لهم رب العالمين.

سماك بن خرشة

من هو أبو دجانة:

هو أبو خالد سماك بن خرشة بن لوذان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، أمه هي: حزمة بنت حرملة من زعب من بني سليم بن منصور، لا نعلم إن كان لها صحبة أما ماتت قبل دخول الإسلام المدينة المنورة، وكان لأبي دجانة من الأبناء خالد وهو أكبر أبناءه وكان من شجعان الأبطال، له صحبة وبيعة وجهاد ولكن أخباره في كتب التراجم قليلة جدًا، وكذلك كان له ابن آخر من شباب الأنصار يدعى عبد الله بن سماك، وأغلب الظن أنه مات مع أبيه في سهل عقرباء، وقيل في فتوح الشام، وقد تزوج سماك بن خرشة امرأة من بني سليم بن منصور تدعى: آمنة بنت عمرو بن الأجش، وهي أم أبناءه خالد وعبد الله، وأغلب الظن أنها أسلمت وبيعة مع النساء.

اشتهر سماك بن خرشة بكنيته أبي دجانة الأنصاري، وغلبت كنيته على اسمه الحقيقي بين الصحابة، وكذلك اشتهر بهذه الكنية بين أصحاب السير والتراجم والأخبار، شأنه في ذلك شأن الكثير من أصحاب النبي - ﷺ - كأبي بكر الصديق، وأبي ذر، وأبي عبيدة، وأبي هريرة، وأبي موسى الأشعري، وأبي طلحة الأنصاري، وغيرهم من عظماء الصحابة الذين اشتهروا بكنيتهم.

وكذلك عرف أبو دجانة بصاحب عصابة الموت، وكذلك عرف بذي المشهرة، وهي درع يلبسها في الحرب، وكذلك أطلق عليه: ذي السيفين؛ لقتاله يوم أحد بسيفه وسيف رسول الله - ﷺ -، ولكن كان أقرب هذه الألقاب إلى قلبه: صاحب سيف الرسول؛ الذي قتال به يوم أحد.

في طليعة السابقين:

أسلم أبو دجانة - ﷺ - في طلائع من أسلم من الأنصار، وما أن لامس الإيمان شغاف قلبه ازدادت همته، وذلك لأنه سيقاتل من أجل العقيدة التي من أجلها خلق الله السماوات والأرض وأرسل الرسل، فأصبحت همته موجهة لحصد رقاب أعداء الله.

ولما هاجر النبي - ﷺ - إلى المدينة كان أبو دجانة بجانبه دائمًا، وقد آخى الحبيب ﷺ بين أبي دجانة وبين الصحابي الجليل والفاتح العظيم عتبة بن غزوان.

مكارم الأخلاق:

اتصف أبو دجانة بالعديد من الصفات الجليلة؛ منها: الكرم والشجاعة ونقاء القلب، التي دلت عليها مواقفه من النبي - ﷺ - وأصحابه؛ ومن ذاك ما رُوي عنه في إحدى الغزوات أنه كان لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان من المشركين رجل لا يَدَعُ جريحًا فالتقيا إلا ذفف عليه، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله.

كما اتصف بالإخلاص للنبي - ﷺ - والمسلمين والفداء، ومن ذلك عندما جعل نفسه فداءً للنبي - ﷺ - في حادثة عظيمة سنتناولها في موضعها من البحث، كما وصف بأنه لا يُقحم نفسه في ما لا يعنيه، وكان قلبه سليمًا لا يحمل غلاً، ولا حقدًا على مسلم.

يروى ابن سعد الزهري في الطبقات وغيره بسنده عن زيد بن أسلم ﷺ قال: دخل رجل على أبي دجانة سماك بن خرشة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقال له الرجل: ما لوجهك يتهلل يا أبا دجانة؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى كان قلبي للمسلمين سليمًا.

صفاته:

ومن الصفات التي عُرف أبو دجانة بها ورعه والتزامه حدود الله، وحرصه على إطعام أهله الحلال الطيب، فقد ذكرت الكثير من المصادرأن أبا دجانة إذا صلى الصبح خرج من المسجد سريعًا، ولم يحضر الدعاء، فسأله النبي - ﷺ - عن ذلك، فقال أبو دجانة: يا رسول الله، جاري له نخلة يسقط رطبها في داري ليلاً من الهواء، فأسبق أولادي قبل أن يستيقظوا، فأطرحه في داره، فقال النبي - ﷺ - لصاحبها: بِعني نخلتك بعشر نخلات في الجنة، عروقها من ذهب أحمر، وزبرجد أخضر، وأغَصانها من اللؤلؤ الأبيض، فقال: لا أبيع حاضرًا بغائب.

فقال الصديق أبو بكر: قد اشتريتها منه بعشر نخلات في مكان كذا، ففرح الرجل ووهب النخلة التي في داره لأبي دجانة، وقال لزوجته: قد بعت هذه النخلة لأبي بكر بعشر نخلات في مكان كذا، وهي داري، فلا ندفع لصاحبها إلا القليل، فلما نام تلك الليلة وأصبح؛ وجد النخلة قد تحولت من داره إلى دار أبي دجانة.

ورغم تضعيف تلك القصة من قبل المحدثين، ولكن ذلك الخلق لم يكن ببعيدٍ عن صحابة رسول الله الذين زكاهم الله سبحانه وتعالى.

صفحات من جهاده:

أسد بدر المقدام:

كان أبو دجانة - رضي الله عنه - بطلاً من أبطال الحروب المشهود لهم، شهد مع الرسول القائد ﷺ بدر الكبرى، وكان فيها متألق، وقد وضع على رأسه عصابة حمراء عرف بها في المعارك كلها؛ وكان العدو إذا رأى العمامة عرفا صاحبها ففر من وجهه، فتعالوا بنا لنتعرف على بطولته يوم بدر.

كان أبو دجانة - رضي الله عنه - يوم بدر معلمًا بعصابة حمراء أو عصابة الموت، ولما اشتد القتال وجال المسلمون واختلطوا، أقبل أحد صناديد قريش يدعى عاصم

بن أبي عوف السهمي كأنه ذئبٌ يقول: يا معشر قريش، عليكم بالقاطع، مفرق الجماعة، الآتي بما لا يعرف: محمد، لا نجوت إن يقصد - يقصد أنه يريد اغتيال رسول الله مفرق قريش كما يدعي -.

تحرك عاصم بن أبي عوف السهمي نحو هدفه، هنا يعترضه أبو دجانة - رضي الله عنه -، فاختلفا ضربتين بينهم، وضربه أبو دجانة فقتله، ووقف على سلبه يسلبه، فمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على تلك الحال فقال له: يا أبا خالد، دع سلبه حتى يجهض العدو، وأنا أشهد لك به.

هنا جاء معبد بن وهب أحد شجعان مكة الأشاوس فضرب أبا دجانة ضربة، برك بها أبو دجانة كما يبرك الجمل، ثم قام واقفًا، ثم أقبل نحوه أبو دجانة فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئًا، فلما رأي أبو دجانة ذلك؛ انقض عليه، فوقع معبد بحفرة كانت أمامه لا يراها، وانقض عليه أبو دجانة مرة أخرى فقتله، وأخذ سلبه، واستطاع أبو دجانة في هذه المعركة الطاحنة قتل الكثير من فرسان قريش وأبطالها، أمثال: أبي العاص بن قيس، ومعاوية بن عبد قيس، ومعبد بن وهب، وعاصم بن أبي عوف، وغيرهم من أسود قريش، فقد كان أعظم فرسان الأنصار بلاءً في بدر الكبرى، وقيل إنه قتل وحده خمسة عشر فارس من فرسان قريش.

صاحب سيف الرسول:

في حياة الصحابة الفرسان ملامح طريفة من نوادر البسالة، والفروسية، والإقدام؛ هذه الملامح تلتصق بشخصية صاحبها حيث يعرف بها بين أقرانه، وتبقى خالدة على مر الأيام والأزمان، ماثلة للعيان عبر تتالى الدهور والأعوام، وأبو دجانة يوم أحد كان من هذا الصنف من الرجال، فتعالوا بنا لنتعرف على قصته في أحد منذ البداية:

هذه مدينة الرسول الأعظم - ﷺ - يموج بعضها في بعض؛ تأهبًا للقاء العدو الزحف للغزو المدينة، وهؤلاء أصحاب النبي ﷺ؛ يروحون ويغدون

في دروع الحديد كأسد الشرى، وهم يتوهجون شوقًا إلى نيل الشهادة، والظفر برضوان الله تعالى، وهذا الرسول - ﷺ - يخرج إلى الناس لابسًا لأمته؛ مستعدًا للقاء عدو الله وعدوه.

فما إن وقعت عليه عيون المسلمين؛ حتى اشتعلت صدورهم بنيران الحمية، واتقدت أفئدتهم بالعزيمة والبأس، وها هم أولاء الفتية من أبناء المهاجرين والأنصار؛ يقبلون على الرسول ﷺ ليس فيهم من جاوز الخامسة عشرة من عمره بعد، وهم يشدون قاماتهم القصيرة، وينفخون صدورهم الغضة؛ ليظهروا بمظاهر الرجال أمام الرسول القائد ﷺ؛ أملاً في أن يجيزهم، ويتيح لهم فرصة القتال تحت رايته، والاستشهاد في سبيل الله قريبًا منه.

وما إن اكتملت الجموع؛ وانتظمت القوات الإسلامية في ساحة المعركة عند جبل أحد، وقف الرسول ﷺ وقد رفع بيده سيفه، وقال: أيها الناس، من يأخذ سيفي هذا؟

هنا امتدت إليه أيد كثيرةٌ؛ كلها تريد أن تظفر بسيف الرسول القائد - ﷺ -، وتحظى به، فقام إليه رجال فيهم: عمر بن الخطاب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله وغيرهما، فأمسكه ﷺ.

ثم قال: من يأخذ سيفي هذا بحقه؟

فقام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة، وقال: وما حق سيفك يا رسول الله؟

فقال الرسول - ﷺ -: حقه أن تقاتل به في سبيل الله حتى يفتح الله عليك أو تقتل، وفي رواية أخرى أنه قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني.

فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه.

عند ذلك اشرأبت الأعناق إلى أبي دجانة؛ الذي منحه الرسول - ﷺ - سيفه، وآثره به على شيوخ المهاجرين، وفرسان الأنصار، ولم يكن أبو دجانة مجهول المكان في الحرب عند أصحاب النبي - ﷺ -، أو مغمور المقام، فهم جميعًا يقرُون له بأنه

بطل شجاعٍ؛ لا يهاب الموت.

وكان ﷺ يتميز بطريقة قتالية متفردة يتميز بها عن بقية الأصحاب، ففي ساحة القتال، نراه قد اعتجر بعصابة حمراء شدَها على رأسه، شعارًا له بالشجاعة، ورمز القتال حتى الموت، وكان ﷺ في المعارك يتبختر في مشيته بين الصفوف، كأنه يسخر من الباطل، ويستخف بأهله، وكانوا جميعًا يعجبون من مشيته التي يختال بها بين الصفوف؛ لمبارزة الأقران.

وكان الناس يطلقون على عصابته: عصابة الموت، وكان يعرفون إذا تعصب بها بأنه سيقاتل قتال الأسود الضواري، وكان بعض الصحابة الكرام يحسده على هذه المزية التي خصه بها الرسول القائد - ﷺ -، فلنترك الكلام هنا لابن عمة النبي - ﷺ -، وأحد أشجع الفرسان في العصر النبوي، والعصر الراشدي الزبير بن العوام؛ ليحكي لنا خبره مع أبي دجانة في أحد ووقع الأمر على نفسه، يقول الزبير:

لقد وجدت في نفسي؛ حين سألت رسول الله ﷺ أن يعطيني سيفه؛ فمنعني إياه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية بنت عبد المطلب؛ عمة الرسول - ﷺ -، وإني أقع في الذروة من قريش حسبًا ومجدًا، ولقد قمت إليه أن يعطيني السيف قبله، فأعرض عني، وأعطاه إياه، والله لأنظرن ما يصنع به.

ثم مضى؛ فتبعته، ومضيت في إثره، فلما غدا قبالة جيش المشركين؛ أخرج عصابته الحمراء، وعصب بها رأسه؛ فلما رآه الأنصار على هذه الحال؛ التفت بعضهم إلى بعض، وقالوا: شد أبو دجانة عصابة الموت على رأسه.

ثم رأيته وقد امتشق سيف الرسول - ﷺ - بيمينه، وطفق يمشي به مختالاً مُتبخترًا بين الصفوف، فنظر إليه الرسول ﷺ، وقال: هذه مشية يبغضها الله ورسوله؛ ألا في هذا الموطن - أي موطن الحرب -.

ثم انطلق أبو دجانة وهو ينشد نشيدًا يهز القلوب هزًا، ويفعم الصدور حمية وشهامة:

أنـــا الـــذي عـــاهـــدني خليلي بالشعب ذي السفح لدي النخيل
ألا أكـــــون آخـــر الأفـــول أضرب بسيف الله والرسول

واستمعها المسلمون، وأبو دجانة يترنم بها وسط السيوف، والكافرون يفرون منه كأنهم الحُمر المستنفرة الفارة، وأخذ يصرع أبطال قريش تحت قدميه، فما لقي أحدًا إلاَ قتله.

وكان في عسكر المشركين رجلٌ دأب على تتبع جرحى المسلمين، والإجهاز عليهم واحدًا بعد آخر، فرأيت أبا دجانة يتجه نحوه، ورأيت الرجل يدنو من أبي دجانة، فدعوت الله أن يجمع بينهما، وأن يجعل مصرع هذا الكافر على يدي أبي دجانة.

فما لبثا أن التقيا، وتبادلا ضربتين بسيفيهما في أقل من طرفة عين، فتلقى أبو دجانة ضربة خصمه بترسه؛ فقدت الترس قدَا – أي شقته شقًا –، أما ضربة أبي دجانة فقد أصابت من المشرك مقتلاً؛ فخلفه وراءه يسبح في دمائه.

ومضى أبو دجانة يقتحم الصفوف ذائدًا عن رسول الله – ﷺ – بسيفه؛ متصدَيًا لأعدائه، فكنت أراه تارة عن يمينه، وتارة عن شماله، وتارة قدامه أو خلفه.

ثم إن أبا دجانة رأى شخصًا يجول بين صفوف المشركين، وهو يثير حماستهم، ويؤلبهم على قتل الرسول ﷺ، فأقبل عليه أبو دجانة، وأهوى على رأسه بسيفه، لكنه ما لبث أن حرف السيف عنه، فاقتربت منه وسألته عن ذلك؛ فقال: لقد عرفت أنها امرأة من اللواتي جاء بهن أبو سفيان معه إلى المعركة، فأكرمت سيف الرسول – ﷺ – أن أقتل به امرأة، وكانت تلك المرأة هند بن عتبة.

عند ذلك عرفت أن الرسول القائد – ﷺ – قد وضع سيفه في موضعه، وقلت: الله ورسوله أعلم.

يا سادة، هذه والله هي الشهامة في أعلى عُلوها..

أعظم الناس بلاءً:

لنترك هنا الزبير بن العوام - ﷺ -، لنتعايش مع شيخ مؤرخي المغازي النبوية أبي عمر الواقدي، وهو يحكي لنا بأسلوبه البليغ مشهد آخر من مشاهد البطولة لأبي دجانة في أحد:

يروي الواقدي عن شيوخه فيقول: أقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي يحضر فرسًا له أبلق، يريد رسول الله - ﷺ -؛ ليقتله: وكان على عثمان لأمة من حديد، وكان رسول الله ﷺ موجه وجه ناحية الشعب يقاتل، فأخذ عثمان يصيح: لا نجوت إن نجوت يا محمد، فيقف له الرسول - ﷺ -، فيضرب عثمان ضربة فيعثر به فرسه في تلك الحفر التي كانت حفرها أبو عامر الفاسق، فيقع الفرس لوجهه، فيخرج عثمان من الحفرة يريد أن يقتل النبي - ﷺ -.

هنا يتحرك إليه الحارث بن الصمة - ﷺ - فتضاربا ساعة بسيفين، ثم يضرب الحارث رجله - وكانت درع عثمان مشمرة - فوقع على الأرض، فقتله، وكان رسول الله - ﷺ - ينظر إلى قتالهما، فقال من الرجل: فقالوا: هذا عثمان بن المغيرة يا رسول الله، فقال: الحمد لله الذي أهلكه.

ويرى عبيد بن حاجز العامري مصرع صديق عمره عثمان بن المغيرة، فأقبل يعدو نحو الحارث كأنه السبُع الضاري، فيضرب الحارث - ﷺ - ضربة قوية على عاتقه، فوقع الحارث جريحًا حتى احتمله أصحابه، ويرى أبو دجانة ما حدث لأخيه الحارث فيقبل نحو عبيد فتناوشا ساعة من نهار، وكل واحد منهما يتقي بالدرقة ضرب السيف، ثم حمل عليه أبو دجانة فجأة فاحتضنه، ثم جلد به الأرض، ثم ذبحه بالسيف كما تذبح الشاة، ثم انصرف نحو النبي - ﷺ -.

يقسم فارس نصفين:

وها هو الواقدي يروي لنا موقف بطولي آخر لأبي دجانة بسنده عن كعب بن مالك - ﷺ -، يقول كعب: أصابني الجراح يوم أحد، فلما رأيت مثْل المشركين

بقتلى المسلمين أشد المثل وأقبحه، قمت فتجاوزت عن القتلى حتى تنحيت، فإذا برجل من المشركين مكتمل العدة الحربية، يصيح: استوسقوا كما يستوسق جُربُ الغنم، فإذا برجل من المسلمين عليه لأمته، فالتقيا، فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه بالسيف، فمضى السيف حتى بلغ وركيه، وتفرق المشرك فرقتين، وكشف المسلم عن وجهه فقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة.

اللهم ارض عن ابن خرشة:

يروى الواقدي بسنده عن شيوخه: لما أقبل عبد الله بن حميد بن زهير حينما رأى رسول الله - ﷺ - سقط على الأرض، أخذ يركض بفرسه نحوه وكان مقنعًا بالحديد، وأخذ يصيح: دلوني على محمد، فوالله لأقتلنه، أو لأموتن دونه، فتعرض له أبو دجانة، فقال: هلم إلى من يقي نفس محمد بنفسه، فضرب فرسه فعرقبها فاكتسعت الفرس، وسقط عبد الله بن حميد على الأرض، ثم علاه أبو دجانة بالسيف وهو يقول: خذها وأنا ابن خرشة، ورسول الله - ﷺ - ينظر إليه ويقول: اللهم ارض عن ابن خرشة كما أنا عنه راض.

نهاية الطوفان:

وفي نهاية الحرب انهمر جموع المشركين من كل جانب على الرسول القائد ﷺ يقذفونه بالنبال، هنا أقبل أبو دجانة على رسول الله وجعل نفسه ترسًا له، والنبال تقع على ظهره وهو منحن لا يشعر بالآلام والأوصاب، هنا بايع الرسول - ﷺ - على الموت، ووهب له نفسه وروحه صائحًا نفسي دون نفسك، وعيني دون عينك.

وكم فزع المشركين لتلك الروح، روح أصحاب النبي - ﷺ -، تلك الروح التي تبدو في الملمات غير جزعة، ولا متعلقة بالوجود الأرضي، وهو منتهى أملهم وغايتهم.

جهاده بعد أحد:

شهد أبو دجانة - ﷺ - المغازي النبوية كلها، وفي شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، أمر رسول الله - ﷺ - بالتهيؤ لحرب بني النضير وقتالهم، فسار أبو دجانة لقتالهم، فاعتصموا بحصونهم، فحاصرهم المسلمون، وملأ الرعب قلوب بني النضير، واشتد الحصار عليهم، وأيقنوا أن حصونهم لا تمنعهم من سوء المصير، وعند ذلك صالحهم النبي - ﷺ - على الجلاء، فخرجوا، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غلال، وسلاح، وعقار.

ولما كان المسلمون قد أخذوها صلحًا دون حرب أو قتال، كانت فيئًا من حق الرسول - ﷺ - يتصرف فيها كيف يشاء، وقد قسمها على المهاجرين دون الأنصار، وبذلك أغنى الله - عز وجل - المهاجرين، وأزال حاجتهم وفاقتهم، ولم يأخذ من الفيء من الأنصار إلا أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة.

بطولته في خيبر:

أبلى أبو دجانة في خيبر أحسن البلاء، فقد خرج أحد فرسان اليهود، ويدعى غزال فدعا إلى البراز، فبرز له الحباب بن المنذر، فقطع يده اليمنى، ثم أجهز عليه، وخرج يهودي آخر فصاح: من يبارز؟ فبرز إليه رجلٌ من المسلمين فقتله اليهودي، وقام مكانه يدعو إلى البراز، هنا يبرز له فارس الأنصار أبو دجانة، وقد عصب رأسه بعصابة الموت فوق المغفر يختال في مشيته، فضربه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه ودرعه وسيفه، فجاء به إلى رسول الله - ﷺ - ففرح بذلك.

يوم حنين:

كان لأبي دجانة في يوم حنين مواقف لا تنسى، فقد كان رجلٌ من هوازن يركب على جمل أحمر، ومعه رمح طويل قد أكثر في المسلمين القتل، فثبت له أبو دجانة، وعرقب جمله، وجاء فارس الإسلام علي بن أبي طالب - ﷺ -

وقطع يد هذا المشرك، وقطع أبو دجانة يده الأخرى، ثم قتلاه، وصيراه عدمًا كأمس الدابر.

صد طوفان المرتدين:

ظل أبو دجانة الشجاع الثائر يبحث عن الشهادة في مظانها وأطلق لسيفه العنان لحرب أعدائه ينافح عن الإسلام والمسلمين بسيف النبي - ﷺ - ما دام الرسول - ﷺ - على قيد الحياة، فلما لحق الرسول الأعظم - ﷺ - بالرفيق الأعلى؛ وضع نفسه وسيفه في طاعة الصديق أبو بكر - رضي الله عنه -.

ولما ارتد بنو حنيفة مع المرتدين، وطفقوا يخرجون من دين الله أفواجًا، وتبعوا المتنبئ الكذاب مسيلمة؛ جهز الصديق - رضي الله عنه - جيشًا كبيرًا حشد فيه وجوه الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكان في مقدمتهم صاحب سيف الرسول أبو دجانة، وقد عقد لواء الجيش لسيف الله المسلول خالد بن الوليد، انصب جند المسلمين على أعداء الله انصباب الهول، فصمد لهم مسيلمة ورجاله صمود الجبال، ودارت بين الفريقين رحى معارك تشيب من هولها الولدان.

وكثر القتل بين الفريقين؛ فما زادتهما كثرة القتلى إلا حمية وحدة وضراوة، ثم ما لبثت أن رجحت كفة المسلمين على المرتدين بعد طول بلاءٍ، وشدة عناءٍ، فانحاز مسيلمة الكذاب والآلاف المؤلفة من جنده إلى الحديقة التي عرفت بعد ذلك بحديقة الموت، فتحصنوا وراء جدرانها الحصينة، وتترسوا خلف أبوابها الموصدة.

قائد قوات الكوماندوز:

كان أبو دجانة - رضي الله عنه - يفكر وهو في أرض المعركة كيف يقتحم هذه الحديقة؛ ليخرج منها أهلها، ليذيقهم العذاب؟ وفي فدائية عجيبة اقتحم جماعة من الصحابة الحديقة، وكان أبو دجانة منهم فقد ألقى بنفسه على الحديقة من فوق أحد جدرانها العالية، فلما سقط على أرضها؛ كسرت ساقه، فلم يأبه لها، ونهض كالأسد الهصور

رافع سيف رسول الله - ﷺ -، يقاتل على قدم واحدة، وجعل يشق الصفوف؛ معتمدًا على رجله الصحيحة، وإذ به ينظر، فيرى مسيلمة الكذاب كأنه جمل أورق، وتقدم وحشي بن حرب، فرماه بحربته فأصابته وخرجت من الجانب الآخر، وفي لمح البصر انطلق أبو دجانة تجاه مسيلمة فضربه بالسيف، فهوى الطاغية على الأرض يتشحط في دمه.

لقد آن وقت الشهادة:

عندما رأى أهل اليمامة ما حدث لنبيهم الكذاب على يد أبي دجانة، كر أصحاب مسيلمة على الفارس الذي يحارب برجل واحدة؛ يريدون القضاء عليه، فأخذ أبو دجانة يصول صولة الأسد، وأبلى أحسن البلاء، وصناديد بني حنيفة يهاجمونه كتلا متراصة، فينكل بهم أيما تنكيل، وما زال يجالدهم ويجالدونه؛ حتى كلت قدمه، وتكاثرت عليه ضربات السيوف وطعنات الرمح، حتى خر صريعًا تحت الراية الخفاقة، لكن أبا دجانة لم يغمض عينيه غمضتها الأخيرة إلا بعد أن رأى جنود المسلمين يرفعون على أرض اليمامة رايات الإسلام.

عباد بن بشر

أنوار السماء:

كان عباد بن بشر الأشهلي حين لاح في آفاق يثرب أول شعاعٍ من أشعة الهداية المحمدية فتى موفور الشباب، غضَ الإهاب، تعرف في وجهه نضرة العفاف والطَهر، وتلمح في تصرفاته رزانة الكهول؛ على الرغم من أنه لم يكن إذ ذاك قد جاوز الخامسة والعشرين من عمره.

وقد اجتمع إلى الداعية المكي الشاب مصعب بن عمير؛ فسرعان ما ألفت بين قلبيهما أواصر الإيمان، ووحدت بين نفسيهما كريم الشمائل؛ ونبيل الخصائل، وقد استمع إلى مصعب بن عمير وهو يرتل آيات ربه بصوته الفضيَ الدافئ، ونبرته الشجية الآسرة؛ فشغف بكلام الله حبًا، وأفسح لها في سويداء فؤاده مكانًا رحبًا، وجعله شغله الشاغل فكان يردده في ليله ونهاره، وحلَه وترحاله، حتى عرف بين الصحابة بصديق القرآن، والإمام المجاهد.

السابق إلى كل خير:

كان عباد بن بشر - رضي الله عنه - شديد الولاء والحب لله، ولرسوله، ولدينه، وكان هذا الولاء يستغرق حياته كلها وحسه كله، ومنذ سمع النبي ﷺ يقول مخاطبًا الأنصار الذين هو واحد منهم: يا معشر الأنصار، أنتم الشعار، والناس الدثار، فلا أوتين من قبلكم.

فمنذ سمع عباد بن بشر هذه الكلمات من رسوله ومعلمه وهاديه إلى الله، وهو يبذل روحه، وماله، وحياته في سبيل الله وفي سبيل رسوله - ﷺ -،

في مواطن التضحية والموت، يجيء دومًا أولاً، وفي مواطن الغنيمة والأخذ، يبحث عنه أصحابه في جهد ومشقة حتى يجدوه، وهو دائمًا عابد تستغرقه العبادة، بطل: تستغرقه البطولة، جواد يستغرقه الجود، مؤمن قويَ، نذر حياته لقضية الإيمان.

كريم الضيافة:

منذ أول لحظة لإسلام عباد بن بشر - رضي الله عنه - جعل نفسه وماله في خدمة الإسلام وأهله، فقد كان رضي الله عنه مضيافًا لمن هاجر من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ فقد فتح داره لأبي حذيفة بن عتبة، وسالم مولى أبي حذيفة، وعتبة بن غزوان المازني وقاسمهم ماله، وآثرهم على نفسه، وكان هؤلاء من أوائل المهاجرين إلى المدينة قبل هجرته - صلى الله عليه وسلم -، فهو واحد من أولئك الأخيار الذين أثنى الله عليه وأشاد بذكرهم في محكم التنزيل فقد قال رب العزة في حقهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: 9).

لكن عباد بن بشر - رضي الله عنه - كان من أشهرهم في كرم الضيافة، وحسن استقبال المهاجرين من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بوجه خاص.

الحكيم الأمين:

كان عباد بن بشر - رضي الله عنه - حكيمًا في أقواله وأفعاله، والحكمة كما نعلم تنبع من الإيمان، والإيمان هو الصدق مع الله، ومع النفس، ومع الناس في جميع الأقوال والأفعال والنيات، ومن أُوتي الحكمة فهو آمن من العثرات والزلات لا يأتي من الأعمال شيء إلا بعد الوثوق من سلامتها ونفعها في العاجل ولآجل.

ولهذا كان الرسول – ﷺ – يبعثه إلى القبائل ليأخذ منها حق الله في المال، وكان الذي يتولى هذا الأمر معروفًا بالأمانة والدقة في الحساب وحسن الطلب، والخبرة الواسعة بأصناف الأموال، والحكمة في تصريف الأمور وفنون الكلام، وغير ذلك من الأوصاف التي لا بد أن تتوفر لنجاح هذه المهمة، وقد أسند له الحبيب ﷺ مغانم حنين؛ ليحفظها ويتصرف فيها بعد الرجوع إليه في ذلك، وكانت يومئذ كثيرة ضخمة لا يكاد يحصيها العادون، وكانت أضخم غنائم للجيش من جيوش العرب حتى هذا الوقت، فقام بهذه المهمة على أكمل وجه.

اللهم اغفر له:

كان الرسول – ﷺ – يتهجد ذات ليلةٍ في بيت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الملاصق للمسجد، فسمع صوت عباد بن بشرٍ وهو يقرأ القرآن رطبًا نديًا كما نزل به جبريل على قلبه فقال:

يا عائشة: هذا صوت عباد بن بشرٍ؟

قالت: نعم، يا رسول الله.

قال ﷺ: اللهم اغفر له.

حامل القرآن في ساحات الوغى:

مع تلك الرقة التي اكتسبها عباد من آيات القرآن كان أسدًا ضاريًا في ميدان القتال والشرف والرجولة، فها هو يشهد المشاهد كلها مع الرسول القائد؛ وكان مقاتلاً بارعًا له من المواقف المشرفة ما يتناسب مع مكانة وقدر رجل يحمل كتاب الله – عز وجل –، وكان رضي الله عنه من الذين شاركوا في قتل اليهودي الخبيث كعب بن الأشرف.

يتعايش مع كلام ربه في كل ثانية:

شهد عباد بن بشر - رضي الله عنه - مع الرسول القائد - ﷺ - المشاهد كلها كما ذكرنا، وكان في كل منها موقف يليق بحامل القرآن، ومن ذلك:

لما عاد الرسول القائد - ﷺ - من غزوة ذات الرقاع، ونزل المسلمون شعبًا من الشعاب ليقضوا ليلتهم، فلما أناخوا رحالهم قال النبي - ﷺ -: من يحرسنا الليلة؟ فقام الأخوين عباد بن بشر، وعمار بن ياسر رضي الله عنهما - وقد آخى بينهما رسول الله ﷺ حينما جاء إلى المدينة - فقالا: نحن يا رسول الله، ثم خرجا إلى فم الشعب، فقال عباد بن بشر لعمار: أتنام أول الليل أم آخره يا أخي؟ فقال عمار: بل أنام أوله يا أخي، فاضطجع عمار غير بعيد.

وبقي عباد بن بشر - رضي الله عنه - يحرس جند النبي - ﷺ -، وأرخي الليل سدوله، وغارت نجومه، وهدأت العيون، وسكنت الجفون، ولم يبق إلا الحي القيوم، عند ذلك تاقت نفس عباد للعبادة، واشتاق قلبه للقرآن، فقام يصلي؛ ليجمع متعة الصلاة إلى متعة التلاوة، وطفق يقرأ سورة الكهف يسبح مع آيات الله البينات، يصعد بروحه وقلبه إلى السماء يلامس النجوم.

ويراه رجل من المشركين يصلى في فم الشعب فعرف أنه حارس الجيش الإسلامي، فقال: لئن ظفرت به لأظفرن بجيش محمد، فوتر قوسه، وتناول سهمًا من كنانته، ورماه به فوضعه فيه، فانتزعه عباد من جسده ورمي به، ومضي يتدفق في تلاوته، ورماه الرجل بالآخر فانتزعه، ومضي يتدفق في تلاوته، ورماه الرجل بالثالث فانتزعه، وإذا الدماء تنزف منه فزحف نحو عمار، وأيقظه قائلاً: لقد أثخنتني الجراح يا أخي، عليك بثغر رسول الله - ﷺ -.

لما رأي الرجل المشرك عمار بن ياسر قائمًا ولي هاربًا، وَأَمَّا عمار فنظر إلى عباد ويا لهول ما رأى لقد أثخنته الجراح، فقال: رحمك الله يا أخي، هل

أيقظتني عند أول سهم رماك به؟ فقال عباد واسمعوا إلى ما يقول: يا أخي، كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أفرغ منها، وايم والله، لولا خوفي أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله - ﷺ - بحفظه؛ لكان قطع نفسي أحب إليَ من قطعها.

أسد حروب الردة:

مضت الأيام على عباد بن بشر بعد جهاد طويل مع الرسول القائد - ﷺ -، ولم ينل الشهادة، ولحق الرسول القائد - ﷺ - بربه بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وتولى الصديق - رضي الله عنه - الخلافة وأمر الناس.

وما كاد نبأ موت الرسول القائد - ﷺ - ينتشر في البلدان حتى تصور المرجفين والموترين، والذين في قلوبهم مرض - ممن كان إسلامهم مداهنة وتقية - أن الرسول - ﷺ - لم يمت وحده، وإنما مات الإسلام معه، فارتدوا عن الإسلام، ومنعوا الزكاة، وأعلنوا الحرب على دولة الإسلام، وجمعوا جموعهم لقضاة على الإسلام في عقر داره.

ولما نشبت حروب الردة جهز الصديق جيشًا كثيفًا للقضاء على فتنة مسيلمة الكذاب، وإخضاع المرتدين الذين ظاهروه وإعادتهم إلى دين الإسلام، فكان عباد بن بشر في طليعة المجاهدين، فقد كان المجاهد البطل ما زال لم يفقد الأمل في الشهادة في سبيل الله تعالى، وكان رضي الله عنه يحمل مسئولياته كزعيم للأنصار في استبسال منقطع النظير.

وفي موقعة سهل عقرباء التي واجه المسلمون فيها جيشًا من أقسى وأمهر الجيوش تحت قيادة مسيلمة الكذاب أحس عباد بالخطر الذي يتهدد الإسلام، وكانت تضحيته وعُنفُوانه يتشكلان وفق المهام التي يلقيها عليه إيمانه،

ويرتفعان إلى مستوى إحساسه بالخطر ارتفاعًا يجعل منه فدائيًا لا يحرص على غير الموت والشهادة.

رؤيا عجيبة:

قبل أن تبدأ المعركة بيوم رأى عباد بن بشر في منامه رؤيا لم تلبث أن فسرت مع شمس النهار، وفوق أرض المعركة الهائلة الضارية التي خاضها المسلمون، ولندع صحابيًّا جليلاً هو أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه -، يقص علينا الرؤيا التي رآها عباد بن بشر وتعبيره لها، ثم نرى موقفه الباهر في القتال الذي انتهى باستشهاده، يقول أبو سعيد:

قال لي عباد بن بشر: يا أبا سعيد، رأيت الليلة كأن السماء قد فرجت لي ثم أطبقت عليَ، وإني لأراها إن شاء الله الشهادة، فقلت له: خيرًا، والله رأيت يا أبا الربيع، وإني لأنظر إليه يوم اليمامة، وإنه ليصيح بالأنصار: أحطموا جُفون السيوف، وتميزُوا من الناس، فسارع إليه أربع مئة رجل، كلهم من الأنصار حتى انتهوا إلى باب الحديقة، فقاتلوا أَشَدَّ القتال، واستشهد عباد بن بشر رحمه الله، ورأيت في وجهه ضربًا كثيرًا، وما عرفتُه إلا بعلامة كانت في جسده.

أمير الشهداء:

نعود مرة أخرى لأحداث المعركة لما طلع النهار وبدأ القتال عنيفة، رأى عباد بن بشر المعركة الضارية تتجه في بدايتها لصالح الأعداء هنا تذكر كلمات الرسول القائد - ﷺ - لقومه الأنصار: أنتم الشعار، والناس الدثار، فلا أوتين من قبلكم، وملأ الصوت روعه وضميره، حتى لكأن الرسول القائد - ﷺ - قائم الآن يردد كلمته هذه.

وأحس عباد أن مسئولية العراك كلها إنما تقع على كاهل الأنصار وحدهم، أو علي كاهلهم قبل سواهم، هنالك اعتلى ربوة وراح يصيح: يا معشر الأنصار، احطموا جفون السيوف، وتميزوا من الناس، ولا تتركوا الإسلام يؤتى من قبلكم.

وما زال يردد ذلك النداء حتى أجتمع عليه نحو أربعمائة من وجوه الأنصار على رأسهم أبو دجانة صاحب سيف رسول الله، والبراء بن مالك، وأبي عقيل الأنصاري، وثابت بن قيس - ﷺ - أجمعين.

ثم مضى عباد بن بشر بمن معه من أسود الأنصار يشق الصفوف بسيفه، ويلقى الحتوف بصدره، وقاتل البطل ﷺ القتال اللائق به كرجل، وكمؤمن، وكأنصاري، حتى كسرت شوكة مسيلمة الكذاب ومن معه وألجئوا إلى حديقة الموت.

عبد الله بن عبد الله

حرب ضروس:

كان رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول من أشراف الخزرج في يثرب، وكان رئيسًا مطاعًا، وكانت الخزرج قد اجتمعت على أن يتوجوه عليهم، فلما بعث النبي - ﷺ - وهاجر إلى المدينة انصرف الناس عنه واتبعوا رسول الله - ﷺ - فامتلأ قلب عبد الله حقدًا على رسول الله - ﷺ - وأضمر في قلبه عداوته حتى آخر لحظة في عمره، لم يفتر عبد الله بن أبى منذ ذلك الوقت لحظة عن عداوته للنبي - ﷺ - وإيذائه له، ولكنه كان لا يجهر بذلك، بل كان يدبر له المكائد والمؤامرات سرًا.

وها هي أول تلك المؤامرات التي دبرها ضد النبي - ﷺ -، وذلك عندما هاجر النبي - ﷺ - من مكة إلى المدينة هربًا من إيذاء قريش له، ولأصحابه وحرصًا منه على أن يقيم للإسلام دولة في يثرب فازدادت قريش غيظًا وحقدًا على أن فاتهم المسلمون ووجدوا لأنفسهم مأمنًا ومقرًا بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول، وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة، كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باتة: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أُبى ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة، يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبى ومن كان معه من عبدة الأوثان؛ اجتمعوا لقتال رسول الله - ﷺ -، فلما بلغ ذلك النبي -

ﷺ -؛ لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟ فلما سمعوا ذلك من النبي - ﷺ - تفرقوا.

امتنع عبد الله بن أبى عن إرادة القتال عند ذاك؛ لما رأى خورًا في أصحابه، ولكن يبدو أنه كان متواطئًا مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود؛ ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي - ﷺ - التي كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين.

فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - أنه قال: ذهب النبي - ﷺ - بعد الهجرة يعود سعد بن عبادة في مرضه أصابه قبل وقعة بدر، فركب حمارًا وأردفني وراءه، وسار حتى مر بمجلس فيه عبد الله أبى بن سلول، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود، وكان من المسلمين ابن رواحة.

فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خَمر عبد الله بن أبى بن سلول أنفعه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف ونزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًا فلا تؤذينا به في مجالسنا، وارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال ابن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمين والمشركين واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي - ﷺ - يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب وسار حتى دخل على سعد بن عبدة، فقال النبي - ﷺ -: ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ - يقصد ابن سلول - قال سعد: وما قال؟ قال رسول الله: قال كذا وكذا، فقال سعد: اعف عنه يا رسول الله، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اجتمع أهل هذه البحيرة - يقصد أهل المدينة - على أن يتوجوه، فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك، شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت.

في بدر الكبرى:

لقد شهد عبد الله بن عبد الله - رضي الله عنه - المشاهد كلها مع الرسول القائد - ﷺ -، ففي غزوة بدر انطلق جيش المسلمين نحو بدر، وكان عبد الله في طليعة الجيش الإسلامي لقد خرج لتكون كلمةُ الله هي العُليا، بينما مكث أبوه رأس النفاق مع ثلة من المنافقين في المدينة وقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله - ﷺ - وعلى أصحابه، وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول يؤلمه أن يخرج ابنه عبد الله إلى ساحة الفداء، وقد حاول أن يثنيه عن عزمه وحاول أن يحد من عزيمته، ولكن رأس النفاق ذهبت محاولاته أدراج الرياح دون جدوى.

كان عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه قد خرج؛ ليصدق الله عز وجل فيما بايع عليه رسوله ﷺ؛ ففي ساحة الفداء عند بدر قام عبد الله بواجبه كبطل من أبطال الأنصار فقد أبلى أحسن البلاء وأصدقه، فكان يقذف بنفسه بين جموع قريش معرضًا نفسه للشهادة؛ لأنه يرى في الشهادة راحة له في الدنيا قبل أن تكون له في الآخرة نعيم مقيم، لقد كان همه أن يكتب في صحائف الشهداء لكي يمحو صفحة أبيه المدنسة بالأوزار العظام.

الخائن يوم أحد:

في يوم أحد هذا اليوم العصيب كان لرأس النفاق الأثر الأكبر لهزيمة المسلمين، فعندما خرج الرسول القائد - ﷺ - إلى أحد لصد الغزو الوثني عن المدينة، وما أن وصلوا إلى أحد؛ حتى كان رأس النفاق قد لعب لعبته وعاد إلى المدينة بثلث الجيش، فأصاب ابنه عبد الله على صنيعه هذا ما أصابه من الغم والحسرة.

أسد أحد:

عند بدأ العراك في أحد خاض عبد الله المعركة في باسلة نادرة وصبر صبر الأبطال، وكان سيفًا بتارًا من سيوف الله فما استقام أمامه من قريش جبار ولا

عنيد طرفة عين، وأصر عبد الله على الخلاص من آل بيته من المنافقين الذين خرجوا مع قريش يشهرون سيوفهم جميعًا في وجه الإسلام خلف كبيرهم أبي عامر الفاسق ابن خالة عبد الله بن أبى سلول، وانقض عليهم عبد الله كالصاعقة وأخذ يقتل فيهم حتى أصيب إصابات بالغة وسقطت ثنيته – وهي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدمة الفم –، فأمره الرسول القائد – ﷺ – أن يتخذ ثنية من ذهب.

صادق الإيمان:

ها هو عبد الله بن عبد الله – رضي الله عنه – يقف موقفًا عظيمًا ويتبرأ من والده رأس النافق بسبب ما قاله في حق النبي – ﷺ –، ففي غزوة بني المصطلق حاول رأس المنافقين أن يثير الفتنة بين المسلمين؛ ليقتل بعضهم بعضًا، في قد جاء في البخاري في باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: 8).

فعن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – أنه قال: كنا في غزاة فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها مُنتنة.

فسمع عبد الله بن أبى ذلك فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُ منها الأذل، فبلغ النبي – ﷺ – ذلك، فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي – ﷺ –: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.

فلما علم عبد الله بن عبد الله – رضي الله عنه – بالأمر جاء إلى المسجد، فقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت تريد ذلك فمُرني بقتله فوالله إن أمرتني

بقتله لأقتلنه، وإني أخشى يا رسول الله، إن قتله غيرى أن لا أصبر عن طلب الثأر فأقتل به مسلمًا فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أني من أبرَ أبنائها بأبيه.

فقال له رسول الله – ﷺ – خيرًا ودعا له وقال له: برَ أباك، ولا ير منك إلا خيرًا، فلما وصل رسول الله – ﷺ – والمسلمون من تلك الغزاة وقف عبد الله بن عبد الله لأبيه بالطريق، وقال: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله بالدخول، فأذن رسول الله – ﷺ – بدخوله.

من نوادر البر:

كان عبد الله – رضي الله عنه – يعلم أن أباه منافقٌ عليم النفاق، وأنه لا يجوز له أن يُطيعه في معصية الله، لكنه يعلم أنه يجوز له أن يكون بارًا به في أمور الدنيا، ففي سنة تسع من الهجرة توفي المنافق عبد الله ابن أبى، فكان لابنه عبد الله رضي الله عنه موقفٌ لطيفٌ من حيث بره بأبيه، بعد أن استأذن رسول الله – ﷺ –.

فقد أخرج الإمام مسلم رحمه الله بسنده عن عبد الله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما –، أنه قال: لما توفي عبد الله بن أبى بن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله – ﷺ –، فسأله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول الله – ﷺ – ليصلي عليه؟

فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله – صلى الله عيه وسلم –: إنما خيرني الله، فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ (التوبة: 80)، وسأزيد على سبعين، فقال عمر: إنه منافقٌ، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم نزل قول رب العزة سبحانه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ (التوبة: 84).

البطل الشهيد:

ما زال عبد الله يجاهد ويخرج مع الرسول القائد - ﷺ - في كل غزواته طلبًا للشهادة في سبيل ربه، ولكن الأعمار بيد الله تعالى فقد كان يخرج سليماً في كل عراك، حتى كان الرسول القائد - ﷺ - يُثنى عليه ويُكرمه، وَيُقَدَّر له مواقفه العطرة في ساحات الفداء والتضحية، وفي محبته الصادقة لله ولرسوله، حتى دارت السنون وغادر رسول الله ﷺ الدنيا إلى الرفيق الأعلى، وكان همّ عبد الله بن عبد الله - رضي الله عنه - أن يقر عين الرسول القائد - ﷺ - باستشهاده، فلعل ذلك فيه ما يطغى على آثار أبيه بعض الشيء، ولكن قضاء الله لم ينزل من السماء، وكل شيء بمقدار.

وصبر الحبيب على فراق حبيبه، وكان يحز في نفسه هذا الفراق الصعب على قلبه، بقدر ما كان يحز في نفسه بقاؤه حَيًّا، ولكن قد جاءت ساعة الرحيل، ولقد حان الوقت أن يجتمع الحبيب مع حبيبه، لقد حان الوقت أن تستقبل السماء عريس جديد، لقد جاءت معركة اليمامة الطاحنة هذا اليوم الذي سوف يزف العريس إلى جنات ربه، فهيا بنا لنرى هذا المشهد الختامي من حياة هذا الصحابي الجبل.

لما تولى الصديق أمر الخلافة ارتدت معظم قبائل الجزيرة العربية ولم يبقى إلا القليل على الإسلام، ولقد أصبح الإسلام وعاصمته في خطر محدق من كل جانب، فأخذ الصديق يدعو المؤمنون إلى الجهاد في سبيله دينهم، وارتفع اللواء الخفاق، وسارت جيوش الإيمان والتوحيد لدك معاقل المرتدين، وكان عبد الله بن عبد الله - رضي الله عنه - في طليعة الفرسان الذين استجابوا لهتاف اَلْحَقّ، وداعي إعلاء كلمة الله - عز وجل -، وها هو عبد الله يسير نحو أرض اليمامة مع سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنهم.

وفي أول الصفوف برز عبد الله فكان كالأسد الهائج ينطلق يمينًا وشمالاً يخترق الصفوف في باسلة نادرة، فأذهل المرتدون بطشه وصبره، وعظمة تضحيته، وما لبثوا أن أدخلوه في ثغر أحدثها فيهم حتى أحاطوا به من كل جانب، هنا أخذت نبالهم تخترق الجسد العظيم، وأخذت السيوف المجنونة تحتوشه من كل جانب حتى سقط صريعًا شهيدًا؛ ليحظى بوسام الأحياء عند ربهم وينال عن جدارة والاستحقاق وسام الشهادة، وحلية الاستشهاد في سبيل الله عز وجل.

أبو حذيفة ابن عتبة

الشهيد الصادق:

ليس التاريخ أسطورة كاذبة مضى الزمن عليها لتصورها وتجسدها بعض الشخصيات ليتكلموا عنها ببعض الصفات دون الرجوع إلى التاريخ والإثبات، بل في التاريخ شخصيات امتثلت بمبادئها وعرفها القويم منذ نشأتها إلى تاريخ تسليم الروح لبارئها، فكتبت وخطت لنا أروع البطولات وأرقى وأسمى التضحيات، فكانت جديرة بالذكر عبر الذاكرين لها بحق وعبر الواصفين لها بصدق، إننا مع شخصية فذة فريدة من جيل السماء إنه الشهيد الصادق أبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ﷺ، فتعال أيها العاشق لحياة الأبطال لنتعرف على ومضات من سيرة الشهيد الهمام.

مع السابقين:

كان أبو حذيفة من السابقين إلى دوحة الإسلام، وكان إسلام أبا حذيفة إسلام الأصفياء وكان في ريعان الشباب حول الثلاثين من عمره، لم يدفعه إلى الإسلام رغبة من رغائب الدنيا، فهو واحد من أبناء ذروة الشرف والمكانة في قريش، دلف إلى الإسلام في مشرق فجره لا يريد سوى وجه الله تعالى ومرضاته ومرضاة رسوله – ﷺ –.

الصابر على البلاء:

على الرغم من سيادة أبيه عتبة شيخ الجاهلية ومكانته الكبرى في قريش، فإن أبا حذيفة وأمثاله من السابقين كانوا يعيشون حياة البلاء والاضطهاد داخل

بيوتهم وخارجها، ويؤذون فوق أرض مكة وبطحائها، يتجرعون مرارة الصبر، ويتوقعون البلاء في كل لحظة ويترقبون العذاب يُصبَ عليهم من كل جانب، وقد تفنن المشركون في إظهار الأذى لهؤلاء تفنن عجيب ثبت أمامه المسلمون ثبات الرواسي الأعلام.

كان أبو حذيفة ثابت الأساس في إيمانه أسلم قبل أن يدخل النبي - ﷺ - الدار الأرقمية مستترًا بدعوته متخفيًا بأصحابه عن طواغيت الشرك وفجارهم، الذين كان أبوه عتبة بن ربيعة في طليعتهم ويشد أزره أخاه شيبة وابنه الوليد وابنته هند وعدد من كبراء بني عبد شمس ممن لم تنفذ أنوار الإسلام إلى قلوبهم القاسية وعقولهم المتحجرة.

وقد احتمل أبو حذيفة ما احتمل في سبيل ربه ونبيه ودينه الحق، ولما اشتد بهم الإيذاء؛ أذن الله تعالى للمسلمين في الهجرة إلى أرض الحبشة، فكان أول من خرج من المسلمين فار بدينه إلى أرض الحبشة أبو حذيفة مراغمًا لأبيه شيخ الجاهلية هاربًا ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو مسلمة مراغمة لأبيها - خطيب قريش في الجاهلية والإسلام -، فارة بدينها إلى الله تعالى، ومعه في هذه الرحلة المباركة أخوه سالم مولى أبي حذيفة - ﷺ -.

ولما هاجر النبي - ﷺ - إلى المدينة كان أبو حذيفة من السابقين إلى الهجرة إلى المدينة، ولقد أخذ ﷺ ينهض بتعبات المؤمن المجاهد في سبيل الله، فبدأ بالاشتراك في السرايا والمعارك الكبرى في العهد النبوي، ولقد كان له في بدرٍ أمر عجيب.

عند بدر:

عندما اصطف الفريقان في ساحة المعركة برز شيخ الجاهلية عتبة بن ربيعة من صفوف قريش معه أخوه شيبة، وابنه الوليد، ونادى للمبارزة، وقال: يا محمد، اخرج لنا أكفاءنا من قومنا، واستجاب له رسول الله ﷺ، وقال: قم يا عبيدة ابن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، هنا تقدم أبو حذيفة بن عتبة إلى رسول الله - ﷺ

- يطلب منه أن يجيزه لمبارزة أبيه، ولكن رسول الله - ﷺ - لم يقبل منه، فرده عن عزمه، فاستجاب لرسول الله استجابة الجندي المطيع لقائده الأمين طاعة مطلقة.

في صحبة الحبيب:

مضت بدر الكبرى، وقر المسلمون بنصر الله، ودارت عجلة الزمان وأبي حذيفة يسعى للشهادة، فقاتل في أحد، والخندق، وخيبر، ولم يتأخر عن مشهد أو موقف أو غزوة شارك فيها الرسول القائد - ﷺ -، ومضت الأيام حتى لحق رسول الله - ﷺ - بالرفيق الأعلى وهو راض عن أبي حذيفة كل الرضا، ولكن ذلك لم يقعد بأبي حذيفة عن طلب الشهادة، وظل يرجو ربه أن يمنَ عليه بتلك الشهادة، واستجاب الله تعالى لدعائه وتضرعه.

فتنة الردة:

بعد موت الرسول القائد - ﷺ - ظن المحاربين للإسلام أن الإسلام أصبح لقمة سائغة يمكن ابتلاعها، فارتدت معظم القبائل العربية، واشرأب النفاق، وجاءت التهديدات إلى دولة الإسلام من كل مكان، فوقف الخليفة الصديق رضي الله عنه، والصحابة من خلفه في وجه هذه المحنة في صلابة الجبال الراسيات، والقمم الشامخات في مهب الريح.

ثم دارت رحى حروب الردة، ومن أشد معاركها كانت معركة اليمامة التي قاد فيها خالد بن الوليد - رضي الله عنه - جيش المسلمين لقتال جيش مسيلمة الكذاب الذي جمع لقتال المسلمين جيشًا عظيمًا، دارت المعركة ووقعت مقتلة في الجيشين لم يعهد مثلها، وجعل الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتًا حتى قتل.

وقال المهاجرون لسالم مولى أبا حذيفة: نخشى أن نؤتي من قبلك يا سالم؟

فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس عضو على أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدمًا، وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي، فقتل شهيدًا رضي الله عنه.

يا أهل القرآن زينوا القرآن بأفعالكم:

لما أشتد القتال أكثر وأكثر على المسلمين وقف أبو حذيفة كالطود العظيم يضرب بسيفه البتار جنود مسيلمة، فأخذوا يترنحون تحت قدميه كالذباب، وهو يزأر بصوت يزلزل الجبال: يا أهل القرآن زينوا القرآن بأفعالكم، ثم حمل بمن معه على جيش المرتدين حتى أبعدهم عن قلب الجيش الإسلامي، وأصيب البطل عند ذلك بجراح شديدة أثبتته ثم سقط – رضي الله عنه – ودماؤه الطاهرة تسيل على أرض اليمامة.

معًا في الدنيا، ومعًا في الآخرة:

لما رأى سالم مولاه أبي حذيفة وهو يسقط على الأرض شهيد، انطلق نحوه وهو يصيح بأعلى صوته: أخي أبو حذيفة، أخي أبو حذيفة، فلما وصل إليه وجده قد خرجت روحه ليلحق بركب الشهداء في الجنة، فوقف سالم عند جسد أبي حذيفة وهو يحمل الراية ويقول: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، وقاتل سالم يومها أشد القتال حتى أحيط به، وكان يحمل اللواء بيمينه فقطعت، ثم تناولها بشماله فقطعت، ثم اعتنق اللواء وجعل يقرأ قول رب العزة سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: 144).

إلى أن قتل فوقع على الأرض شهيد إلى جنب رفيق حياته أبي حذيفة، وأخذ يقول: معًا في الدنيا، ومعًا هناك إن شاء الله، فوجدوهما بعد انتهاء المعركة ورأس أحدهما عند رجلي الآخر، فقد جمع بينهما الموت، كما كانت تجمع بينهما الحياة ليلتقيا إن شاء الله في جنات النعيم.

عبد الله بن سهيل

مع السابقين:

لم يعرض خطيب قريش سهيل بن عمرو عن الإسلام فحسب، وإنما طفق يصد الناس عن سبيل الله بكل وسيلة، ويصب على السابقين إلى الإسلام سوط عذابه ليفتنهم عن دينهم ويردهم إلى الشرك.

ولما يخطر ببال سهيل بن عمرو أن في وسع أحد من قريش أن يخرج على سلطانه، أو يخالفه في أمر ذي بال، فهو خطيب الجزيرة العربية، وأحد أعظم رجال مكة، لكن سهيل ما لبث أن فوجئ بخبر وقع عليه وقع الصاعقة، وذلك حين نمي إليه، أن ابنه عبد الله من السابقين إلى الإسلام، فلما علم بذلك صب عليه عذاب شديد ليرجع عن دينه، لكن عبد الله رفض الخضوع لسطوة أبيه.

الثابت في المحنة:

لما أذن النبي - ﷺ - لأصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة؛ فر عبد الله وأخته أم كلثوم تخلصًا من أذاه وأذى قريش، ثم شاء الله أن تصل الأخبار كاذبة إلى مهاجري الحبشة بأن قريشًا قد أسلمت، وأن المسلمين باتوا يعيشون بين أهليهم بسلام؛ فعاد فريق منهم إلى مكة، وكان في جملة العائدين عبد الله بن سهيل.

لم تكد أقدم عبد الله تطأ أرض مكة؛ حتى أخذه أبوه وكبله بالقيود، وألقى به في مكان مظلم من بيته، وجعل يفتن في تعذيبه، ويلج في إيذائه، حتى أظهر الفتى ارتداده عن دين الإسلام، وأعلن رجوعه إلى ملة آبائه وأجداده، فسري سهيل وقرت عينه لذلك وشعر بنشوة النصر على محمد.

ثم ما لبث المشركين أن عزموا على منازلة رسول الله - ﷺ - في بدر، فخرج المشركون وكان على رأس الجيش الوثني سهيل بن عمرو وخرج عبد الله معه - وهو يكتم إسلامه -، وكان سهيل متشوقًا لأن يرى عبد الله يشهر السيف في وجه محمد بعد أن كان إلى عهد قريبٍ واحد من أتباعه.

ولكن الأقدار كانت تخبئ لسهيل ما لم يكن يقع له في حساب إذ ما كاد يلتقي الجمعان على أرض بدر حتى انحاز الفتي المؤمن إلى صفوف المسلمين، ووضع نفسه تحت راية الرسول القائد - ﷺ -، وامتشق حسامه ليقاتل به أباه ومن معه من الوثنيين.

إسلام أبيه:

دارت الأيام دورتها وإذا بقريش تهزم هزيمتها الساحقة، وإذ برسول الله - ﷺ - يدخل مكة فاتحًا، ولقد علم سهيل مكانة ابنه عبد الله عند رسول الله - ﷺ - فسأل ابنه أن يذهب إلى رسول الله - ﷺ -؛ ليؤمنه، فأتي عبد الله إلى رسول الله، فقال: أبي أتؤمنه يا رسول الله، جعلت فداك؟ فقال: نعم، يا عبد الله، هو آمن بأمان الله، فليظهر، ثم التفت إلى أصحابه وقال: من لقي منكم سهيل فلا يسيء لقاءه، فلعمري أن سهيل له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، ولكن قدر فكان.

إلى الرفيق الأعلى:

وبعد جهاد طويل مع الرسول القائد - ﷺ - رجاء الشهادة في سبيل الله ولكن عبد الله بن سهيل لم يدركها إلا بعد وفاته - ﷺ -، عندما جاء يوم اليمامة في زمن الصديق لمحاربة المرتدين ورأس الكفر مسيلمة الكذاب، فاستشهد بعد قتال بطولي عظيم وكان له يومئذ ثمان وثلاثون سنة، ولما حج الصديق لقي أباه سهيل بمكة فعزاه، فقال سهيل: يا خليفة رسول الله، بلغني أن رسول الله، قال: يشفع الشهيد لسبعين من أهله، فأرجو أن يبدأ بي.

عبد الرحمن بن ثعلبة

الشهيد صاحب اليد المقطوعة:

الإسلام عزيز بنفسه عزيز بأهله، رضيه الله للناس دينًا، وأتم به النعمة على من اعتنقه عن يقين وأخلص فيه لله رب العالمين، وجاهد في سبيل نصرته جهاد الواثقين بنصر الله لعباده المرسلين وجنده المخلصين، وعبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري واحد من أولئك الذين أعزهم الإسلام، وأعز الإسلام بهم، فكان رجلاً قد اكتملت فيه أوصاف الرجولة كلها، وبطلاً قد تمت له سمات البطولة في أسمى معانيها؛ فصنع لنفسه تاريخًا عامرًا بالمآثر الخالدة، زاخرًا بالبطولات النادرة والمواقف الإنسانية السامية.

شروق الشمس من جديد:

قام مصعب - رضي الله عنه - يحمل أمانة الدعوة إلى الله فاستطاع أن يستميل القلوب وأن يأخذ بأيدي العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الاخرة، حتى أسلم الكثير من أهل يثرب، وكان من بينه هؤلاء أبو عقيل عبد الرحمن بن ثعلبة - رضي الله عنه - الذي كان على موعد مع سعادة الأبد وخيرى الدنيا والآخرة، فلقد لامس الإيمان شغاف قلبه.

في صحبة المصطفى:

ما إن أسلم عبد الرحمن حتى تاقت نفسه إلى لقاء الحبيب - ﷺ -، وجاءت تلك اللحظة التاريخية التي لن تتكرر أبدًا عند العقبة، عندما خرج الأنصار لمبايعة رسول الله - ﷺ -، وكان من بين من خرج لمبايعة النبي - ﷺ - بيعة

العقبة الثانية أبو عقيل عبد الرحمن بن ثعلبة - ﷺ - الذي كان في أشد شوقه للقاء الحبيب ﷺ لينهل من هذا المعين الصافي ما يثلج صدره؛ وليقبس من هديه وحكمته، وأخلاقه العذبة.

ثم عاد عبد الرحمن إلى المدينة، وقد امتلأ قلبه بالسعادة التي لو قسمت على أهل الأرض؛ لوسعتهم أجمعين.

ولما اشتد الإيذاء بأصحاب الحبيب - ﷺ -؛ أذن لهم بالهجرة إلى المدينة المنورة، وخرج المهاجرون إلى المدينة؛ فرارًا بدينهم من بطش قريش، فنزلوا في رحاب إخوانهم من الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان، وانتظر عبد الرحمن بن ثعلبة في شوق قدوم المصطفى - ﷺ - المدينة، فكان له ذلك بعد عدة أشهر من هجرة المهاجرين، ونعم عبد الرحمن بن ثعلبة بصحبة الحبيب - ﷺ -، بل وشهد معه جميع المشاهد حتى جاءت تبوك التي كان له فيها موقف عظيم.

صاحب الصاع:

ذكر ابن حجر العسقلاني في ترجمته في الإصابة على أنه صاحب الصاع، ويعني بذلك أنه هو الذي تصدق بالصاع فلمزه المنافقون، وقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل قول رب العزة سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: 79).

وذكر ابن حجر ما رواه الطبري وقال: جاد عبد الرحمن بن عوف ﷺ بنصف ماله، وأقبل رجل من فقراء الأنصار المسلمين يقال له الحثحاث أبو عقيل، فقال: يا رسول الله، ابت أجرَ الجرير على صاعين من تمر، فأما صاع فأمسكته لعيالي، وأما صاع فها هو هذا، فقال المنافقون: إن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل.

حروب الردة:

عاش عبد الرحمن بجوار الحبيب ﷺ أجمل أيام حياته حتى لحق الحبيب - ﷺ - إلى جوار ربه في أوائل العام الحادي عشر للهجرة، وحزن أبو عقيل على النبي - ﷺ - حزن شديد فقد مات الحبيب وهو عنه راضٍ، ولما علمت القبائل العربية؛ ارتد منها من ارتد، وكان أخطر هؤلاء المرتدين بنيِّ حنيفة وكذابهم مسيلمة.

واستفحل أمر مسيلمة الكذاب، واشتد على المسلمين فقد اجتمع له أربعون ألف من قومه بني حنيفة، وظاهرهم نحو من عشرين ألف من الأحلاف، فكان جيشه أقوى جيش عرفه العرب حتى ذلك اليوم، وكان في الوقت نفسه يزيد أضعافًا مضاعفة على جيش خليفة المسلمين أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -.

ولم يكن الخطر الدَّاهِم الذي حَلَّ بالمسلمين آنذاك مقصورًا على مسيلمة الكذاب وجيشه اللَجب فقط، وإنما كان يبرز هذا الخطر أيضًا في المرتدين الآخرين، فقد رمى الصديق - رضي الله عنه - مسيلمة الكذاب بجيش يقوده عكرمة بن أبي جهل - رضي الله عنه -، لكن مسيلمة نكبهم نكبة أطارت صواب المسلمين.

هَزَّتْ هزيمة عكرمة - رضي الله عنه - ضمائر المسلمين هَزًّا، وفتحت عيونهم أكثر من ذي قبل على الخطب اَلدَّاهِم، وهب الخليفة؛ لاستنقاذ الإسلام والمسلمين من هذا الخطر المُحيق فأخلى بعض الساحات من جند المسلمين، وتغاضى - إلى حين - عن المرتدين الذين أبوا دفع الزكاة، وذلك؛ ليحشد لمسيلمة أكبر جيش يستطيع حشده، وليوفر لهذا الجيش أضخم طاقة تكفل له النصر بإذن الله.

كوَن الصديق جيشه من فيالق ثلاثة أولها: فيلق المهاجرين الذين كابدوا في سبيل الله ورسوله - ﷺ - ما كابدوا، وعانوا من أجل الدعوة ما عانوا، وبنوا بأيديهم صرح الإسلام لبنةَ لبنةَ، ومزجوا ترابها بالعرق والدموع.

وثانيها: فيلق الأنصار الأبرار الذين نصرُوا رسول الله - ﷺ -، وآزروه ومنعوه، وحاربوا معه أعداء الله، فشهدت لهم الحروب بالبسالة والإقدام.

وثالثها: فيلق أبناء البوادي أصحاب القوة والبأس والنجدة.

ثم جعل في الجيش جمهرة من اَلْقُرَّاء حملة كتاب الله، وكان عليهم حريص وبهم ضنينًا، ثم ضم إليهم البدريين على الرغم من أنه كان يقول عنهم: لا أستعمل هذه النخبة من صحابة رسول الله - ﷺ - في حرب، وإنما أستبقيهم لصالح الأعمال فإن الله - تبارك وتعالى - يدفع بهم من البلاء أكثر مما يأتي على أيديهم من النصر ثم عقد لواء الجيش لسيف الله المسلول خالد بن الوليد - رضي الله عنه -.

الْتقى الجمعان على أرض اليمامة فَصَفَّ مسيلمة جنوده بسهل عقرباء، وجعل وراء الجيش النساء، والأطفال، والأموال، وصفَ خالد جنوده في قبالة جيش عدوه، ووقف الجيشان يَتَرَبَّصَانِ الأمر بالهجوم الكاسح، وكان كل من الفريقين يرى عين اليقين أن هذه المعركة، إنما هي معركة فناء أو بقاء، اشتبك الطرفان وقاتل المرتدون بشراسة، وانصب بنو حنيفة على صفوف المسلمين انصباب الصخور، وتدفقوا عليهم تدفق السيل، وكانت كسرة عظيمة للمسلمين كادت أن تقضي عليهم، وأزيل خالد بن الوليد عن فسْطاطه، ووقعت زوجته أم تميم في قبضتهم، فهموا بقتلها لولا أن أجارها رجلا منهم.

تلقى خالد الصدمة رابط الجأش ثابت الجنان، فصاح في الجيش: امتازوا أيها الجند، امتازوا؛ ليعلم بلاء كل فريق منكم، وليعرف المسلمون من أين أُتوا.

فجرت صيحة خالد بن الوليد حمية المسلمين لدين الله، وأججت أشواقهم إلى الاستشهاد في سبيل الله ورفعت عن أعينهم الحجب، فرأوا قصور الجنة مفتحة الأبواب؛ لاستقبال الشهداء، عند ذلك برزت في صفوف المسلمين بطولات لمْ تخطى يد التاريخ أجلَ منها وأعظم، وظهرت في جند الله بطولات لم تضم أسفاره أعز منها ولا أكرم.

أسد الأنصار يلبي النداء:

كان في طليعة هؤلاء الأبطال بطل هذه السطور الصحابي العملاق عبد الرحمن بن عبد الله ابن ثعلبة الأنصاري - رضي الله عنه -، - فلنستمع إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - فهو الذي سيروي لنا قصته الرائعة يوم اليمامة:

قال عبد الله بن عمر: لما اصطف المسلمون للنزال يوم اليمامة؛ كان أبو عقيل الأنيقي يغلي كالمرجل، ويتوثب كالليث فما إن نشب القتال حتى جعل نحره دون نحور المسلمين، وأقام صدره دون صدورهم، فكان أول من أصيب بسهم في صدره.

لقد دخل السهم في صدر أبي عقيل واستقر بين كتفيه، فمد يده إلى السهم وانتزعه من بين كتفيه وثبت يقاتل حتى أوهن الجرح شقه الأيسر، ثم سالت دماؤه كشلال متفجر، ثم ما لبث أن خارت قواه، وسقط في مكانه مقبلاً غير مُدبر فاحتملناه إلى رحله وجعلناه فيه، وكان غير بعيد عن ساحة المعركة.

فلما حمى وطيس المعركة وتراجع المسلمون تحت ضغط قوات المرتدين سمع أبو عقيل البراء بن مالك ينادي: أين أنتم يا معشر الأنصار؟ أنا البراء بن مالك هلموا إِلَيَّ، فلم تجتمع حوله نخبة من الأنصار، قال: يا أنصار الله، لا يفكر أحد منكم بالرجوع إلى المدينة، فلا مدينة لكم بعد اليوم، وإنما هو الله وحده ثم الجنة.

ثم رأى من خيمة العلاج معن بن عدي الأنصاري - رضي الله عنه - يكسر غمد سيفه ويثب إلى المقدمة، ويعلو مكان مرتفع ويصرخ: الله الله يا معشر الأنصار، الكرة الكرة على عدوكم يا من نصروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كل المواطن، عندها فتح أبو عقيل عينيه وكأن زلزالاً أصابه، فتحامل على ساقيه يريد الوقوف والوصول إلى سيفه.

فدنوت منه وقلت: ماذا تريد يا عم؟ فقال: ألم تسمع المنادي ينادي باسمي، فقلت: إنما يقول يا أهل الأنصار ولا يعني الجرحى، فقال لي: أنا من الأنصار وأنا أجيبه، والله ولو حبواً.

تحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى، وخرج وهو ينادي بصوت كالرعد: يا للأنصار كرة كيوم حنين، يا للأنصار كرةَ كيوم حنين فاجتمع الأنصار حوله وتراصوا، وتقدموا المسلمين، وتفانوا حتى أقحموا مسيلمة ومن معه حديقة الموت، وكان أبو عقيل عند باب حديقة الموت وقد قطعت يده من المنكب ووقعت على الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحًا كلها مُميتٌ، فوقفت عليه وهو صريع بآخر رمق وقلت: يا عم أبو عقيل، فقال بلسان مُلتاث: لبيك يا ابن أخي، ثم قال: لمن الهزيمة اليوم، فقلت: أبشر يا عم، فقد قتل عدو الله وعدو رسوله - ﷺ - فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله عز وجل ويثني عليه، ثُمَّ لفظ آخر أنفاسه.

قال عبد الله بن عمر: فلما عدت إلى المدينة أخبرت أبي عمر بخبر أبي عقيل كله، فدمعت عيناه، وقال: رحم الله أبا عقيل رحمة واسعة، فإنه ما زال يسأل الله الشهادة، ويلح في طلبها حتى نالها ولقد كان من أخيار أصحاب نبينا محمد - ﷺ -.

شجاع بن وهب

مع السابقين:

كان شجاع - ﷺ - من السابقين الأولين إلى الإسلام، يروى في سبب إسلامه أن أبا بكر الصديق - ﷺ - شرح له قواعد الإسلام وهداية الدين الجديد، وأنس منه خشوعًا وتفكيرًا، وقال له: يا شجاع إنك رجل ما يخفى عليك الباطل، ما هذه الأوثان التي تعبدها وقومك؟ أليست حجارة لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، فقذف الله في قلبه الإسلام والإيمان، وكان من أوائل السابقين إلى الدوحة الربانية.

كانت قريش منذ أن أعلن الرسول - ﷺ - الدعوة المحمدية لا تترك أحد من أتباعه إلا وتعرضت له بالتعذيب والاضطهاد، وتعرض شجاع إلى المحن متوالية على يدى حالفه في الجاهلية بني عبد شمس، فلما أذن النبي ﷺ لأصحابه بالهجرة الثانية إلى الحبشة كان في طليعة المهاجرين، لكنه ما لبث إلا قليل حتى عاد إلى مكة حين بلغ المهاجرين إلى الحبشة أن القرشيين أسلموا، وكانت شائعة لا أساس لها من الصحة، وظل شجاع بمكة بعد ذلك ولم يعد إلى الحبشة مع من عاد من المهاجرين، وتعرض إلى السجن والتعذيب مرة أخرى حتى إذا فتح باب الهجرة إلى المدينة؛ كان من المسارعين إليه؛ وهاجر مع من هاجر من المسلمين.

في رحاب الأنصار:

لما قدم الرسول - ﷺ - إلى المدينة المنورة قام بأعظم الأعمال في التاريخ ألا وهو الآخاء بين المهاجرين والأنصار، وقد آخي النبي - ﷺ - بين شجاع وبين أوس بن خولي الأنصاري الخزرجي، وكان أوس من الكلمة، وشهدا معًا بدر

الكبرى، وقد شهد بدرًا مع شجاع أخوه عقبة بن وهب - ﷺ -، وقد شهد شجاع - ﷺ - المشاهد كلها مع رسولالله - ﷺ -، وأبلى فيهم بلاء عظيم.

أخلاقه:

كان شجاع - ﷺ - نقي السريرة، حميد السيرة، يألف الناس ويألفونه، ويجدون فيه صفاء الروح، ولين الجانب، وسلامة الفطرة، وحسن الحديث، وبراءة الصدر من الحقد والحسد والضغينة وسائر ما يعكر صفو الإيمان، وكانت هذه الصفات معروفة لدى معاصريه، ولكن كانت صفتان من بين تلك الصفات قد اشتهر بهما وهما: الشجاعة، وحسن الحديث.

مفتاح شخصيته:

لقد كان إعجابه بالبطولة هو مفتاح شخصيته؛ لأنه بطل في سلمه وحربه، ومن أصالة الإعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلاً في أدب الملازمة وقدوة في أصول المصاحبة، وكان بفطرته خبيرًا بالمراسم التي نسميها اليوم بالبروتوكول؛ لأنه أدبه في توقير العظمة أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه بدليل، انظر إليه عندما أرسله النبي - ﷺ - في دعوة الملوك والأمراء وكيف أدى المهمة بنجاح باهر، وهذا ما سنعرفه في السطور القادمة.

أمير الدعاة:

كان شجاع ﷺ أحد رسل الحبيب - ﷺ - إلى الملوك والأمراء، فقد أرسله الحبيب المصطفى - ﷺ - إلى أمير الغساني الحارث بن أبي شمر، وقصة هؤلاء الرسل كما أخبر بذلك ابن سعد الزهري في الطبقات أنه قال:

إن رسول الله - ﷺ - لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست من الهجرة وبعد الصلح الشهير مع قريش، قرر المصطفى - ﷺ - بأرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إلى كل منهم كتبًا خاصة.

فقال بعض الصحابة: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرءون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ رسول الله - ﷺ - يومئذ خاتمًا من فضة، فصه منه، نقشه ثلاثة أسطر محمد رسول الله، وختم به الكتب، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد وذلك في المحرم سنة سبع للهجرة، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين يعثه إليهم، فكان من الرسل شجاع بن وهب الأسدي - رضي الله عنه -، وأحد الستة.

أرسله - ﷺ - إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتابًا ولنقرأ ما قاله شجاع حول تلك المهمة الصعبة، يقول شجاع: أتيت إليه وهو بغوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر، وكان قيصر قادمًا من حمص إلى إيلياء - يقصد القدس -.

فأقمت ببابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله - ﷺ - إليه، فقال الحاجب: إنك لا تصل إليه حتى يخرج اليوم كذا وكذا، وجعل الحاجب وكان روميًا اسمه مُرى يسألني عن رسول الله - ﷺ -، وما يدعو إليه، فكنت أحدثه عن ذلك فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي - ﷺ - بعينه فأنا أومن به وأصدقه، ولكني أخاف الحارث أن يقتلني.

قال شجاع: وكان الحاجب منذ ذلك اليوم يكرمني ويحسن ضيافتي، وخرج الحارث يومًا، فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدخلت إليه ودفعت كتاب رسول الله - ﷺ إليه - فقرأه، ثم رمى به وقال: من ينتزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته؛ علي بالناس، فلم يزل يفرض حتى قام.

وأمر بالخيول استعداداً للحرب، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى، وكتب الحارث إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر ينهاه عن السير إلى النبي - ﷺ -، ويأمره بالكف عما عزم عليه، وقال له: وافني بإيلياء، فلما جاء جواب قيصر دعاني إليه، فقال: متي تريد أن تخرج إلى صاحبك. فقلت له: غدًا إن شاء الله، فأمر لي بمائة مثقال من ذهب.

وجاء إليَ حاجبه مرى، وأمر لي بنفقة كبيرة وكسوة، وقال لي: أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام، وكتب إلى النبي ﷺ كتابًا وأرسله معي، فلما قدمت على النبي ﷺ فأخبرته، فقال: باد ملكه، ثم أقرأته السلام من حاجبه مُرى وأخبرته بما قال ودفعت إليه كتابه، فقال رسول الله - ﷺ -: صدق مرى.

ومات الحارث بن أبي شمر عام الفتح، ولم يرد الله به خيرًا، ولو كان من أهل السعادة؛ لوفقه الله تعالى إلى الإسلام، لقد كان حاجبه مرى موفقا عنه عندما دخل في دين ربه، ولكن الهداية بيد الله وحده لا يملكها أحد من دونه، فمن يرد الله أن يهديه؛ يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجً كأنما يصعد إلى السماء.

مهمة أخرى:

لم تكن مهمة الحارث بن أبي شمر الغساني هي المهمة الوحيدة لشجاع - رضي الله عنه -، بل أرسله الحبيب - ﷺ - إلى أمير من أمراء الشام هو جبلة بن الأيهم، وكان عاملا أيضًا لقيصر في الشام.

فقد جاءت في رواية ابن حجر العسقلاني في الإصابة: أن رسول الله - ﷺ - أرسل شجاع - رضي الله عنه - إلى جبلة بن الأيهم ليدعوه إلى الإسلام، وأسلم جبلة بالفعل على يدى شجاع - رضي الله عنه -، وقد وفد جبلة بن الأيهم إلى المدينة المنورة في زمان الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، ولكنه ارتد وعاد إلى دينه، ثم انصرف إلى الشام متنصرًا؛ لأن عربيًا داس على ردائه فلطمه جبلة، فذهب الأعرابي إلى الخليفة عمر - رضي الله عنه -، فأمر عمر بأن يقتص الأعرابي من جبلة، فرفض أن يفعل به الأعرابي هذا، وأن يسوى عمر بينه وبين الأعرابي الذي داس على رداءه.

أمير السرايا:

لقد كان النبي - ﷺ - يعرف مدى قيمة ومواهب شجاع بن وهب وكما كان يختاره لتمثيل الدبلوماسي كذلك كان يختاره كقائد عسكري، فقد اختاره

لقيادة سرية لبني عامر، وكانت هذه السرية في شهر ربيع الأول سنة ثمان للهجرة، وكانت تحت قيادته أربعة وعشرين صحابي من أصحاب الرسول - ﷺ -.

وكان الهدف الأساسي لهذه السرية إلى جمع من هوزان يقيمون بالسي ناحية ركبة من وراء المعدن، وهي على المدينة على بعد خمس ليال، وأمر النبي - ﷺ - شجاع بن وهب أن يغير على هؤلاء الذين كانوا يروعون القوم وهم غارقون، فأصابت السرية منهم نعمًا كثيرة وشاءً، وفر القوم دون أن يقاتلوا، وساقت السرية هذه الغنيمة حتى وصلوا المدينة فاقتسموها، فكانت سهامهم فيها خمسة عشر بعيرًا للفرد وعدلوا البعير بعشر من الغنم، وقد استغرقت هذه السرية خمسة عشرة ليلة، ولقد كان نجح باهر لشجاع في هذه السرية، وظفر بثناء النبي - ﷺ -.

شهيد سهل عقرباء:

رحل النبي - ﷺ - وهو عنه راض، ولما سمعت القبائل العربية بخبر موت النبي ﷺ أعلنوا جميعًا الردة إلا بعض القبائل، وكان أخطر هؤلاء المرتدين مسيلمة الكذاب وقومه بنو حنيفة الذين كان جيشهم يتكون من خمسة وستين ألف مقاتل، فقرر الصديق رضي الله عنه خليفة المسلمين مواجهة هذا الزحف الهائل في موقعة حاسمة، بل وقرر الهجوم عليهم في عقر ديارهم بأعالي نجد قبل هجومهم على العاصمة الإسلامية المدينة، وأرسل خالد بن الوليد لمواجهة بني حنيفة في إحدى عشر ألف مجاهد في ساحة سهل عقرباء.

الْتقى الجمعان على أرض اليمامة فَصَفَّ مسيلمة جنوده بسهل عقرباء، وجعل وراء الجيش النساء، والأطفال، والأموال، وصفَ خالد جنوده في قبالة جيش عدوه، ووقف الجيشان يَتَرَبَّصَانِ الأمر بالهجوم الكاسح، وكان كل من الفريقين يرى عين اليقين أن هذه المعركة، إنما هي معركة فناء أو بقاء، اشتبك الطرفان وقاتل المرتدون بشراسة، وانصب بنو حنيفة على صفوف المسلمين انصباب الصخور، وتدفقوا عليهم تدفق السيل، وكانت كسرة عظيمة للمسلمين كادت أن تقضي

عليهم، وأزيل خالد بن الوليد عن فسْطاطه، ووقعت زوجته أم تميم في قبضتهم، فهموا بقتلها لولا أن أجارها رجلا منهم.

تلقى خالد الصدمة رابط الجأش ثابت الجنان، فصاح في الجيش: امتازوا أيها الجند، امتازوا ليعلم بلاء كل فريق منكم، وليعرف المسلمون من أين أُتوا.

فجرت صيحة خالد بن الوليد حمية المسلمين لدين الله، وأججت أشواقهم إلى الاستشهاد في سبيل الله ورفعت عن أعينهم الحجب فرأوا قصور الجنة مفتحة الأبواب لاستقبال الشهداء، وعند ذلك برزت في صفوف المسلمين بطولات لمْ تخطى يد التاريخ أجلَ منها وأعظم، وظهرت في جند الله بطولات لم تضم أسفاره أعز منها ولا أكرم، وكان في مقدمة الأبطال بطلنا شجاع بن وهب - رضي الله عنه - الذي اندفع في قلب جيش المرتدين لتكن نهايته على أرض المعركة شهيدًا بالقرب من حديقة الموت، بعد أن أبلى أعظم البلاء.

أبان بن سعيد

الشهيد كاتب الوحي:

من أصحاب النبي - ﷺ - من تأخر إسلامهم وقلت ملازمتهم للنبي - ﷺ -، ولكنهم مع ذلك قد حصلوا من العمل الصالح ما لم يحصله الكثير ممن سبقوا إلى الإسلام وكثرت ملازمتهم للرسول ﷺ، والعمل الصالح هو الفخار لأهله في الدنيا وهو النجاة لهم في الآخرة، ومن هؤلاء الصفوة: أبان بن سعيد بن العاص القرشي - رضي الله عنه -، فتعالوا؛ لنتعايش قليلاً مع هذا الصحابي العظيم.

عثمان في جوار أبان:

في العام السادس للهجرة انطلق الرسول الأعظم - ﷺ - في ألف وخمسمائة من أصحابه متوجهًا إلى مكة يقصد زيارة البيت الحرام للعمرة، فلما علمت قريش بالتحرك النبي ﷺ أعدت العدة للقتال المسلمين، هنا دعا الرسول - ﷺ - رجل الدبلوماسية الأول عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فبعثه إلى أبأ سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائر للبيت معظمًا لحرمته.

انطلق عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد - قبل أن يسلم - فعرض أبان بن سعيد حمايته، وجواره على عثمان حتى لا يعتدى عليه أحد، فقبل عثمان ذلك، وحمله أبان على فرسه، وأعلن جواره بين الناس، وقال لعثمان: اسْلُك حيث شئت آمنا، وأنشد يقول أيضًا:

أسبل وأقبل ولا تخف أحَدا بنو سعيد أعزة الحرم

ولما انتهى عثمان من تبليغ الرسالة التي كلفه النبي - ﷺ - تبليغها، قال له أبان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فأجاب عثمان إجابة المؤمن الذي يصون

كرامة نبيه – ﷺ – وحرمة قائده، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله – ﷺ –، وكان الملأ من قريش يأتمرون بعثمان؛ ليقتلوه، وعجبت قريش من أمر أبان، وهو يحمل عثمان على فرسه، ومن خرج به، وعند مخارج مكة ودعه بعد أن اطمأن عليه من غوائل الطريق للحاق برسول الله – ﷺ –.

من هنا كانت البداية:

كان لأبان بن سعيد أخوان أسلما قديماً في صدر الدعوة، وهما خالد، وعمرو، ودعوا أخاهما أبان إلى الإسلام فأبى، وهاجرا الأخويان إلى الحبشة، وتركاه على ملة الكفر، ثم أسلم الحكم بن سعيد الأخ الرابع وهاجر إلى رسول الله – ﷺ –، وتمضى الأيام والليالي ثقيلة بطيئة على أبان وضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه قصوره، وغرق في بحار لا ساحل لها من الفكر والحيرة في أمر الإسلام، وأخواته الذين أسلموا.

إني أسلمت لله:

في ذات يوم خرج أبان للتجارة في أرض الشام، فلقى راهبًا فسأله عن رسول الله – ﷺ –، وقال: إني رجل من قريش، وإن رجلاً منا خرج فينا يزعم أنه رسول من رب العالمين إلينا مثلما أرسل موسى وعيسى، فقال الراهب: ما اسم صاحبكم هذا؟ قال أبان: محمد.

قال الراهب: إني أصفه لك، وذكر صفة النبي – ﷺ – وسنه ونسبه دون أن يراه من قبل، فقال أبان: هو كذلك، فقال الراهب: والله ليظهرن على العرب، ثم ليظهرن على الأرض، وقال لأبان: اقرأ على هذا الرجل الصالح السلام مني، فلما عاد أبان إلى مكة؛ صرخ بأعلى وصوته،وقال: يا معشر قريش، إني أسلمت لله رب العالمين.

هجرته إلى المدينة

بعد أن شرح الله تعالى صدر أبان للإسلام هاجر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -، فأسلم لله رب العالمين، وارتاع القرشيون لإسلام فتى عبد شمس وفارسها وهجرته إلى المدينة؛ لحاقًا برسول الله - ﷺ -.

الأخوة المؤمنين:

لما يلبث أبان قليلاً في المدينة حتى أرسله الرسول القائد - ﷺ - قائد على سرية إلى نجد، فقدم أبان وأصحابه على رسول الله - ﷺ - بخبير وكان لهم دور عظيم في عملية الفتح، وبينما رسول الله - ﷺ - متأهب للعودة إلى المدينة، إذا فأجاه مهاجرو الحبشة بعودتهم، بعد أن قضوا فيها زهاء عشرين عامًا، ذاقوا فيها مرارة الغربة، وشظف العيش؛ ابتغاء مرضاة الله، وفيهم خالد وعمرو ابنا سعيد بن العاص، وبرزت في تلكم اللحظات العلوية آية من آيات الإيمان بهرت أصحاب رسول الله - ﷺ -، حين رأوا أبناء سيد بني عبد شمس الأربعة، يجتمعون بعد طول فراق حول رسول الله - ﷺ - معلنين كلمة الوفاء الخالص من قلوب ملأها الحب يقينًا وتسليمًا.

كاتب للوحي:

بعد العودة من خيبر اختار رسول الله - ﷺ - أبان بن سعيد؛ ليكون أحد كتاب الوحي الذي يملى عليهم ما يتلقاه من ربه سبحانه من كلماته البينات، وآياته المعجزات، وإنه لشرف عظيم لأبان.

في ساحات الوغى:

لقد اشترك أبان بن سعيد في الجهاد والنضال بكل ما يستطيع، وهذا رسول الله - ﷺ - قد أرسله في سرية فدائية خرجت من المدينة متجهة ناحية نجد فوقف

الله أبان، لما وفقه إليه في هذه السرية من جهد وجهاد، وشارك أبان في فتح مكة، وحنين والطائف لقتال أعداء الله وكان النصر للمسلمين.

والي على البحرين:

في آخر السنة التاسعة للهجرة اختاره الرسول - ﷺ - واليًا على إقليم البحرين في منطقة الخليج العربي، وخرج أبان إلى البحرين يحمل لواءه ورايته، وظل يدير شئون الإقليم بما هداه الله إليه من صلاح وإصلاح حتى توفى رسول الله - ﷺ - ولحق بربه تبارك وتعالى.

الشهيد البطل:

بعد أن توفي رسول الله - ﷺ -، وتولى الصديق من بعده، كان أبان أحد جنود المسلمين على الشام في زمن الصديق، ثم كان لأبان نصيب المذكور من الفتوح في الشام، حيث قاتل وناضل، ثم اشترك في معركة أجنادين التي وقعت في السنة الثالثة عشرة، في أواخر عهد الصديق، وشاءت الأقدار الإلهية أن ينعم الرزاق الوهاب على أبان بن سعيد بنعمة الشهادة في هذه المعركة، حيث قدم بين يديه ما يفتح أمامه أبواب النعيم في الفردوس.

الحارث بن هشام

عنوان الشرف الوفي:

أبو الحارث هو: هشام بن المغيرة المخزومي من سادات مكة في الجاهلية، وكان له عند قريش وكنانة والعرب المكانة الجليلة، وكان العرب قبل الإسلام يؤرخون بثلاثة أشياء: بناء الكعبة، وعام الفيل، وموت هشام بن المغيرة، وقد قال أبو يعقوب بن شعوب في رثاء هشام:

ذريني أصطبح يا بكر إنَي رأيتُ الموت نقَب عن هشام
تخيره ولم يعدل سواه ونعم المرء من رجال تهام

وقد نقل الثعالبي في ثمار القلوب عن الجاحظ أنه قال: بنو مخزوم ضرب بهم المثلُ، ووصفوا في كل غاية، فقيل: أتيه من مخزومي، وكانوا يقولون: كان ذلك عام موت هشام، قال عبد الله ابن ثور الخفاجي:

فأصبح بطن مكة مُقشعرًا كأن الأرض ليس بها هشام

وقال الجاحظ: وهذا مثلٌ وفوق المثل، وقال مسافر بن أبي عمرو:

تقول لنا الركبان في كل منزل أمات هشام أم أصابكم الجدُ

فجعل موته وفقد الغيث سواء.

أما أم الحارث هي: الصحابية الجليلة أسماء بنت مخربة التميمية، يقول عنها ابن سعد في الطبقات: تزوجها هشام بن المغيرة المخزومي، فولدت له أبا جهل، والحارث ابني هشام، ثم مات عنها هشام، فخلف عليها بعده أخوه أبو ربيعة بن المغيرة، فولدت له عياش، وعبد الله، وأم حجير، أسلمت وبايعت، وقد لقيت ربها بعد خلافة عمر بن الخطاب.

أما زوجة الحارث فهي: الصحابية الجلية فاطمة بنت الوليد بن المغيرة - رضي الله عنها -، أخت خالد بن الوليد - رضي الله عنه -، أسلمت يوم الفتح وبايعت، ولها صحبة، وروت حديثًا واحدًا عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وخرجت مع زوجها الحارث بن هشام للجهاد على جبهة الشام، واستشارها خالد في بعض أموره، وقد ولدت للحارث عبد الرحمن، وأم حكيم - رضي الله عنهما -.

أما ابن الحارث هو: عبد الرحمن بن الحارث، وكان رجلاً شريفًا سخيًا من نبلاء الرجال، وله رؤيةٌ، وكان يضرب به المثل بسؤدده، وله كذلك ابن آخر اسمه عبد الله، ولد على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكان من رواة الحديث.

أما ابنة الحارث فهي: الصحابية المجاهدة أم حكيم - رضي الله عنها -، جمعت أم حكيم خصال الخير كلها؛ فكانت بحق نمطًا فريدًا في الحب والوفاء، والتضحية والفداء، والصبر والإباء؛ فحفظ لها التاريخ جهودها المضنية في قتال الروم مع المجاهدين جنبًا إلى جنب، لا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها.

أما ابن أخيه الحارث فهو: الصحابي البطل عكرمة بن أبي جهل - رضي الله عنه -، كان من رؤوس الجاهلية، ثم أسلم، وحسن إسلامه، وكان إسلامه بعد الفتح على يد زوجته أم حكيم، وقد قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال له: مرحب بالراكب المهاجر، خرج إلى الشام مع عمه الحارث مهاجرًا مجاهدًا، وكان محمود البلاء في حروب الردة، وقتال الروم على جبهة الشام، وكان له عامل الحاسم في الكثير من المعارك خصوصًا يوم اليرموك عندما قاد كتيبة الموت لتدمير كتائب الروم، ولقي ربه شهيدًا في هذا اليوم.

أما حفيد الحارث فهو: أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة النبوية، وهو معدودٌ من سادة قريش وأجوادهم، وكان يُسمى الرَاهب لعبادته، وله عقب كلهم سادة أجواد وأخيار فضلاء.

أكرم رجال قريش:

بلغ الحارث بن هشام في المجد الغاية القصوى، حتى قيل فيه:

أحسبت أنَ أبـاك يوم تسبُني في المجد كان الحارث بن هشام
أولى قـريـش بـالمـكـارم كلها في الجاهلية كـان والإسـلام

أجل، كان الحارث في الذروة العليا من الشرف، فقد عرف بالجود، وكان لا يبارى ولا يجاري بالسخاء، فقد جاء في كتب التراجم: أن داره بمكة كانت مفتوحة للأضياف يدخلونها، فإذا جفانٌ مملوءةٌ خبزًا ولحمًا، وهو جالسٌ على سرير يرحبُ بالناس؛ ويحثهم على الأكل.

فقد روي صاحب المفصل في تاريخ العرب رواية عن أبي ذر الغفاري – ﷺ – يقول فيها: قدمت مكة معتمرًا، فقلت: أما من مُضيف؟ قالوا: بلي، كثيرًا، وأقربهم منزلاً الحارث بن هشام، فأتيت بابه، فقلت: أما من قرى؟ فقالت لي الجارية: بلي، فأخرجت إليَ زبيب في يدها، فقلت: ولم لم تجعليه في طبقٍ؟ فعلمت أني ضيفٌ، فقالت: ادخل، فدخلت، فإذا أنا بالحارث على كرسي، وبين يديه جفانٌ فيها خبزٌ ولحم، وأنطاع عليها زبيبٌ، فقال: أصب، فأكلت، ثم قال: هذا لك، فأقمت ثلاثًا، ثم رجعت إلى المدينة، فأخبرت النبي ﷺ خبره، فقال: إنه لسري ابن سري، وودتُ أنه أسلم.

وسخاء الحارث وإيثاره عجيب يصلح لإيناس المجالس، ومنه ما كان صبيحة بيعة العقبة الكبرى، حيث روى كعب بن مالك ﷺ حيث قال: جاء الحارث وجلَة قريش إلى رحال الأنصار؛ وسألوهم إن كانوا قد لقوا رسول الله – ﷺ –، فأخفي الأنصار أمرهم، ثم قام الحارث ومن معه، وكان يلبس نعلين جديدين، فقال كعب بن مالك لأبي جابر عبد الله بن حرام: يا أبا جابر، أنت سيدٌ من ساداتنا، ما تستطيع أن تتخذ نعلين من نعلي هذا الفتي من قريش؟ فسمعه الحارث، فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إلى كعب، وقال: والله لتنتعلنهما، فقال

أبو جابر لكعب: أحفظت والله الفتى، أردد عليه نعله، فقلت: والله لا أردهما، وهذا فألٌ صالحٌ، لئن صدف الفأل؛ لأسلبنه.

قصته العجيبة يوم بدر:

أقر المؤرخون بأن الحارث بن هشام كان من عقلاء قريش، وأنه من الرجال الكبار ذوي الشأن والمكانة، بيد أنه لم يستجب لأنداء الإسلام الذي تنعشه وتخرجه من الظلمات إلى النور إلا أنه لم يسرف في العداوة قط كأخيه أبي جهل عمرو بن هشام، بل فقط لم يقبل الإسلام.

ولما كانت بدر الكبرى حضر الحارث مع قريش، وكان له موقف عجيبٌ مسطورٌ في شتى المصادر والتراجم والطبقات، مفاده أن إبليس قد تصوَر للناس في صورة سراقة بن مالك المدلجيَ يذمر المشركين، ويخبرهم أنه لا غالب لهم من الناس، فلما أبصر عدو الله الملائكة؛ نكص على عقبيه، وقال: إني بريء منكم إني أرى ما ترون، فتشبث به الحارث بن هشام؛ وهو يرى أنه سراقة، فضرب في صدر الحارث فسقط، وانطلق إبليس لا يرى حتى وقع في البحر.

وفي رواية أخرى أن الحارث بن هشام تشبث به، وهو يرى أنه سراقة بن مالك، فقال: إلى أين سراقة؟ أين تفر؟ فلكمه لكمة طرحه إلى قفاه.

وأخرج الطبراني في المعجم الكبير بسند ضعيف عن رفاعة بن رافع الأنصاري - رضي الله عنه - قال: لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر، أشفق أن يخلص القتل إليه، فتشبث به الحارث بن هشام، وهو يظن أنه سراقة بن مالك، فوكز في صدر الحارث، فألقاه، ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر، ورفع يديه فقال: إني أسألك نظرتك إياي، وخاف أن يخلص إليه القتل، فأقبل أبو جهل بن هشام، فقال: يا معشر قريش؛ لا يهزمنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على ميعادٍ من محمد.

سر عجيب:

لله في خلقه شؤون، فهو يخلق ما يشاء ويختار، ويفعل ما يشاء، فقد ذكر المحدثون منهم الإمام البخاري رحمه الله أن النبي - ﷺ - دعا على الحارث وجماعة، ولكن الله عز وجل تداركهم بالإسلام، وصاروا من الصحابة الأعلام.

فقد أخرج البخاري رحمه الله بسنده عن سالم بن عبد الله فقال: كان رسول الله - ﷺ - يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران: 128).

يعلق ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري على هذا الحديث فيقول: الثلاثة الذين سمَاهم الرسول - ﷺ - قد أسلموا يوم الفتح، ولعلَ هذا هو السر في نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

نشهد أنك رسول الله:

ظل الحارث مقيمًا على الجاهلية، وحضر أحدًا مع المشركين، ولم يزل متمسكًا بالشرك إلى فتح مكة، ويومها أسلم، وشهد بوحدانية الله، وصار من عبيده، بل أصبح رجل من أخلص رجال الإسلام، ولإسلامه موقفٌ جليلٌ، حيث صعد بلال بن رباح - رضي الله عنه - على الكعبة يوم الفتح وأذن، فساء ذلك الحارث، وقال: يهذي العبد حين يؤذَن على الكعبة.

وفي رواية أخرى: أن رسول الله - ﷺ - دخل الكعبة عام الفتح، ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب، وعتَاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فتكلم كل واحد منهم بكلمة، وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محقٌ؛ لاتبعته، فخرج عليهم النبي - ﷺ -، فقال: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر لهم ما قالوه، فقال الحارث، وعتاب، نشهد أنك رسول الله، ما اطلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك.

نور السماء يسطع في قلب الحارث:

قصة إسلام الحارث جميلة، وفيها فوائد جليلةٌ، فقد أجارته أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها -، وأمضى النبي - ﷺ - إجارتها، فهل أتاك حديث ذلك؟

فعن عبد الله بن عكرمة - رضي الله عنهما - أنه قال: لما كان يوم الفتح دخل الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي ربيعة على أم هانئ بنت أبي طالب، فاستجارا بها، وقالا نحن في جوارك، فقالت: نعم، أنتما في جواري؛ وأجارتهما، وفي تلك الأثناء دخل عليها أخوها علي بن أبي طالب، فنظر إليهما، فشهر عليهما السيف، فألقت عليهما ثوبًا، واعتنقته.

ثم قالت له: تصنع هذا بي من بين الناس؟ قال: تجيرين المشركين، وحلت دونهما، ثم خرج، فأغلقت عليهما بيتًا، وقالت لهما: لا تخافا، ثم أتيت النبي - ﷺ -، فقالت: يا رسول الله، ما لقيت من ابن أمي عليَ، ما كدت أفلت منه، أجرت لي حموين من المشركين؛ فتفلت عليهما ليقتلهما، فقال رسول الله - ﷺ -: ما كان ذلك له، قد أجرنا من أجرت، وأمَنا من أمنت يا أم هانئ.

فرجعت إليهما فأخبرتهما، فانصرفا إلى منزلهما، فقيل لرسول الله - ﷺ -: الحارث وعبد الله جالسان في ناديهما مُتفضلان في الملأ المزعفر، فقال رسول الله - ﷺ -: لا سبيل إليهما وقد أمناهما.

يقول الحارث بن هشام: وجعلت أستحي أن يراني رسول الله - ﷺ -؛ وأذكر رؤيته إياي في كل موطنٍ مع المشركين، ثم أذكر بَره ورحمته وصلته، فألقاه وهو داخلٌ المسجد، فتلقاني بالبِشر، ووقف حتى جئته، فسلمت عليه، وشهدت شهادة الحق، فقال: الحمد لله الذي هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام، فقلت له: فوالله ما رأيت مثل الإسلام جُهل، وفي رواية أخرى: فوالله ما رأيت مثل الإسلام جميلاً.

في ساحات الوغى:

بعد إسلام الحارث بن هشام - رضي الله عنه - يوم الفتح أخذ يشهد الغزوات، ويقدم التضحيات، وهو يردد شعاره الدال على يقينه بالبعث، وحبه للقاء الله، واستخفافه بالحياة، فهو يقول كلما حمل على أعدائه في الميدان:

إني بـــربي والـــنـــبـــي مـؤمـــن والبعث من بعد المـمات موقن
أقبح بشخص للحياة مواطن

موقف عظيم:

لما مات النبي - ﷺ - وقف الحارث بن هشام موقف يتسم بالحزم والفهم والسَناء؛ وكان يومئذ سيد بني مخزوم ليس أحد يعدله به إلا أهل السوابق مع رسول الله - ﷺ -، فقال أمام المهاجرين والأنصار: والله، لولا قول رسول الله - ﷺ -:«الأئمة من قريش»، ما أبعدنا منها الأنصار، ولكانوا لها أهلاً، ولكنه قولٌ لا شك فيه، فوالله لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصير الله هذا الأمر فيه.

الخروج إلى الشام:

أقام الحارث - رضي الله عنه - منذ إسلامه بمكة، وتوفي رسول الله - ﷺ - وهو راضٍ عنه، وفي ولاية أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أرسل الخليفة كتابًا إلى أهل مكةً يستنفرهم إلى غزو الروم، فاستجاب الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل - رضي الله عنهم - وغيرهم لنداء الخليفة وسارعوا إلى الخروج.

وخرج الحارث إلى الشام بكل أهله وماله، فجزع أهل مكة جزاعًا شديدًا، ولم يبق أحدٌ يطعم إلا خرج يشيعه، حتى إذا كان بأعلى البطحاء، أو حيث شاء الله

تعالى من ذلك، وقف، ووقف الناس حوله يبكون، فلما رأى جزع الناس، قال: يا أيها الناس، إني والله ما خرجت رغبة بنفسي عن أنفسكم، ولا اختيار بلدٍ عن بلدكم، ولكن كان هذا الأمر فخرجت فيه رجالٌ من قريش، فأصبحنا والله لو أن جبال مكة ذهبًا فأنفقناها في سبيل الله عز وجل ما أدركنا يومًا من أيامهم، وأيم والله لئن فاتونا به الدنيا، لنلتمسنَ أن نشاركهم به في الآخرة، فبكي أهل مكة أكثر من ذي قبل، فقال لهم، قولته المشهورة: إنها النقلة إلى الله، وما كنت لأوثر عليكم أحدًا، لكنها الجنة ورب الحارث.

أسطورة اليرموك:

خرج الحارث بن هشام - رضي الله عنه - إلى الجهاد في أرض الشام فشهد معركة فحل بيسان، وأجنادين الأولى وقتال فيهم قتال الأبطال المغاوير، حتى جاء يوم اليرموك هذا اليوم الصعب والحاسم في تاريخ فتوح الشام.

فقد هب الروم لمواجهة المسلمين وجمعوا حشودًا غفيرة ليس لها مثيل، وجهزوها بعتاد كثير، وتحركوا لملاقاة الجيوش الإسلامية، وقد تجاوز عدد الروم أربعين ومائتي ألف مقاتل.

يقول الصحابي الجليل سعيد بن عمرو - رضي الله عنه -: أقبلوا علينا بخطي ثقيلة كأنهم الجبال تحركها أيد خفية وسار أمامهم الأساقفة، والبطارقة، والقسيسون يحملون الصلبان، وهم يجاهرون بصلواتهم فيرددها الجيش من ورائهم ولهم هزيم كهزيم الرعد، فلما رآهم المسلمون على حالهم هذه هالتهم كثرتهم وخالط قلوبهم شيء من الخوف.

ولما بدأت هذه المعركة الباسلة اندفع جيش يقترب من ربع مليون مقاتل كأنهم سيل جارف نحو أربعين ألف مجاهد، فأصبحت جحافلهم تندفع نحو

المسلمين كأنهم أسراب جراد تنتشر من كل اتجاه فقاتل المسلمون بشراسة، إلا أن أعداد الجيوش الرومانية أكثر من أن تحصى، فلا يقتل المسلمون واحدًا منهم حتى يظهر عشرة مقاتلي مكانه.

فمالت كفة الروم في المعركة، وتقدمت صفوف الروم، وأقبلت بغزارة للقيام بهجوم عام، وتم تطويق الجيش الإسلامي من كل جانب، وأصبح المسلمون قاب قوسين أو أدنى من هزيمة ساحقة وإبادة كاملة للجنود.

وعند تلك اللحظة ظهر دور بطلنا الحارث بن هشام - ﷺ - الذي أقبل على القتال إقبال الظامئ على الماء البارد في اليوم القائظ، فعندما اشتد الكرب على المسلمين نادي ابن أخيه عكرمة ﷺ من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأوزر، وعياش بن أبي ربيعه، وعمرو بن عكرمة وغيرهم - ﷺ -.

انطلق المجاهدون نحو الجموع الهائلة وتفاجأ الروم بهؤلاء البواسل المغاوير وهم ينقضون عليهم كالأسود الضارية فتراجعت الصفوف أمام هذه الأعاصير، وتقدم البطل تلو الآخر إلى قلب الجيش الروماني، واندفعوا جميعًا؛ ليموتوا في سبيل الله، وتساقط الأبطال جميعًا على أرض المعركة إلا القليل منهم.

ولما انقشع الغبار عن هزيمة نكراء لجيش الروم، ونصر مؤزر لجيش الإسلام، جاء خالد بن الوليد - ﷺ -؛ لينظر ما فعل الحارث ومن معه، ففتش عليه ليجده وهو ملقى بين اثنين من المغاوير هم عكرمة بن أبي جهل، وعياش بن أبي ربيعة - ﷺ - والدماء تسيل منهم جميعًا.

فطلب الحارث بعض الماء؛ ليشربه، فقد كان يعاني من شدة الظمأ وهو يجود بنفسه فيأتي خالد بن الوليد إليه بالماء، وقبل أن يشرب قطرة منه يرى ابن أخاه

عكرمة بن أبي جهل ينظر إلى الماء، فيقول: يا خالد، ادفعه إليه لعله يكون أحوج إلى الماء مني، ويرى عكرمة صاحبه عياش بن أبي ربيعة ينظر إلى الماء، فيقول: يا خالد، ادفعه إليه أولاً فهو أكثر عطشًا مني، فلما وصل الماء إلى عياش، قال: والله لا أشرب حتى يشرب أخي الحارث أولاً، فالتفت الناس نحو الحارث فوجدوه قد مات، ونظروا إلى عكرمة فوجدوه قد فارق الحياة، فرجعوا إلى عياش؛ ليسقوه شربة ماء؛ فوجوده ساكن الأنفاس، وصعدت أرواحهم جميعًا إلى الله تعالى كل منهم يؤثر أخوه على نفسه.

عمرو بن سعيد

في رحاب المجد:

في بيت وارف النعمة، مزهُوَ بالسيادة، ولأب له في قريش صدارة وزعامة، ولُد عمرو بن سعيد، وإن شئتم مزيدًا من نسبه فهو: عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي، أما أبيه فهو: سيد بني عبد شمس في الجاهلية أبو أحيحة سعيد بن العاص، كان يقال له في الجاهلية: ذو العصابة أو ذو العمامة كناية عن السيادة، وكان سعيد إذا اعتم لم يعتم أحد من قريش حتى ينزع سعيد عمامته، أو لم يعتم قرشي بعمامة على لونها، عاش أبو حيحة إلى ما بعد ظهور الإسلام، وكان من أكابر مجرمي قريش، مات على دين الأجداد قبل بدر الكبرى بقليل.

أما أمه؛ فهي السيدة الرزان صفية بنت المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، كانت من عالية النساء في قريش حسبًا ونسبًا وكرمًا، وهي عمة سيف الله المسلول خالد بن الوليد - ﷺ -، ذكر بعض المؤرخين أنها أسلمت وبيعة، وقيل بل ماتت مثل زوجها.

إخوته: أما أخوه الأكبر هو: أحيحة وبه كان يكنى أبوه سعيد بن العاص مات مشركًا في بدر الكبرى، أما أخوه الآخر هو: عبيد بن سعيد، مات أيضًا على الشرك يوم بدر الكبرى، وأخيه الآخر العاص بن سعيد، مات على الشرك أيضًا يوم بدر الكبرى.

أما أول بني سعيد بن العاص أسلمًا هو: الصحابي الجليل خامس خمسة أسلموا على وجه الأرض خالد بن سعيد بن العاص - ﷺ -، كان من أوائل

السابقين فلم يسلم قبله إلا أربعة رجال، وكان خالد شجاع بطل من أعظم أبطال الإسلام، وأول أمير للمجاهدين على جبهة الشام، وآخر بني عبد شمس شهادة، فقد لقي ربه شهيدًا يوم أجنادين الثانية – وقيل بل في مرج الصفر –.

أما أخوه الآخر؛فهو: كاتب الوحي الشهيد أبأن بن سعيد بن العاص – رضي الله عنه –، أحد فرسان مدرسة النبوة والمغامر البطل الذي زلزل أركان الروم البيزنطيين في موقعة أجنادين الأولى.

أما أخوه الآخر؛ فهو: الشهيد المجاهد الحكم بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، كان من أعقل شباب قريش، كان من السابقين الأولين، وكان من أعلم الصحابة، وقد غير النبي – صلى الله عليه وسلم – اسمه، وسماه: عبد الله، شهد جميع المشاهد، ولقي ربه في فتوح الشام.

أما أخوه الأصغر؛فهو: أول شهداء عائلة بني عبد شمس سعيد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، كان سعيد آخر بنو سعيد الخمسة أسلمًا، فقد أسلم قبل الفتح الأعظم بقليل، فقد أسلم الأخوة الأربعة قبله، وكان هو أسبقهم إلى الشهادة، فقد لقي ربه شهيدًا في حصار الطائف في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم –، ولحق به جميع إخوته بعد ذلك شهداء في فتوح الشام.

رؤيا عجيبة:

أورد ابن سعد في الطبقات بسنده عن خالد بن سعيد – رضي الله عنه – أنه قال: رأيت في المنام قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ظلمة غشيت مكة حتى ما أرى جيلاً ولا سهلاً، ثم رأيت نورًا يخرج من زمزم مثل ضوء المصباح كلما ارتفع عظم وسطع حتى ارتفع فأضاء لي أول ما أضاء البيت، ثم عظم الضوء حتى ما بقي من سهل ولا جبل إلا وأنا أراه، ثم سطع في السماء، ثم انحدر حتى أضاء لي نخل يثرب فيها البُسُر، وسمعت قائلاً يقول في الضوء:

سبحانه، سبحانه نمت الكلمة وهلك ابن مارد بهضبة الحصى بين أذرح والأكمة، سعدت هذه الأمة، جاء نبي الأمين، وبلغ الكتاب أجله، كذبته هذه

القرية، تُعذَب مرتين، تتوب الثالثة، ثلاث بقيت، ثنتان بالمشرق وواحدة بالمغرب، فقصها خالد على أخيه عمرو، فقال له: لقد رأيت عجبًا يا خالد، وإني لأرى هذا أمرًا يكون في بني عبد المطلب؛ إذ رأيت النور خرج من زمزم - وكان حدث عمرو بن سعيد صحيح، إذ لم يلبث الحبيب - ﷺ - أن جاء بدعوة ربه -.

في رحاب السابقين:

يوم بدأت خيوط الفجر تسري في أنحاء مكة على استحياء، هامسة بأن محمد الأمين يتحدث عن وحي جاءه في غار حراء، وعن رسالة تلقاها من الله ليبلغها إلى عباده، كان خالد بن سعيد رضي الله عنه يُلقي للنور الهامس سمعه وهو شهيد، وطارت نفسه فرحًا، كأنما كان وهذه الرسالة على موعد، وأخذ يتابع خيوط النور في سيرها ومسراها، فذهب إلى النبي - ﷺ - وأعلن أنه بطل جديد من أبطال الدعوة السابقين.

ومنذ ذلك الوقت صنع به أبوه أبو أحيحة ما صنع فلم يرجع خالد عن دينه قيد أنملة، ولزم الحبيب المصطفى - ﷺ - حتى خرج خالد مهاجرًا إلى الحبشة في الهجرة الثانية، فغاظ ذلك أبا أحيحة وغمه، وقال: لأعتزلن في مالي لا أسمع شتم آبائي، ولأعيب آلهتي هو خير إليَ من المقام مع هؤلاء الصبَاة.

فاعتزل سعيد في ماله بالظريبة نحو الطائف، وكان ابنه عمرو على دينه، وكان يحبه ويعجبه فقال أبو أحيحة:

ألا ليت شعري عنك يا عمرو سائلاً إذا شب واشتدت يداه وسلما
أتترك أمر القوم فيه بلابل وتكشف غيظًا كان في الصدر مؤججًا؟

فلما ذهب أبو أحيحة إلى ماله بالظريبة أعلن عمرو بن سعيد الإسلام ولحق بأخيه خالد بأرض الحبشة، وكان إسلامه بعد خالد يسير وكان قد كتم إسلامه حتى لا يفجع به أبوه، وخرج عمرو ومعه زوجته فاطمة بنت صفوان بن أمية.

رسالة قاتلة:

لما قرر عمرو بن سعيد - رضي الله عنه - الهجرة إلى الحبشة بأهله أرسل وهو في الطريق برسالة إلى أبيه يعلنه بدخوله إلى دوحة الربانية، عند ذلك تأخذ سيد بني عبد شمس هزة قاتلة، ويستبد به الحقد على رسول الله - ﷺ - أيما استبداد فقد كان عمرو أحب الأبناء إلى قلبه، فقال وهو على بساط مرضه الشديد، لئن رفعني الله من مرضي هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة ببطن مكة - يقصد بذلك النبي - ﷺ -؛ وأنه سوف يقتل جميع المسلمين في مكة -.

ويعلم خالد في مهاجره بأرض الحبشة بقول أبيه، فيتضرع إلى ربه ألا يرفعه من مرضه، وينفذ الدعاء الطاهر إلى عنان السماء، ويكتب الله له القبول، فيموت سيد بني عبد شمس، ويمضي إلى جنهم وبئس المصير.

فلما مات بكته قريش أشد البكاء، فلقد فقدت فيه أعظم لواء قام لحرب محمد - ﷺ - ومن معه، ولكنها ما لبثت أن رأت عوضًا في ابنه أبان بن سعيد بن العاص، وقد حمل لواء أبيه؛ ليواصل أذاه للمؤمنين، وقد كتب أبان لأخويها خالد وعمرو:

ألا ليت ميتًا بالظريبة شاهد ... لما يفترى من الدين عمرو وخالد

أطاعا بنا أمر النساء وأصبحا ... يعينان من أعدائنا من يكابد

فقال عمرو يجيبه:

أخي ما أخي لا شاتم أنا عرضُه ... ولا هو عن سوء المقالة يقصر

يقول إذا اشتدت عليه أموره ... ألا ليت ميتًا بالظريبة ينشر

فدع عنك ميتًا قد مضى لسبيله ... وأقبل على الحق الذي هو أظهر

الهجرة إلى المدينة:

ظل عمرو بن سعيد وزوجته - رضي الله عنهما - في أرض الحبشة قرابة ثلاثة عشر عاما، ظل فيها يعاني الغربة عن الأهل والأوطان، وعن مكة المكرمة مرتع الصبى

والشباب، وفوق كل ذلك هو بعيد عن الحبيب المصطفى - ﷺ - وصحبته في السلم والحرب، وكان يصبر على كل ذلك، فقد كان يعيش هو وزوجته فاطمة - رضي الله عنها - في عابدة متواصلة ليلاً نهارًا، حتى لحقت زوجتها الحبيبة إلى جوار ربها؛ وظل هو بضع سنوات في الغربة وحيدًا ينتظر أمر الرسول - ﷺ - له ولإخوته المهاجرين بالهجرة إلى المدينة.

فلم يزل كذلك حتى حمل في السفينتين مع أصحاب النبي - ﷺ -، وقدموا عليه وهو عائد من فتح خيبر سنة سبع من الهجرة.

فعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أنه قال: بلغنا مخرج النبي - ﷺ - ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي أنا أصغرهم: أحدهما أبو بردة، والآخر أبو رهم، في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، وواقفنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله - ﷺ - بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعًا، فوافقنا النبي - ﷺ - حين افتتح خيبر، فأسهم لنا أو قال: فأعطانا منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئًا، إلا لمن شهد معه، إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معًا.

خاتم عمرو:

لما دخل عمرو بن سعيد بن العاص - رضي الله عنه - على النبي - ﷺ - حين قدم من الحبشة، فقال له النبي - ﷺ -: أهلاً بك يا عمرو، ما هذا الخاتم الذي في يدك يا عمرو؟ قال: هذه حلقة يا رسول الله، فقال ﷺ: فما نقشها؟ قال عمرو: محمد رسول الله - ﷺ -، فأخذه رسول الله - ﷺ - منه الخاتم؛ فكان في يده حتى قبض ﷺ، ثم ظل في يد أبي بكر حتى قبض، ثم في يد عمر حتى قبض، ثم لبسه عثمان، فبينما هو يحفر بئرًا لأهل المدينة، يقال لها بئر أريس، فبينا هو جالس على شفتها يأمر بحفرها سقط الخاتم في البئر، فالتمسوه فلم يقدروا عليه.

الوالي المجاهد:

منذ أول يوم لعودة عمرو بن سعيد - رضي الله عنه - من الحبشة استعمله النبي - ﷺ - في عدة أعمال هامة، منها: أن جعله على قرى عربية عدة منها: تبوك، وخيبر، وفدك، لما يكتفى عمرو - رضي الله عنه - بأنه عمل على عدة قرى أمير، بل شارك في كل المشاهد بعد فتح خيبر، فقد شهد مع الرسول القائد - ﷺ - فتح مكة؛ وكان في مقدمة الجيش الغازي لعاصمة قريش بجوار قائد المقدمة خالد بن الوليد - رضي الله عنه -، وكان عمرو كذلك حاضر في معركة حنين، وكان من المائة الصابرة الصامدة بجوار النبي - ﷺ - يومئذ وكان له دور عظيم في هذا الفتح، وكان له دور كبير في حصار الطائف، ومعركة تبوك، وشهد عمرو كذلك حجة الوداع مع النبي - ﷺ -، ولما لحق النبي - ﷺ - إلى جوار ربه وهو عنه راض، قرر عمرو الخروج من المدينة، ولحق بالجيوش المجاهدة على جبهة الشام.

حان وقت الرحيل:

في حروب الردة تألق نجم عمرو بن سعيد وأخيه خالد وشهد لهم الجميع بالبطولة والإقدام، ولما انتهت حروب الردة؛ قرر الصديق أبو بكر - رضي الله عنه - فتح بلاد الشام، واختار خالد بن سعيد أول أمير من أمراء المسلمين؛ لمحاربة الروم في بلاد الشام، انطلق خالد بن سعيد ومعه جميع أهله رجال ونساء نحو الشام، وكان على رأس هؤلاء أخيه عمرو بن سعيد، انطلق الأخوين وجميع أهل هذا البيت المبارك يخرجون من نصر إلى نصر، ويحررون بلاد الشام من الغزاة.

وفي موقعة مرج الصفر بأرض الشام، حيث كانت المعارك تدور بين المسلمين والروم، رهيبة ضارية، كان في مقدمة الذين وقع أجُرهم على الله، شهيد جليل، قطع طريق حياته منذ شبابه الباكر حتى لحظة استشهاده في مسيرةٍ صادقة مؤمنة شجاعة.

ففي أول المعركة انطلق عمرو بن سعيد شاهراً سيفه، وانقض على جموع الروم وأحدث فيهم ثغرة كبيرة، ثم سقط شهيدًا، ورآه المسلمون وهم يفحصون شهداء المعركة، كما كان دائما، هادئ السَمت، ذكيَ الصمت، وبجواره أخوه ورفيق دربه خالد بن سعيد؛ وحول هؤلاء الأبرار جمعًا كبيرًا من شهداء بني عبد شمس قضوا جميعًا شهداء إلى جنان ربهم، كما أقسموا قبل ذلك في المدينة أمام الخليفة الصديق - رضي الله عنه -: اشهد لنا أنا جميعًا حبسنا في سبيل الله حتى الموت، فدعا لهم المسلمون: اللهم ارض عن بني سعيد بن العاص.

عبد الله بن أم مكتوم

مع السابقين:

شهد عبد الله بن أم مكتوم - رضي الله عنه - مطلع النور في مكة، فشرح الله صدره للإيمان، وكان من السابقين إلى الإسلام، ولقد عاش رضي الله عنه محنة المسلمين في مكة بكل ما حفلت به من تضحية وثباتٍ وصمودٍ وفداءٍ، وعانى من أذى قريش ما عاناه أصحابه، وذاق من بطشهم وقسوتهم ما بلوه؛ فما تراجع ولا ضعف ولا فترت له حماسة، ولا ضعف له إيمان، وإنما زاده ذلك استمساكًا بدين الله، وتعلقًا بكتاب الله، وتفقها بشرعِ الله، وإقبالاً على الرسول - ﷺ -.

عتاب من السماء:

كان ابن مكتوم قد بلغ من إقباله على النبي - ﷺ -، وحرصه على حفظ القرآن العظيم أنه كان لا يترك فرصة إلا اغتنمها، ولا سانحةَ إلا ابتدرها، بل كان إلحاحه على ذلك يغريه أحيانًا بأن يأخذ نصيبه من الرسول - ﷺ - ونصيب غيره، وقد كان النبي - ﷺ - في هذه الفترة كثير التصدي لسادات قريش، شديد الحرص على إسلامهم، فالتقى يوم بنخبة من سادات قريش، وطفق يفاوضهم ويناجيهم ويعرض عليهم الإسلام، وهو يطمع في أن يستجيبوا له، أو يكفون أذاهم عن أصحابه.

وفيما هو كذلك أقبل ابن أم مكتوم يستقرئه آية من كتاب ربه، ويقول: يا رسول الله، علمني مما علمك ربك، فأعرض عنه الرسول الكريم، وعبس في وجهه، وتولى نحو أولئك النفر من قريش، وأقبل عليهم أملاً في أن يسلموا فيكون في إسلامهم عزا لدين الله وتأييدٌ للدعوة.

وما إن قضى الرسول ﷺ حديثه معهم وفرغ من نجواهم، وهم أن يعود إلى أهله حتى أمسك الله عليه بعضًا من بصره وأحس كأن شيئًا يخفق برأسه، ثم أنزل عليه قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (عبس: 1 إلى 11).

إحدى عشرة آية نزل بها جبريل الأمين على قلب محمد - ﷺ - في شأن عبد الله ابن أم مكتوم لا تزال تتلى منذ نزلت حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومنذ لك اليوم ما فتئ النبي - ﷺ - يكرم ابن أم مكتوم إذا نزل، ويدني مجلسه إذا أقبل، ويسأله عن شأنه، ويقضي حاجته، ولا غرو أليس هو الذي عوتب فيه من فوق سبع سماواتٍ أشد عتابا، وكان إذا لقيه في جمع يقول: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي.

أول المهاجرين:

لما اشتدت قريش على الرسول - ﷺ - والذين آمنوا معه، واشتد أذاها لهم أذن الله للمسلمين بالهجرة، فكان ابن أم مكتوم أسرع القوم مفارقة لوطنه، وفرارًا بدينه، فعن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: كان أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير، ثم أتانا بعده ابن أم مكتوم، فقالوا: ما فعل من ورائك؟ فقال: هم أولاء على إثري.

وما إن بلغ عبد الله بن أم مكتوم المدينة حتى طفق هو وصاحبه مصعب بن عمير يترددان على الناس ويقرآنهم القرآن، ويفقهانهم في دين الله، ولما قدم النبي ﷺ إلى المدينة؛ اتخذ ابن أم مكتوم وابن رباح مؤذنين للمسلمين يصدعان بنادي السماء، وكان النبي - ﷺ - يبالغ في إكرام ابن أم مكتوم، فقد استخلفه على المدينة عند غيابه بضع عشرة مرة.

عذر من فوق سبع سماوات:

في أعقاب بدر أنزل الله على نبيه من آي القرآن ما يرفع شأن المجاهدين، ويفضلهم على القاعدين لينشط المجاهد إلى الجهاد، ويأنف القاعد من القعود؛ فأثر ذلك في نفس ابن أم مكتوم، وعز عليه أن يحرم من هذا الفضل، وقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، ثم سأل الله بقلبٍ خاشعٍ أن ينزل قرآن في شأنه وشأن أمثاله ممن تعوقهم عاهاتهم عن الجهاد، وجعل يدعو في ضراعةٍ: اللهم أنزل عذري، اللهم أنزل عذري، فما أسرع أن استجاب الله جل وعز لدعائه.

فعن زيد بن ثابت ﷺ قال: كنت إلى جنب الرسول - ﷺ -، فغشيته السكينة، فوقعت فخذه على فخذي؛ فما وجدت شيئًا أثقل من فخذ رسول الله - ﷺ -، ثم سرَي عنه فقال: اكتب يا زيد، فكتبت: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: 95).

فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، فكيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ فما انقضى كلامه حتى غشيت النبي - ﷺ - السكينة، ثم سري عنه، فقال: اكتب ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ فنزل الاستثناء الذي تمناه ابن أم مكتوم، وعلى الرغم من أن الله سبحانه أعفى عبد الله وأمثاله من الجهاد، فقد أبت نفسه الطموح أن يقعد مع القاعدين، وعقد العزم على الجهاد؛ لأن النفوس الكبيرة لا تقنع إلا بكبار الأمور، فحرص منذ ذلك اليوم على ألا تفوته معركة، لكل الرسول القائد - ﷺ - كان يرفض في كل مرة.

حامل الراية:

لما لحق النبي ﷺ بجوار ربه تهيأت الفرصة أمامه في السنة الخامسة عشرة للهجرة عندما عقد الفاروق العزم على أن يخوض مع الفرس معركة فاصلة تقضى على دولتهم، وتزيل ملكهم، وتفتح الطريق أمام الإسلام في بلاد العراق وفارس؛ فكتب إلى عماله يقول: لا تدعون أحدا له سلاحٍ، أو فرس، إلا انتخبتموه ثم

وجهتموه إليَّ، والعجل العجل.

طفقت جموع المسلمين تلبي نداء الفاروق، وتنهال على المدينة من كل حدب وصوب، وكان في جملة هؤلاء المجاهدين البطل مكفوف البصر عبد الله بن أم مكتوم، فأمر الفاروق على الجيش الكبير سعد بن أبي وقاص، وأوصاه وودعه، ولما بلغ الجيش القادسية، برز ابن أم مكتوم لا بسًا درعه، مستكملاً عدته، فقال له سعد: ماذا تفعل هنا يا أم ابن مكتوم، قال: جاءت هنا للجهاد في سبيل الله، فقال سعد: وكيف ذلك وقد عذرك الله، وكيف تقتل بالسيف، قال: يا سعد أقيموني بين الصفين، وحملوني اللواء أحمله لكم وأحفظه، فأنا أعمى لا أستطيع الفرار، والموت عندي أهون من سقوط راية الإسلام.

حان وقت الرحيل:

التقى الجمعان في أربعة أيام قاسية واحترب الفريقان حربًا لم يشهد لها تاريخ الفتوح مثيلاً حتى انجلى اليوم الرابع للمعركة عن نصرٍ مؤزرٍ للمسلمين، وقاتل المجاهد المحتسب بما استطاع في المعركة حتى نال الشهادة وهو يعانق راية المسلمين، مضى البطل إلى ربه راضيًا مرضيًا، بعد أن أثبت أن المؤمن المخلص لا يستسلم للعجز، بل يحاول ويناضل حتى يبلغ الكتاب أجله.

سعد بن عبيد

الشهيد القارئ:

القارئ - احفظوا هذا الاسم جيدًا فإن له نبأ عجيبًا وخبرًا غريبًا - هكذا كان المسلمون في المدينة ينادون سعد بن عبيد - ﷺ -، فقد كان رخيم الصوت، رقيق النبرات، يقرأ آيات الله تعالى فيملأ النفوس روعة ومهابة وجلالاً، فترق القلوب، وتنهمر الدموع، وتفاعل القرآن في قلب سعد بن عبيد فملأه خشية ومهابة، وشوقًا إلى الله تعالى، فقد كان أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد الرسول الأعظم - ﷺ -، ولم يتخلف قط عن مشهد شهده الرسول - ﷺ -.

كان حفظ سعد بن عبيد - ﷺ - للقرآن من أقوى الأسباب التي دفعت به إلى مواقف الرجولة والبطولة، فكان إذا التحم مع أعداء الله؛ تتوق نفسه إلى الشهادة؛ لينتظم مع صفوف: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ (النساء: 69)، فتعالوا بنا؛ لنتعايش قليلاً مع سيرة هذا الصحابي الفذ كما جاءت في كتب السير والتراجم والطبقات.

اسمه ونسبه:

هو سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري، قيل اسمه: سعيد، لكن على الأرجح أنه سعد، ويكنى أبا عمير، وقيل: أبو زيد، كان يلقب بالقارئ.

مع السابقين:

أطلَ الإسلام بنوره على جزيرة العرب، وانتشر بإشعاعه وتألقه في حنايا النفوس، ورأى الناس في الدين مثابةَ لهم، وملاذًا آمنًا، فأسرع سعد بن عبيد -

ﷺ – ونفر من قومه إلى مكة، وأعلنوا إسلامهم أمام رسول الله – ﷺ –، وعاد سعد بن عبيد إلى المدينة المنورة وقد أسلم جميع أهله جميعًا، ووجدوا في رسول الله – ﷺ – القدوة الحسنة في مناحي حياتهم، ومنذ ذلك اليوم أخذ نجم سعد بن عبيد في الصعود، ولما جاء الحبيب – ﷺ – المدينة كان من أقرب الرجال إليه يتعلم من أخلاقه، ويقتبس من هديه.

لقب القارئ:

لم يمنح الناس لقب القارئ لسعد مصادفة، ولكنه منح له؛ لإقباله على القرآن الكريم حفظًا ودراسة وتلاوة وجمعا، والقرآن الكريم يرفع صاحبه ويضعه في المنزلة العليا بين الناس، وقد ورد في فضائل القرآن الكريم آثار لا تحصى منها ما أورده الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية وغيرهم، قول رسول الله – ﷺ –: القرآن شافع مشفع، ماحل مصدق، فمن جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار.

وليس بعد كلام الله عز وجل كلام حيث يقول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: 9).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: 15 إلى 16).

وكان أصحاب الرسول – ﷺ – يقبلون على ما يسمعون من آيات ربهم التي تنزل على النبي ﷺ فيحفظونها، ومنهم من كان يعنى بكتابتها، ولكن قليلاً منهم من تمكن من جمع القرآن حتى قال الرواة: إن الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله – ﷺ – أربعة رجال من الأنصار، منهم سعد بن عبيد.

وفي رواية أخرى في أسد الغابة بسنده عن قتادة عن أنس بن مالك أنه قَال: افتخر الحيان: الأوس، والخزرج، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة: حنظلة بن أبي عامر، ومنا الذي حمته الدبر: عاصم بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أجيزت شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت، فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله - ﷺ -: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد سعد بن عبيد.

وفي رواية لأبي عمر الواقدي أربعة جمعا القرآن على عهد رسول الله - ﷺ -، منهم أبو زيد يقال له: سعد القارئ، ويكنى أبا عمير، بابنه عمير بن سعد، وابنه عمير هو الذي كان واليًا لعمر بن الخطاب على بعض الشام - يقصد هنا مدينة حمص -، وقتل أبو زيد سعد بن عبيد يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وهو ابن أربع وستين سنة.

إمامته للصلاة:

كان من عادة النبي - ﷺ - أن يخصص لإمامة الناس في الصلاة أكثر الناس حفظًا للقرآن؛ ولذلك عهد إليه بالإمامة في مسجد قباء - وهو أول مسجد في الإسلام - إلى سعد بن عبيد، وظل قائمًا بهذه المهمة عي عهد النبي - ﷺ -، وأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - من بعده، ومن بعده في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولما لقى ربه شهيدًا في القادسية عهد الفاروق لهذه المهمة من بعده إلى مجمع بن جارية - رضي الله عنه -، وهو من تلاميذ سعد بن عبيد، وعبد الله بن مسعود.

جهاده:

كان سعد بن عبيد - رضي الله عنه - من كبار المجاهدين في سبيل الله، ولقد زاده حفظه للقرآن وحبُه له إقبالاً على التضحية والجهاد؛ لأن القرآن الكريم يحض المؤمنين على الجهاد، ويرغب فيه، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون غير مطبق لما يرتل

ويحفظ، إن حلاوة العلم العمل به، وجمال القرآن في تدبره، والله تعالى في كتابه يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: 24).

لقد جاءت هذه الآية في سورة محمد التي تسمى سورة القتال؛ لأنها صدرت بقتال الكفار وجهادهم، وتمجيد الجهاد حيث جاء فيها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: 4 إلى 7).

ولذلك خرج سعد بن عبيد - رضي الله عنه - مجاهدًا في سبيل الله منذ بواكير الجهاد في الإسلام، فشهد بدر فكان في مقدمة الصفوف حتى إذا ما دارت رحى الحرب الطاحنة بين الفريقين المتباينين، كان سعد بن عبيد يدك صفوف المشركين، ويخوض المنايا بسيفه طلبًا للشهادة، وشوقًا إلى الجنة، وفي أُحد أُبلى سعد أصدق البلاء، وعرض نفسه للموت مرات ومرات، ولكن الله كتب له السلامة ليخرج مع رسول الله - ﷺ - إلى كل المشاهد والسرايا، حتى لحق الرسول الكريم - ﷺ - بالرفيق الأعلى.

جهاده بعد الرسول - ﷺ -:

ظل سعد بن عبيد - رضي الله عنه - حتى بعد وفاة الرسول الأعظم - ﷺ - يحسن الجمع بين مائدة القرآن، وساحة الميدان، نراه في المحاريب قارئًا أو مقرئًا، يجاهد بلسانه فيرتل آيات ربه في إتقان وإحسان، ونراه في المعارك يدفعه ما في صدره من آيات الجهاد إلى مواقف البطولة والتضحية والبذل والفداء.

ولما اشرأبت الأعناق المنافقة تجهر بِالرَّدَّةِ، وتطاولت رؤوس الفتن ترفع رايات الردة والكفران في أقصى الجزيرة وأدناها، دعا خليفة رسول الله - ﷺ

- إلى حرب المرتدين، كان في مقدمة الكتيبة المؤمنة قارئ الإسلام سعد بن عبيد يطلب النصر أو الشهادة.

وكان سعد يقذف بنفسه في مهالك المعارك؛ ليظفر بالاستشهاد والرضوان، ولكن إرادة الله كانت تخرجه سالمًا بعد كل عراك، وبعد أن استتب الأمر بالقضاء على الردة فتحت صفحة جديدة من صفحات الجهاد، وخرج المسلمون يبشرون بدين الله عز وجل في الآفاق، فكان سعد بن عبيد - ﷺ - أحد الجنود الذي شاركوا في الفتوحات الإسلامية.

على جبهة العراق:

لما جاءت حملة فتح العراق التي سيرها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق - ﷺ -، كان سعد بن عبيد في مقدمة المجاهدين يقاتل الكافرين في النهار، وينكب على قرآنه العظيم في الليل.

وانتقلت الحملة الإسلامية في جبهة العراق من نصر إلى نصر حتى كان الاختبار الصعب يوم الجسر، حين تكاثرت سيوف الفرس وأفيالهم من حول المسلمين، فقتل صاحب لوائهم الصحابي الجليل أبو عبيد بن مسعود الثقفي - ﷺ -؛ إذ برك فوقه فيل ضخم، ثم قتل أخوه، ثم قتل ابنه وهب، ثم قتل ابنه مالك، ثم قتل ابنه جبر، وكل يسلم اللواء للآخر حتى قتلوا جميعًا، حتى تسلَم المثنى بن حارثة - ﷺ -، فانحاز بالمسلمين إلى مأمن يقيئهم شر الهلكة الشاملة.

وكان سعد بن عبيد آنذاك من الذين نجوا بأنفسهم من الموت فلمَا هدأ هدير العراك، وثاب سعد إلى نفسه وقد هاله ما أقدم عليه من إيثاره للنجاة، وهو الذي كان يقذف بنفسه في كل أتون يطلب الشهادة.

بينه وبين الفاروق:

منذ فرار سعد بن عبيد – ﷺ – يوم الجسر ما زالت تلك الزلة تؤرقه وتقض مضجعه، حتى علم الفاروق بهذا الأمر، وأراد عمر – ﷺ – أن يغير سعد بن عبيد جبهة القتال ويوجهه إلى جبهة الشام فكتب له وقال: هل لك في الشام يا أبو زيد؟ فإن المسلمين قد نزفوا به – أي كثر قتلاهم به –، وإن العدو قد ذئروا عليهم – أي كثروا عليهم – ولعلك بذلك تغسل عنك الهنيهة التي تؤرقك.

لكن سعد بن عبيد أصر على بقائه في جبهة العراق، وكتب إلى الفاروق، وقال: لا يا أمير المؤمنين، لا، أترك الأرض التي فررت منها، والعدو الذين صنعوا بي ما صنعوا.

أسد القادسية:

لما نادى منادي أمير المؤمنين الفاروق يندب المؤمنين للحاق بركب سعد بن أبي وقاص المتوجه لقتال الفرس، فيجدها سعد فرصة يمحو بها زلته يوم الجسر، فيأخذ البطل سيفه ويركب فرسه، وييمم وجهه شطر قائد الجبهة الجديد سعد بن أبي وقاص – ﷺ –؛ لينتظم في صفوف المجاهدين وتحت راية التوحيد، ويلحق بركب سعد بن أبي وقاص في العراق.

ويبعث سعد بن أبي وقاص سعد بن عبيد رسولاً إلى النعمان ابن المنذر ملك الحيرة النصراني الذي تصدى لمقابلة المسلمين بأمر من سيده كسرى، ويدخل سعد بن عبيد بلاط النعمان شامخ الرأس، فيصيح به اَلْحَاجِب أن يركع للملك فيزدريهم، ويمضي حتى يصل إلى عرش النعمان، فَيؤدي له الرسالة التي يحملها بعزة وشموخ، إِمَّا الإسلام، أو الجزية عن يد وهم صاغرون، أو – السيف بيننا وبينكم.

ويعود سعد بن عبيد وهو يحمل إلى قائده جواب النعمان الذي أخذته العزة بالإثم، واستحوذ عليه الشيطان وأبى إلا القتال بجانب الفرس.

شهيد ينعى نفسه:

في اليوم التالي جهز سعد بن أبي وقاص جيشه فجعل سعد بن عبيد على الميمنة، واحتدم العراك يومين، وتناثرت الرؤوس دون حساب ثم هدأ صوت المعركة في مساء اليوم الثاني، فبرز سعد بن عبيد بين جنده أصحاب الميمنة، وخطب فيهم يقول:

يا معشر من باع نفسه لله، إنا ملاقي العدو غدًا، وإنا مستشهدون، فلا يغسلن عنا دما، ولا نكفن إلا في ثيابنا.

وفي اليوم الثالث لمعركة القادسية، وفي ليلة الهرير أقبل سعد بن عبيد - ﷺ - على القتال إقبال من يدق أبواب الجنة دَقًّا، فقد ظل يقاتل ويقاتل ويجالد، مقدمًا غير محجم حتى نال ما أراد، إذ سقط شهيد يطرق أبواب الجنة والرضوان.

وانتصر المسلمون يومئذ انتصارًا مبينًا، وطارت الأنباء إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بالبشرى فيحمد الله تعالى ويثني عليه، ثم يأتيه نبأ استشهاد سعد بن عبيد - ﷺ -، فينزل عليه نزول الصاعقة، فيأسى أَسَى شديد ويقول لمن حوْله: والله كاد مقتل سعد بن عبيد يُنَغَّص عليَ هذا الفتح.

صفوان بن المعطل

خادم القوم سيدهم:

كان صفوان بن المعطل - رضي الله عنه - من سادات المسلمين كما يقول شيخ المؤرخين ابن كثير؛ وذلك لأنه كان خادمهم يجمع لهم أمتعتهم المتبقية خلفهم بعد انتهاء المعارك، وسيد القوم خادمهم كما يقال، وكان النبي ﷺ يرسله في حوائجهم؛ لأنه كان يحب ذلك ويجد فيه المتعة الروحية لمساعدة المسلمين، وكان النبي - ﷺ - يحبه ويجلسه ويدعو لمن يحسن إليه.

براءة من السماء:

كان صفوان فتى شاعرًا يقول الشعر في أغراض حميدة، فقد هذب الإسلام طباع الشعراء الذين حسن إسلامهم؛ كصفوان بن المعطل، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت وغيرهم من فحول الشعراء، وقد شاء الله تبارك وتعالى أن يرفع مكانة صفوان إلى أعلى عليين لفرط تواضعه لله وتواضعه للناس في غير منقصة، فابتلاه بمحنة فيها منحة، فسرعان ما ذهبت المحنة وبقيت المنحة، إنها محنة دنيوية خلدت ذكراه في العالمين، ومنحة أخروية خلدته في جنات النعيم، هذه المنحة جاءت مغلفة بمحنة الإفك.

تتلخص حادثة الإفك في الآتي: في غزوة بني المصطلق، كان صفوان بن المعطل رضي الله عنه يسير في ساقة الجيش يلتقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به؛ ولذلك تخلف عن الجيش، فمر - رضي الله عنه -؛ فرأى سواد إنسان، فقرب منه فإذا هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قد ذهبت لحاجتها، فانقطع لها عقد، فردت تفتش

عليه، وحمل الناس فحملوا هودجها يظنونها فيه، وكانت صغيرة لها خمس عشرة سنة، وساروا، فرجعت إلى مكان العسكر وما فيه أحد.

فقد انطلق الجيش، فقعدت وقالت: سوف يفقدونني، فلما جاء صفوان رآها، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولم ينطق بغيرها، وأناخ بعيره، وركبها وسار يقود بها، حتى لحق الناس نازلين في وقت الظهيرة، فتكلم أهل الإفك وعلى رأسهم رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول، فقال النبي - ﷺ -: من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا.

وقد ذكروا رجل - يقصد صفوان بن المعطل - ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، وقال أهل الإفك ما قالوا، وجهلوا، حتى أنزل الله الآيات في براءتها وبراءة صفوان، يقول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: 11).

ففرح صفوان بهذه البراء المصحوبة بتلك البشرى التي يتمناها كل مسلم من أعماق قلبه، وفرحت عائشة - رضي الله عنها -، وليس هناك تكريم أعظم من هذا التكريم.

البطل المغامر:

كان صفوان بن المعطل - رضي الله عنه - رجلاً لا يهاب الموت في سبيل الله، ولا يتخلف عن شيء فيه نصرة النبي - ﷺ -، تروي كتب السير: إن فريقًا من المشركين تجمعوا عند حصن اسمه فارع يطعنون في حق الرسول ﷺ، فقال لمن حوله من المسلمين: من لي بأصحاب البساط عند فارع؟ - أي من يؤدبهم ويقيني شر ألسنتهم -.

فقال صفوان: أنا لك بهم يا رسول الله، فخرج صفوان إليهم وحده، وقد حمل سيفه، وعقد نيته وعزيمته على أن لقاهم منفردًا، فإما أن ينال منهم ويؤدبهم، وإما أن ينال الشهادة، وحينما رأته عصبة السوء شاهرًا سيفه، مقبلاً كالسيل الجارف

العارم، والشرر ينقدح من عينه، خافوه وأطلقوا سيقانهم للريح.

لقد شارك صفوان - رضي الله عنه - في المشاهد كلها مع الرسول القائد - صلى الله عليه وسلم - بعد بني المصطلق، ولما لحق النبي - صلى الله عليه وسلم - بربه، جاهد مع الصديق في حروب الردة والفتوح الإسلامية وكان دور كبير في معارك الردة، وفي زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اتسع نشاط صفوان في الجهاد، فاشترك في معظم المعارك على جبهة الشام، وحضر فتح دمشق، وحمص، وحلب، والقدس وغيرهم.

إلى الرفيق الأعلى:

خرج صفوان بن المعطل - رضي الله عنه - مجاهدًا في معركة أرمينية في السنة التاسعة عشرة، وكان قائد الجيش فيها عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه -، وكان معه أمراء مساعدون، أحدهم صفوان بن المعطل، وجاهد صفوان يومئذ جهادًا حميدًا مجيدًا، حتى اندقت رجله، ولكنه طاعن بها وهي منكسرة، وظل يناضل القوم كالجبال الراسيات حتى نال الشهادة في هذه المعركة.

وهكذا أرانا صفوان - رضي الله عنه - في حياته صورة للمسلم المطواع لأمر الله سبحانه، وأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم -، وهو لا يتردد حين يدعوه الداعي إلى موقف البذل والتضحية والفداء.

النعمان بن مقرن

الغازي الفاتح:

لا شك في أن أعلى وجوه البطولة وأكثرها خيرًا وأثرًا، هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والبطولة، حتى يعطى القدوة من نفسه فإذا الذين من ورائه يسارعون إلى مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء، وتاريخ الإسلام يعرض علينا الكثير من نماذج القادة الذين كانوا أسوة حسنة لجنودهم في الحرص على صدق الجهاد وروعة الاستشهاد.

وحديثنا في هذه الورقات عن أمير فتح الفتوح نهاوند، ومن منا لا يعرف معركة نهاوند ودورها في حاسم الصراع مع الفرس، هذا العلم الكبير نقرأ اسمه في الورقة الأولى في شهداء نهاوند، إنه الغازي الفاتح النعمان بن مقرن المزني ﷺ، فتعالوا لنتعايش مع القصة منذ البداية.

الهجرة إلى الله ورسوله:

لما أذن الله تعالى لرسوله - ﷺ - بالهجرة إلى المدينة هاجر إليها؛ ليجد لنفسه وإخوانه أرض خصبة تقبل هذا الغرس المبارك، وما إن وصل الحبيب - ﷺ - حتى وجد قلوبًا طاهرة ووجوهًا مشرقة بالإيمان، فأقام الحبيب - ﷺ - بين هؤلاء الأطهار الذين بذلوا المال والنفس من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض، بل واستعذبوا العذاب في سبيل نصرة هذا الدين.

وكانت أخبار المصطفى وأصحابه تصل إلى أسماع قبيلة مزينة مع الغادين والرائحين، فلا تسمع إلا خيرًا، وفي ذات عشية جلس سيد القوم النعمان بن مقرن في بيته مع إخوته وسادة قبيلته، فقال لهم: يا قوم، والله ما علمنا عن محمد إلا خيرًا،

ولا سمعنا من دعوته إلا مرحمة وإحسانًا وعدلاً، فما بالنا نبطئ عنه، والناس إليه يسرعون؟ ثم أتبع قائلاً: أما أنا قد عزمت على أن أغدو عليه، إذا أصبحت، فمن شاء منكم أن يكون معي فليتجهز.

وكأنما مست كلمات النعمان قلوب القوم، فما إن طلع الصباح حتى وجد إخوته العشرة، وأربعمائة فارس قد جهزوا أنفسهم للمضي إلى المدينة للقاء النبي - ﷺ -، بيد أن النعمان استحى أن يفد مع هذا الجمع على المدينة دون أن يحمل شيئًا للمسلمين، ولكن السنة مجدبة التي مرت بها مزينة لم تترك لها ضرعًا ولا زرعًا، فطاف النعمان ببيته وبيوت إخوته، وجمع كل ما أبقاه لهم القحط من غنيمات وساقها أمامه، وقدم بها على النبي - ﷺ -، وأعلن القوم جميعًا إسلامهم.

الأسد في عرينه:

منذ دخلوا الإيمان قلب النعمان، لازم النعمان وقومه المدينة وأقاموا بها، لا يرون بديلاً عن قربهم من رسول الله ﷺ، ولقد أحب النعمان النبي - ﷺ - حبًا ملك عليه لبه وفؤاده، وكان قلبه يحترق شوقًا لنصرة هذا الدين؛ لكي يستدرك كل ما فاته من الخير قبل أن يدخل الإسلام ويشعر بنعمة الإيمان، وإذا بالنعمان؛ يبذل نفسه وماله لله - عز وجل -، فقام وقد باع نفسه لله ليشهد المشاهد، فكان يقاتل كالأسد في عرينه يشق صفوف الأعداء ويصيب قلوبهم بالرعب من جرأته وشجاعته وإقدامه، فشهد مع الرسول القائد - ﷺ - الخندق وأبلى حسن، وكان معه لواء مزينة في فتح مكة.

ولما آلت الخلافة إلى الصديق وقف معه هو وقومه وقفة حازمة كان لها أثر كبير في القضاء على فتنة الردة خصوصًا في معركة ذي القصة عندما هاجم المرتدون المدينة، فأبدى النعمان بن مقرن وقومه من ضروب الشجاعة والقتال فنونًا فكانوا في الطليعة حتى ولى المرتدين الأدبار.

محطم الفرس:

لما انهزم الفرس في القادسية، لم يستكن يزدجرد الثالث ملك الفرس، وأخذ يجمع الجموع، ويحشد الجيوش حتى اكتمل لهم خمسون ألف من أشداء المقاتلين، وتعاقدوا وتعاهدوا على النصر، وصمموا على متابعة القتال مع المسلمين حتى النهاية، ولما علم الفاروق بأمر تحرك الفرس من جديد أمر سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة بأرسل النعمان بن مقرن بجيش كثيف إلى الأهواز.

انطلق النعمان في أهل الكوفة فأخذ طريقة وسط السواد حتى قطع دجلة ثم أخذ البر إلى الأهواز، ثم سار نحو قائد الفرس الهرمزان، وقد علم الهرمزان بمسير النعمان إليه، فأراد أن يبادره راجيًا أن ينال منه، طامعًا في نصر أهل فارس الذين أقبلوا من كل مكان وتجمعوا عند تستر، وكان اللقاء عند أربك وهي مدينة بالأهواز فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم منَ الله على المسلمين بالنصر، وفر الهرمزان بفلوله ناحية تستر، واستولى النعمان على مدينة رامهرمز وأقام بها، يعيد تنظيم قواته.

وكان أهل البصرة بقيادة أبا رهم بن سبرة قد بلغتهم أنباء النصر الذي حققه النعمان ولجوء الهرمزان إلى تستر، فساروا إليها، وكتبوا إلى عمر، فأمدهم بأبي موسى الأشعري على رأس قوات جديدة، وعند تستر التقت جيوش المسلمين فحاصروهم، والهرمزان بها، وطال أمد الحصار عاما ونصف، وتزاحف الطرفان إلى بعضهم، واشتد القتال، وحقق المسلمون النصر في النهاية، وأسروا الهرمزان على يد النعمان بن مقرن.

أسبق من الأسنة:

كان ما حدث للهرمزان حافز لأمراء الفرس أن يوحدوا كلمتهم، فتكاتفوا وتجمعوا في نهاوند حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفًا، وكان قائد هذه الجموع ذو الحاجبين الفيرزان، لما وقف الفاروق على أخبار هذا الحشد العظيم، عزما على أن يمضي إلى مواجهة هذا الخطر الداهم بنفسه، ولكن وجوه الصحابة ردوه

عن عزمه، وأشاروا عليه أن يرسل قائدًا يعتمد عليه في مثل هذا الأمر الجليل، فقال عمر: أشيروا علي برجلٍ لأوليه ذلك الثغر، فقالوا: أنت أعلم بجندك يا أمير المؤمنين، فقال: والله لأولين على جند الإسلام رجلاً إذا التقى الجمعان كان أسبق من الأسنة، واختار النعمان بن مقرن.

ثم كتب الفاروق إلى النعمان يقول: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن، أما بعد، فإنه بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتاب هذا فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا تواطئهم وعرًا فتؤذيهم، فإن رجلاً واحدًا من المسلمين أحب إليَ من مائة ألف دينارٍ، والسلام عليك.

هب النعمان بجيشه للقاء العدو، وأرسل أمامه طلائع من فرسانه لتكشف له الطريق، فلما اقترب من نهاوند، توقفت خيولهم، فدفعوها فلم تندفع، فنزلوا عن ظهورها ليعرفوا الخبر فوجدوا في حوافر الخيل شظايًا من الحديد تشبه رؤوس المسامير، فنظروا في الأرض فإذا الفرس قد نثروا في الدروب المؤدية إلى نهاوند حسك الحديد، ليعوقوا الفرسان والمشاة من الوصول إليها.

أخبر الفرسان النعمان بما رأوا، فاجتمع النعمان وقادة الجيش في خيمته، فقال طليحة بن خويلد: أرى أن تبعث خيلاً لينشبوا القتال، فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا، فإذا رأوا ذلك؛ طمعوا وخرجوا فقاتلوهم حتى يقضي الله فينا ما أحب، فاستحسن النعمان وباقي القادة رأي طليحة واتفقوا على تفاصيل الخطة وأبعادها، وكان الوقت قد قارب الفجر.

أرسل النعمان الفارس الباسل القعقاع بن عمرو على رأس الخيل، حتى دقوا أبواب الحصون، فخرج إليهم خيالة الفرس، ونشب القتال العنيف بين الطرفين، ثم تراجع القعقاع أمامهم برجاله، فجازت الحلية على الفرس، فما إن رأوا طليعة جيش المسلمين تمضي منهزمة أمامهم حتى أرسلوا عمالهم، فكنسوا الطرق من

الحسك، فقاموا بمطاردة القعقاع ورجاله، وأغرى هذا التصرف آخرين من الفرس لا يزالون في خنادقهم وحصونهم، فخرجوا يتبعون القعقاع وخيله.

كان المسلمون على تعبئتهم الكاملة، وقد أمرهم النعمان أن يثبتوا في أماكنهم، ولا يلتحمون بقتال حتى يأذن لهم، وأقبل الفرس عليهم يرمونهم بالسهام، وانتظر النعمان حتى يخرج جميع الفرس من الحصون، ثم ركب فرسه، وسار بين صفوف جنده، يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال، ويحرضهم على الصبر والشهادة ثم أعلن: إني مكبر ثلاث، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن قد تهيأ، فإذا كبرت الثاني فليشدد كل رجل منكم سلاحه على نفسه وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة، فإني حامل على أعداء الله فاحملوا معي.

ثم رفع النعمان يديه إلى السماء ودعا: اللهم إني أسالك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، وذل يذل به الفرس، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة، وأجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وكأن القوم لم يسعهم إلا التأمين على هذا الدعاء الجليل، فأمن المسلمين وبكوا.

حان وقت الشهادة:

جاءت لحظة الانطلاق، وكبر النعمان تكبيراته الثلاث، واندفع في صفوف العدو وكأنه الليث عاديًا، وتدفق وراءه جنود المسلمين تدفق السيل، ودارت بين الفريقين رحى معركة ضروس قلما شهد تاريخ الحروب لها نظيرًا، فتمزق جيش الفرس شر ممزقٍ، وملأت قتلاه السهل والجبل، وسألت دماؤه في الممرات والدروب، واندفع النعمان في صفوف الفرس أكثر وأخذ يطعن ويطعن، متعرضًا في الوقت نفسه للطعنات عن يمين وشمال، حتى زلق جواده بسبب الدماء الغزيرة التي غطت أرض المعركة وسقط الجود صريعًا، وسقط النعمان من فوقه وجاء أحد أعدائه، فعاجله بضربة أعجزته عن الحركة، وشاهده أخوه نعيم وهو لا

يتحرك، فحسبه قد فارق الحياة فغطاه بثوب بسرعة، وأخذ الراية من يده، ودفع بها إلى حذيفة بن اليمان.

وكأن مصرع النعمان كان ثمن النصر، فما هي إلا لحظات حتى دارت الدائرة على بقية الفرس ووقع الفيرزان ذو الحاجبين صريعًا ففتح الله على المسلمين، وأتى معقل بن يسار إلى النعمان وبه رمق من حياة فصب على وجهه الماء ليغسل عنه التراب، فقال النعمان: من هذا؟ فقال: معقل بن يسار، فقال: ما فعل الناس؟ قال له: فتح الله عليهم، فقال: الحمد لله اكتبوا بذلك إلى عمر، وفاضت روحه إلى بارئها.

ولما جاء نعيه إلى عمر بن الخطاب، صعد المنبر ونعاه إلى الناس، ووضع يده على رأسه وهو يبكي.

الأقرع بن حابس

إعراض عن نور السماء:

كان الأقرع في جاهليته مثلاً من أمثلة الغلظة والخشونة والعنف، نعم كان عظيماً في قومه، وكان أكثرهم معرفة وخبرة، وكان الأقرع في أول أمره مَجُوسِيًّا، وحينما أشرق نور الإسلام لم يسارع الأقرع إليه، بل تقاعس عنه وتمرد عليه، وأعلن الحرب ضد رجاله في كل حرب أو سرية يخرج من قتال ليدخل في آخر وظل كذلك يقاتل ويحارب الإسلام ونبي الإسلام.

في رحاب الخالدين:

ظل الأقرع كذلك على غلظته وفظاظته حتى فتح الرسول القائد مكة - ﷺ -، وكان الأقرع من المؤلفة قلوبهم، وكان النبي - ﷺ - يعرف تطلع الأقرع إلى سمو المنزلة وعلو المكانة، لأنه كان شريفًا وسيدًا بين قومه في الجاهلية، فأكرمه الرسول - ﷺ -، وحفظ له مكانته فكان شريف في الجاهلية والإسلام.

في ساحات الوغى:

منذ أن دلف الأقرع إلى الدوحة الربانية انطلق في ركب الرسول القائد - ﷺ - يجاهد ويناضل، فشهد معه يوم حنين، والطائف، وتبوك، وظل يبذل في سبيل الله جهده حتى لحق الرسول القائد ﷺ بربه، حزن الأقرع وازداد ضيقًا على ضيقه، ووحشة فوق وحشته بعد وفاة الحبيب - ﷺ -، رغم ذلك واصل الأقرع بعد ذلك جهاده فكان له دور عظيم في حاسما حروب الردة، وأظهر بطولة عظيمة في كل عراك.

ولما انتهت الفتنة العمياء اشترك الأقرع مع شرحبيل بن حسنة في موقعة دومة الجندل في عهد الصديق ﷺ، ثم اشترك مع خالد بن الوليد سيف المسلول في معارك فتح العراق والأنبار، وكان على مقدمة الجيش في أغلب المعارك على جبهة العراق.

الشهيد العجوز:

وفي عهد الفاروق انتقل الأقرع إلى ميدان جديد من ميادين الجهاد هناك في بلاد العجم، وفي منطقة خراسان، حيث جاهد مع الأحنف بن قيس، وعبد الله بن عامر، ثم تولى الأقرع إمارة الجيش المجاهد في خراسان، حيث خاض مع العجم معركة الجوزجان – وهي بلدة من بلاد خراسان –.

كانت معركة الجوزجان معركة شرسة قاسية، وكان الأقرع بن حابس يقاتل فيها وحوله عشر من أهل بيته، كلا منهم قد باع نفسه لربه، وكانت المعركة تزداد شرسة وعنف كل يوم، وكان الأقرع يقاتل ببسالة وشجاعة نادرة، وفي خلال أيام القتال سقط آلاف وآلاف من الفريقين، وازداد هجوم الأعداء شدة، وصمد المسلمون على قتلهم وبدأوا يتساقطون، ثم جاءت الريح للأقرع وأهله بيته؛ فانقلب ميزان المعركة وتم النصر، وفتحت الجوزجان – سنة ثلاث وثلاثين – وارتفعت رايات الإسلام على خراسان كلها، ودفع المسلمين ثمن النصر غاليًا من أرواح شهدائهم، وكان من بين أولئك الشهداء الأوفياء الشيخ العجوز الذي تجاوز مائة عامٍ من عمره سيد بني تميم الأقرع بن حابس التميمي وجميع أهل بيته شهداء.

فهرس الموضوعات

لماذا سير الصحابة؟ 5
مقدمة 7
حارثة بن سراقة 9
حمزة بن عبد المطلب 15
سعد بن الربيع 27
أنس بن النضر 39
ثابت بن الدحداح 46
أوس بن ثابت 52
حسيل بن ثابت 54
عمرو بن ثابت 58
مالك بن سنان 60
شماس بن عثمان 64
خلاد بن عمرو 69
عبد الله بن عبد الأسد 79
عاصم بن ثابت 82
الحارث بن الصمة 88
المنذر بن عمرو 92
حرام بن ملحان 95

عامر بن فهيرة 101
الحارث بن حاطب 106
بشر بن البراء 111
عبد الله بن رواحة 115
حبيب بن زيد 125
سماك بن خرشة 133
عباد بن بشر 145
عبد الله بن عبد الله 152
أبو حذيفة ابن عتبة 159
عبد الله بن سهيل 163
عبد الرحمن بن ثعلبة 165
شجاع بن وهب 171
أبان بن سعيد 177
الحارث بن هشام 181
عمرو بن سعيد 191
عبد الله بن أم مكتوم 198
سعد بن عبيد 202
صفوان بن المعطل 209
النعمان بن مقرن 212
الأقرع بن حابس 218